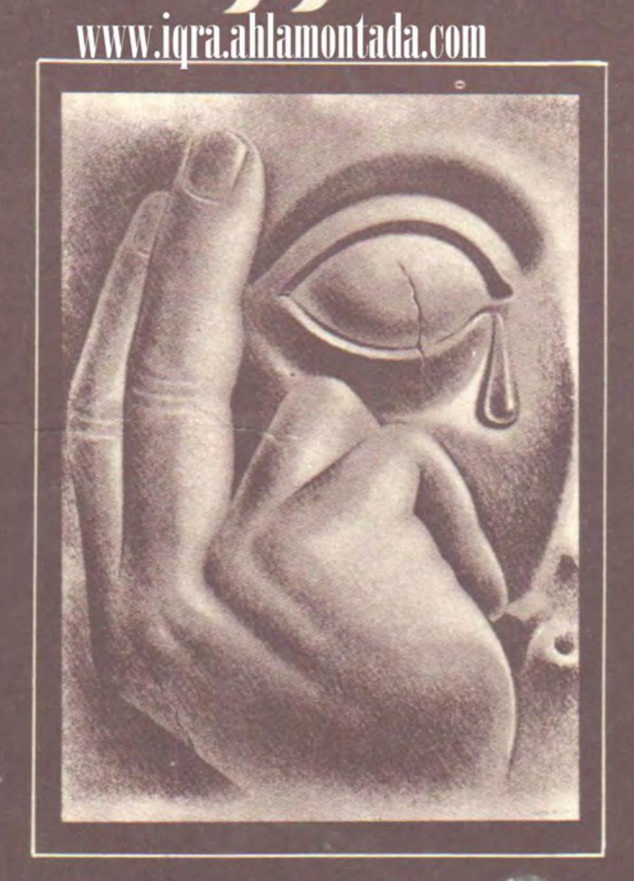


الخاطئ

د. هـ. لورنس



ترجمة د. فاضل السعدوني

مراجعة محي الدين اسماعيل



الخاطىء

د. هـ. لورنس

ترجمة د. فاضل السعدوني
مراجعة محي الدين اسماعيل

بغداد
١٩٨٩

الطبعة الاولى . ١٩٨٩

شركة مطبعة الاديب
البغدادية المحدودة

كلمة في التمهيد

هو ابن الفاجعة . ابن الكارثة . وهو ابن كل العصور الحضارية . وهو الثائر على ذاته وعلى كل العصور التي انتهت بهذا العصر الأليم الذي مزق الانسان وما هو موجود داخل الانسان . انه هو الذي صعقته ضربة قوس قزح الكوني فارتدَّ يلوذ بظلمة الرحم . . . بدلاً من أن ينقذه قوس قزح ! .

ذلك هو د . هـ . لورنس الذي آلمته جميع الألهة المزيفة داخل الانسان وخارجه . فاستخدم في وجهها كل الاسلحة . . . كل الاسلحة حتى الاسلحة البذيئة منها . ذلك ان الالهة المزيفة لم تعد . كما كانت في عصور النور تسكن القمم . بل تعوي مصابة بالكراهية والبغض وتعيش في الحضيض .

وهذه الرواية (الخاطئ) هي إحدى الارتدادات التي اعتصرها لورنس من ذاته في وجه الخطايا القاتلة المميتة التي يقترفها الانسان في اوكار الضعف الانساني . إزاء عصر الانحطاط . عصر اللاتوازن بين الجسد والروح .

هذه الرواية ترجمها الى العربية الصديق الاديب المترجم الفاضل الدكتور فاضل السعدوني . وأظنُّ أنه قد وقع عليها اختياره . لان فيها كثيراً من عناصر رواياته الكبيرة الاخرى . وفيها الشيء الكثير من عناصر فلسفة لورنس . لا سيما عنصر «البتر» الذي يتمثل بانتحار البطل . فهي صرخة الفشل في الخلاص !

ورواية (الخاطئ) التي اختلف النقاد كثيراً في تقويمها وفي مكانتها بين آثار لورنس الكبرى تظلّ إحدى لوحاته الخلابة . فلورنس قبل كل شيء . وبعد كل شيء فنانٌ من فرع رأسه الى أخمص قدميه . فنان يهبنا الكثير بسخاء . ويشدنا إليه وهو يصور لنا العفة المبتورة . ومع كل هذا الاطار الذي يؤطر رواية (الخاطئ) لا تستطيع ان تبتسم . بل البسمة تستحيل الى اشفاق . الى تطلع مجنون داخل الذات .

تلك هي رواية (الخاطئ) التي قهر لغتها النقية الصافية الصديق الدكتور فاضل السعدوني وهو ينقلها الى العربية بلغةٍ بسيطة نقية صافية . واني اعلم اي جهد يبذله من يقدم على ترجمة لورنس هذا الفنان الكبير ذي الاسلوب «السهل الممتنع» .

يقول لورنس في روايته (عشيق الليدي تشاترلي) : ان اللحظة الاشد خطراً هي تلك اللحظة التي يلبس فيها المرء رداءه . . .

وفي رواية (الخاطئ) يلبس لورنس رداءه الاصيل ، ويحمل لنا كثيراً من نظراته الفلسفية ، فاعتصر ذاته ، واحرق فكره ، واستنزف كثيراً من قدراته ليمنع واقعة «البتر» . بيد أن الكارثة كانت اكبر واعمق . . . فالحل مستحيل ، واعادة التوازن وراء المستحيل .

ولقد احسن الصديق الدكتور فاضل السعدوني صنعاً بترجمة هذا الاثر الفني الخلاب ، ففيه من الفكر ومن البهاء والرواء والجمال ما يفوق الجهد الذي بذله المترجم الصديق .

محي الدين اسماعيل



الفصـــل الاول

هتفت (لويزا) وهي تنتزع اصابعها من مفاتيح البيان ، مستديرة على نحو مفاجئ الى عازفة الكمان :

– «اخلعي خافض الصوت من كمانك ، هيا افعلي ! ، .»

نظرت اليها (هيلينا) ببطء وهي ما زالت ممسكة بكمانها وقالت :

– «سيكون الصوت عالياً على نحو لا يطاق ياعزيزتي لويزا» .

ثم همت واقفة وهي تضرب تنورتها البيضاء بقوس كمانها في نوع من التجمل الحزين . بينما صرخت (لويزا) وهي تثبُ من كرسيها ، بمبالغة امرىء ساخط على من يُحب :

– «واخيراً وافقت على اخفات صوت كمانك . لقد كنت ترفضين ذلك من قبل دون مناقشة ، فماذا دهاك ؟» .

فاجابتها (هيلينا) التي بدت مرهقة منشدهة ، بيد انها لا زالت حساسة :

– «لقد استسلمتُ مؤخراً للعديد من الاشياء» .

خفضت (لويزا) من تحدّيها الجاف ، وقالت وهي توبخها بنبرات نابعة من الحب :

– «على اية حال ، انا لا احب ذلك» .

واشارت (هيلينا) بقوس كمانها الى مكانٍ على اوراق معزوفات (لويزا) من سونيتات (موزارت) قائلة :

– هيا اكملي من (اليكرو) .» .

وباذعان سحبت (لويزا) الاوتار واستمرت الموسيقى .

وهناك شاب كان يستلقي على كرسي من كراسي الخيزران الموضوعة قرب موقد النار استدار بارتياح عن الفتاتين كي يرقب ذباله النار ، وهي تتأرجح وترقص مع الموسيقى . كان من الواضح انه مرتاح في جلسته على الرغم من انه بدا غريباً في الغرفة .

كان المكان غرفة المعيشة في بيت متواضع ينتصبُ في صفٍ مع مئات اخرى من البيوت المتشابهة ، على امتداد شارع عريضٍ في ضاحيةٍ جنوب لندن . وبين حين واخر ، كانت مركبات الترام تمرُّ مهمهمةً ، ولكن غرفة (هيلينا) تلك ، كانت بعيدة عن مركبات الترام وعن ضوضاء المرور في لندن ، كانت الجدران ذات لون اخضر كامد ، بلون نباتات آب ، وتبدو السجادة الخضراء بحافاتها اللامعة مثل مربع من العشب على ارضيةٍ ترابية سوداء . كان السقف أبيض صقيلاً وكذلك الافريز والموقد ، ولم يكن ثمة لون آخر في الجوار . بينما كان لجميع الاثاث – بأستثناء البيان – مظهر لا يثبت في الذهن ، حيث وضع كرسيان من الخيزران قرب النار ، والمشجبان الواهيان من الخشب الاسود اللامع والكرسيان المتداعيان وخزانة الكتب القابعة في الكوَّة كلها متناثرة غير مستقرة كما لوانها قد أزيحت لتبقى الغرفة فارغة بارضيتها وجدرانها الخضر ، وحافة سقفها البيضاء اللامعة .

على رف الموقد وضع تمثال صغير لبوذا من الحجر الصيني كان يشع منه بريق ابيض . كان (بوذا) رمادي اللون ، مجرداً من العاطفة ، مستغرقا في تأملاته والى جانب التمثال ، ثمة لوحان من الحجر شبه الشفاف تغشيها سحابات جميلة من الورد والدم ، محفورة برموزٍ صينيةٍ ، وهنالك أكوامٍ من التذكارات وبلورات الصخر والاصداف وفتات الاعشاب البحرية .

عندما دخل الشاب الغريب الغرفة احس بالارتباك . نظر الى الفراغات العارية على الجدران ذات اللون الاخضر الغامق ، والى الاثاث القليل ، فاحسّ بانه غير مرحب به . كان مصدر العاطفة الوحيد في الغرفة ، هو ذلك المصباح الابيض الذي كان يتوهج على حاملٍ قرب الجدار ، ونبات السرخس الكبير الجميل ذا الاوراق الضيقة التي تطوّق سحابتها الخضراء فجوة الشباك . هذه الاشياء فضلاً عن النار ، بدت ودودة فقط ، بينما كانت الشموع الثلاث الموضوعة على البيان الاسود تشتعل ببطءٍ ، والموسيقى تتذبذب بفتور كفراشاتٍ مخّدرةٍ . كانت (هيلينا) تعزف على نحو آلي ، وتكسر الموسيقى تحت قوسها ، فتخرج ميتةً مؤذية للسمع . قطب الشاب وجهه متأملاً ، ثم استدار نحو العازفتين مرة اخرى وقد بدا عليه الانزعاج .

كانت عازفة الكمان فتاة في الثامنة والعشرين ، وكان ثوبها الابيض ذو الخصر العالي يتأرجح كلما عزفت اللحن ، ويهتز باصرار كما لو ان جسدها كان بندولاً ابيض . غشي الوجوم وجه الشاب واستمر في مراقبتها . كانت الفتاة وفيرة الجسم ممتلئة بالحيوية ، رقبتها بيضاء نقية مقوسة ترتفع من ذلك الفراغ الرقيق بين كتفيها ، وحينما كانت تمسك بالكمان ، كان حرير

كمها الابيض يتأرجح طافياً ملاحقاً قوس الكمان . ولم يستطع (بيرن) رؤية اكثر من قوس خدها المكتمل ، ولكنه تأمل شعرها الذي كان يبدو من الخلف بلون الدمية المصنوعة من الحجر الصابوني تقريباً . كانت تتشرب ضوء الشمعة الذي يتحرر حياً امامها . فيتلألأ فوق جبينها .

توقفت (هيلينا) عن العزف فجأة ، واسقطت ذراعيها في استسلام نزقٍ ، فنظرت (لويزا) وهي جالسة على البيان من حولها مندهشة وصرخت بها :

–«لماذا توقفت ؟ الم يكن ذلك على ما يرام ؟» .

ضحكت (هيلينا) مبهوتةً ، واجابتها وهي تضع كمانها برقة كي يرتاح .

– «كان العزف خطأً كله» .

فقالت (لويزا) وهي تشعر بالغضب ، فلقد كانت تحب (هيلينا) بحنان مفرطٍ :

– «آسفة ، فقد عزفتُ بطريقةٍ رديئة» .

– «انك لم تعزفي برداءة على الاطلاق ، بل أنا-؟» .

بعد ان اغلقت غطاء حقيبة كمانها السوداء ، وقفت (هيلينا) للحظة ، كما لو انها كانت في حيرة من أمرها ، بينما نظرت اليها (لويزا) بعينين مفعمتين بالعاطفة وكأنها كلب لا يجرؤ على الذهاب الى صاحبه ، ولانها لم تتلقَ اية استجابةٍ ، انحنت فوق البيان مرةً أخرى ، فنظرت اليها (هيلينا) لفترةٍ طويلة ، ثم اغلقت عينيها ببطءٍ ، وارتسمت على وجهها ابتسامة باهتةً ، وقالت لها ، كما لو انها تلاطف طفلاً :

– «اعزفي لنا شيئاً من شوبان ، يالويزا» .

فرددت الكبرى بحزن :

– «ساعزف ذلك على نحو رديئ ايضاً ، كاي شيئ آخر» .

كانت (لويزا) في الخامسة والثلاثين ، ولقد تعرفت على (هيلينا) منذ عدة سنوات .

فاعادت (هيلينا) بهدوء :

–«اعزفي المازوراك* اذن» .

ابتدات (لويزا) تنقب بين صفحات المعزوفات ، بينما اطفأت (هيلينا) شمعة كمانها ، وجاءت لتجلس جنب النار مقابل (بيرن) . عزفت الموسيقى ، وضغطت (هيلينا) ذراعيها بكفيها وهي مستغرقة في التفكير ، فقال الشاب :

–«إنهما لا زالتا ملتهبتين» .

---

* موسيقى بولندية راقصة . .

رفعت اليه بصرها على نحو مفاجئ ، واضاءت عيناها الزرقاوان المتعبتان المهمومتان بابتسامة صغيرة :

-«نعم» .

ورفعت اكمامها ، كاشفةً عن ذراعٍ رقيقةٍ متينة قرمزية اللون من مقدم الكتف حتى الرسغ كفاكهةٍ حمراء طويلة محترقة ، واسندت الفتاة خدها على اللحم البض الناعم قائلةً :

-«الجو حارٌ» .

ثم ابتسمت وابتدأت تلاطف ذراعها التي لوحتها الشمس بمتعة خاصة .

قال الشاب مقطباً :

-« من الغريب ان يرى المرء حرقاً للشمس كهذا في منتصف الشتاء ، ولا اعرف لماذا بقي طوال هذه الشهور ، الا تضعين عليه شيئاً كي يشفى ؟» . ابتسمت له مرة اخرى ، برثاء تقريباً ، ثم وضعت فمها بحنانٍ على الحرق ، وقالت بهدوء وبمتعة غريبةٍ :

-« انه يعاود الظهور كل مساءٍ على هذا النحو» .

-« لقد تعرضت للشمس في آب ونحن الآن في شباط . لا بد انه يرجع إلى حالتك النفسية انك تستحضرين الألم» .

نظرت اليه ببرودٍ وعلى نحو مفاجئ ، واجابت باختصار وفي نوع من السخرية :

-«انا لا افكر فيه مطلقاً» .

امتقع وجه الشاب بسبب نبرتها اللاذعة ، ولكن اذاه كان جسدياً حسب ، اذ سرعان ما ابتسم لها برقةٍ :

-« مطلقاً» .

ران الصمت بينهما لبضع لحظاتٍ ، بينما استمرت (لويزا) بالعزف ، وفي النهاية هتفت :

-«اللعنة !» .

ثم انتفضت واقفةً من كرسيها ، فنظر الاثنان اليها ، وقال لها (بيرن) ضاحكاً :

- «لقد كنت تعزفين جيداً ، ما خطبك ؟»

فصرخت (لويزا) وهي تسقط ذراعيها على تنورتها :

-« انتما ! ، اواه ، لا استطيع العزف لفترة اطول» .

وضحكت (هيلينا) في الحال ، فدافعت (لويزا) عن نفسها :

- «اوه ، لا استطيع باهيلينا» .

فاجابتها (هيلينا) وهي تضحك قليلاً :

-«انت لست مجبرة على الاطلاق» .

وبأنةٍ صغيرةٍ من شخصٍ يستسلمُ لنزوةٍ تناقضُ احترامه لنفسه ، اسقطت (لويزا) نفسها على ساقي (هيلينا) ، واضعةً ذراعيها ورأسها حول ركبتي صديقتها بتراخٍ ولم تبد الاخيرة اي رد فعل ، بل استمرت بالتحديق الى النار ، اما (بيرن) الذي كان على الجانب الآخر من الموقد ، فقد تمدد في كرسيه يدخن سيكارةً وهو يتأمل .

كانت الغرفة هادئة جداً ، بينما كانت حركة المرور مستمرة في الخارج ، والاقدام تمور على الارصفة ، ولكن عاصفة الحياة المبتذلة هذه ، ظلت خارج غرفة (هيلينا) التي بقيت خرساء كأنها كنيسةٍ . اذ كانت الشمعتان تحترقان على نحو باهت ، كما لو انهما فوق مذبح الكنيسة ، يتلألأ ضوؤهما الاصفر على البيان الاسود ، بينما كان المصباح مطفأ ، وفقدت النار في الموقد لهبها وتحولت الى كسارة حمراء اللون ، ما لبثت ان تضاءلت ، بحيث اخذ لهب الشموع الاصفر ينعكس حتى على الجمرات ، ولم ينبس احدهم ببنت شفةٍ . وفي النهاية ارتجفت (هيلينا) قليلاً في كرسيها ، بيد انها لم تغير من جلستها ، بل ظلت جالسة بلا حراك وغمغمت :

-«هل ستصنعين لنا القهوة يا لويزا ؟»

رفعت (لويزا) نفسها ونظرت الى صديقتها ، ثم تمطت قليلاً وهي تتأوه بنهم :

-«اوه ، ان هذا لوضع مريح جداً !» .

فردت (هيلينا) وهي تحاول أن تنطلق :

-«اذن لا تزعجي نفسك بالنهوض ، ساذهب انا» .

مدت (لويزا) يدها ووضعتها على رسغ (هيلينا) ، وهمهمت متأوهة باغراء وبحب ظاهر :

-« ساذهب انا» .

وبينما كانت (هيلينا) ما تزالُ تجهد نفسها ببعض الحركات كي تنهض على أن المرأة الكبرى نهضت ببطءٍ . وقد رمت بكل ثقلها على صديقتها ، وسألتها ، متصنعةً الخمول :

-«أين القهوة ؟» .

فقد كانت مليئة بأحاسيس التكلف والتصنع الصغيرة التي تستنفدها بحبٍ متقلبٍ لا يستقر على حال .

-«اعتقد انها في مكانها المعتاد ياعزيزتي» .

تثاءبت (لويزا) وجرجرت نفسها الى الخارج :

-«اووه . . . !»

كانت الاثنتان صديقتين لعدة سنوات ، ولقد نامتا ومرحتا وعاشتا معاً . اما الآن ، فان صداقتهما تقترب من نهايتها .

وعندما أغلق الباب قال بيرن :

-«على اية حال ، اذا كنتِ حيةً ، فيجب عليك ان تعيشي .» .

فانفجرت (هيلينا) في نوبةٍ من المرح عند سماعها هذه الملاحظة المفاجئة ، ثم سألته بتسامحٍ .

-«لماذا ؟»

فاجابها مبتسماً :

-« لان ليس ثمة شيءٌ اسمه الوجود السلبي» .

فزمت شفتيها في تدليلٍ مُسرٍ من هذا الشاب وقالت :

- «انا لا اتبين الامر اطلاقاً» .

فرد محتجاً :

-« لن تستطيعي ذلك . فانت كشجرةٍ لا بد ان تبرعم في نيسان اذا كانت حية ، فهي لا تستطيع منع نفسها ، والامر ينطبق عليكِ ايضاً» .

فقالت بنبرةٍ ساخرة :

-«اذا كنت لا استطيع منع نفسي ، فما المشكلة ياصديقي ؟» .

- «اعتقد لاني لا استطيع منع نفسي ، فاذا كان الامر يزعجني فاني لا استطيع كتمان ذلك ، فكما ترين . . . . فانا نيسان !» .

اصغت اليه باقل ما يمكن من الاهتمام ، ولكنها اجابته بنبرةٍ معدنية باردةٍ غريبة جعلت اعصابه ترتعش :

- «ولكني لست شجرة عارية ، فكل اوراقي الميتة ما زالت معلقة بي وترقص رقصة الموت» .

- فقال بسرعةٍ :

- «ولكنك تبرعمين من الداخل مثل شجرة الزان» .

- «احقاً ما تقول ياصديقي ؟ . انا تعبة جداً كي ابرعم» .

ورد عليها محتجاً :

- «لا . . . لا» .

عقد حاجبيه الكثين وتأملها بقلق . لقد تعرضت لفجيعةٍ كبرى في آب الماضي ، وهي لا تزال مشدوهةً ، ووجهها ابيض ومهموم مثل قناع ثم ما لبث ان حملقت في النار ، وقد لاح على وجهها قطوب ، ناسيةً اياه تماماً .

-« انت تحتاجين لآذار . . . لكي يمزق اوراقك القديمة ، والمفروض ان اكون آذار» . وضحك مما قاله ، وقد بدا قلقاً عليها الى ابعد الحدود . اهملته مرة ثانية بسبب افتراضاته ،

فانتظر فترة قصيرة . ثم ما لبث ان انفجر مرةً أخرى :

-« يجب ان تبدأي مرةً ثانيةً . انك تجففين اوراقك الحمر في الصيف العاصف ، ولكنك لست ميتةً حتى لو اردت ذلك ، وحتى لو كان ذلك مرأ كي يقال ، لكن يجب ان تقوليه : انتِ لست ميتةً . . . . »

استدارت وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة مؤلمة غريبة – كما لو انه قد نكأ جرحها – كي تحملق في صورةٍ معلقة فوق البيان . كانت صورة جانبية لرجلٍ وسيمٍ في مطلع شبابه ، وهو ينحني الى الامام قليلاً ، كما لو انه ينوء تحت عبء الحياة ، او ان القدر يشده . كان يبدو مسروراً ، وليس ثمة علائم تمرد في تقاطيعه المنتظمة ، فشعره الناعم الغزير ممشط الى الخلف بعيداً عن حاجبيه الرقيقين ، وانفه صغير جميل التكوين ، وذقنه مدورة وفلعتها محببة . حملق (بيرن) في الصورة ، فغشت نظراته الكآبة واليأس ، والح عليها :

-« لا يمكنك القول بانكَ مُتِّ مع سيغموند ، مثلما لا تستطيعين القول انك حية معه . أنك قد تعيشين مع ذكراه ، ولكن سيغموند ميت الآن ، وذكراه ليست هو ! » .

ثم اصدر ايماءة عنيفة تدل على نفاد الصبر واضاف :

– «لم يعد سيغموند الآن ذكرى . بل هو سيغموند الميت فقط ، وانت لا تعرفينه لانك حية مثلي ، ولذلك ، فسيغموند الميت غريب بالنسبة اليك .»

جثمت مثل حيوانٍ عابسٍ ، وقد حنت رأسها الى الامام ، ونظرت اليه من تحت حاجبيها ، فحملق بضراوةٍ فيها ، ولكنه ما لبث ان انكمش تحت تأثير حملقتها الثابتة المحدقة ، واستدار بعيداً عنها ، وهتف فيها :

– «انت تمدين يدك على نحو اعمى باتجاه الامواتِ ، ولا تلتفين الى الخلف ، بل انك لا تمسين شيئاً مطلقاً» .

فجاء صوتها مثل مواء قطةٍ :

– «ان ذراعي لويزا حول عنقي دائماً» .

وضعت يديها على حنجرتها ، كما لو أن عليها ان تخفف ألماً ، ورأى شفتها ترتفع في ازدراء ، كرد فعل ضد الحياة . لقد كانت مريضة جداً بعد المأساة التي تعرضت لها ، وقطب وجه الشاب واتسعت عيناه :

– «الناس طيبون ولكنك لم تنظري اليهم مطلقاً . فأنت تفضلين التسكع لساعات فوق الاعشاب البحرية ، مهملة الناس . . ان البشر افضل من حديقةٍ مليئة بالبراعم» . . .

راقبته مرة ثانيةً . كان هناك جمالٌ مميز في نبرة حديثهِ ، واثارتها طريقته الحنون ، في وقت لا تريد فيه ان تثار ، فلقد كان الخروج من سباتها مؤلماً . وفي النهاية قالت له :

– «انك قاس لا ترحم . اتعرف ذلك» ؟
فاحتج (بيرن) وهو يطوح يده باتجاهها :
– «وسأكون كذلك دائماً..»
فضحكت بنعومة وضجر .

ران الصمت لفترة من الزمن ، حدقت خلالها مرة اخرى في الصورة الموضوعة فوق البيان ، ونست الحاضر باكمله . اما (بيرن) فقد قضى وقته مشغولاً ، يحاول اصطياد بعض مسرات الحياة ليعطيها . ولقد اهمل ابسطها – تلك المتعلقة بالحب – لانه كان اكثر اخلاصاً منها لذكرى سيغموند ، واشد عمىً مما يجب ، قدر تعلق الامر بقلبه .

قالت بهدوء ولكن بلهفة شديدة :
– «اتمنى لو عندي كمان سيغموند» .

القى عليها (بيرن) نظرة ثم اشاح بوجهه ، ودق قلبه تعبيراً عن الاحساس بالاهانة وتهاوت روحه العاشقة المتفائلة وتراخت تحت عبء ازدرائها . لقد احسَّ بالصدمةِ أيضاً ، واستمع إلى هذا التباين ، إذ جعلته يرتعد من رعبها الخاص ، وانتظر ممتلئاً بالكراهية وطعم الرماد في فمه – وصول (لويزا) مع القهوةِ .



الفصـــل الثاني

يقبع كمان (سيغموند) الذي تريده (هيلينا) في حقيبة سفر (سيغموند) الهزيلة المطمورة تحت الغبار الابيض في غرفة كئيبة في (هاي كيت) . كان يساوي عشرين باوناً ، ولكن (بياترس) لم تقرر بيعه لحد الان ، بل ابقت الحقيبة السوداء بعيدةً عن الانظار .

يقبع كمان (سيغموند) في الظلام ، مطروحاً هناك كما كان قد وضعه آخر مرةٍ بيديه الاليفتين المتسرعتين في كفنه الحريري الاحمر . وبعد شهرين عقيمين انقطع الوتر الاول بحدةٍ ضارباً جسد الكمان الحساس ، وانقطع الوتر الثاني عند اقتراب عيد الميلاد ، ولكن احداً لم يسمع العويل الخافت لرحيله . واستقر الكمان أخرس في الظلام ، وزحفت رائحة عفن خفيفة فوق الخشب الصقيل الناعم ، وتكومت اوتاره الملتوية الذابلة متجعدة من الم القطع خرساء تحت الطيات الحريرية. وتحولت رائحة (سيغموند) التي كان الكمان يعبُق بها تدريجياً الى رائحة عفن فلقد مات (سيغموند) حتى بالنسبة لكمانه . نفخ فيه من روحه حتى اصبحت اوتاره مثل نسيج لحمه . كان يبدو ، وهو يمسك بكمانه ، كانما يضع اصابعه على اوتار قلبه وقلب (هيلينا) . لقد كان محبوبه الصغير الذي شرّبه وجوده وحوله الى موسيقى . اما الآن ، فلقد مات (سيغموند) .، ولم تبق منه الا رائحة عفن في كمانه الذي يستقر ملفوفاً بالحرير منتظراً في الظلام . قبل ستة شهور كان يتوق الى الراحة . في الليالي الاخيرة من الموسم ، وعندما كانت اصابع (سيغموند) تضغطه بشده ، وكان حنان (سيغموند) ومتعته وخوفه تؤلم الجسد الهش لمحبوبه الصغير ، كان الكمان يتوق الى الراحة . وفي الليلة الاخيرة من الاوبرا ، ومن غير اسىً ، عزف (سيغموند) المقاطع الاخيرة . . بقسوةٍ ناتجة من نفاد صبره ، وبهياج صادر عن الترقب .

اسدلت الستارة وانحنى المغنون العظام ، واحسَّ (سيغموند) بالهدير المتناثر للتصفيق الذي ادى الى تسارع نبضه . كان التصفيق أجش ، متوحشاً روّع روحه الملتهبة ، وجعله يرتجف من الترقب كما لو أن شيئاً ماقد مسح عريه الساخن . وبسرعةٍ ، وبيدين ممتلئتين بحنانٍ غريزي ، ابعد عنه الكمان .

كان رواد المسرح متعبين ، وانسحبت الحياة بسرعة من دار الاوبرا ، ونهض اعضاء الفرقة الموسيقية يضحكون ، مازجين تعبهم مع تمنياتهم بعطلة طيبةٍ بتحذيرات ماكرةٍ ونصائح غير لائقة . وهم يضغطون ايدي بعضهم البعض بدفءٍ قبل ان يتفرقوا . في السنوات الماضية . كان (سيغموند) يتريث غير راغبٍ في التوديع الممل من قبل زملائه في الفرقة . وكان يغادر دار الاوبرا بشيءٍ من الأسف المؤلم . اما الآن ، فقد ضحك معهم ، واخذ ايدي رفاقه وحياهم تحية الوداع . قام بكل ذلك مشدوهاً ، نافد الصبر . وكان المسرح الآن مرعباً في فراغه . فغادر مرحاً مسرعاً ، كلهب يمد لسانه على الريح .

اسرع (سيغموند) في الشارع حاملاً حقيبة كمانه السوداء ، ثم توقف لكي يرنو للازهار التي كانت متكومة شاحبة تحت الضوء الغازي في السوق . غداً سيفتح البحر وضوء الشمس مساحات واسعة امامه . كان القمر بدراً فوق النهر ، فنظر اليه نظرة منشدهة ثم توقف تماماً ، اذ لا فائدة من استعجال القطار الذي سيسافر فيه . كانت حركة المرور تتأرجح امامه ، واضوية المصابيح تتلألأ دافئة على الوجوه الذهبية . ولكن سيغموند كان قد غادر المدينة مسبقاً . فلقد كان وجهه ذهبياً يشابه القمر ، والنهر في بريقه الذهبي الرمادي المرتجف الهش بين طيات ظلاله يسقط منبسطاً مثل قطعة قماش امامه . فيظهر تلألأ القمر الابيض البراق مثل لحم حي . اتخذ مقعده في القطار متلفعاً على نحو آلي بضوء القمر ومراقباً حركة الاشياء . كان في نوعٍ من الغيبوبة . فلقد كان وعيه على ما يبدو معلقاً . وانزلق القطار بين الاماكن المظلمة والمضاءة . وراقب (سيغموند) تلك الحركة اللانهائية مدهوشاً .

كانت تلك واحدة من ازمات حياته . فلقد كبت روحه لسنين عديدة في نوعٍ من اليأس الآلي . مؤدياً واجبه ومتحملاً الباقي . ولكن روحه افلتت بنعومةٍ من اسارها . اما الآن ، فسوف يتحرر كلياً كي يحصل ، على الاقل ، على بضعة ايام خالصةٍ لمتعتهِ الخاصة . ان هذا بالنسبة الى رجلٍ في مثل استقامته يعني كسر الروابط وقطع روابط الدم ، فهو نوع من الولادة الجديدة . وتحت اثارة ليلته الاخيرة هذه ، خرجت حياته عن طوعه . وبينما جلس في شباك العربة ساكناً ، يراقب الاشياء وهي تمر من امامه . احسَّ في داخله بحيويةٍ لا يستطيع منعها ، وبالتدريج ابتدأ جسد ماضيه والرحم الذي غذاه بطريقةٍ مستمرة لعدة سنين ، يلفظه الى الامام . لقد كان يرتجف في كل كيانه على الرغم من عدم معرفته السبب . وكان جل ما

يستطيع فعله الآن ، هو ان يراقب الاضوية التي تمرق امامه ، وان يدع تحول نفسه يستمر . وفي النهاية ، وعندما سار القطار في الليل المضيء المكتمل ، ورأى (سيغموند) المروج عميقة في ضوء القمر ، ارتجف في نوع من التوقع الكئيب . وكانت ظلال اشجار الدردار العظيمة الرمادية تبدو وهي تتلكأ متلفعة بعباءاتها عبر الحقول الشاحبة . انه لم يرها بمثل هذه الصورة من قبل . كان العالم يتغير !

توقف القطار ، وبجهد نهض كي يذهب الى البيت . كان هواء الليل بارداً عذباً ، فشربه بعطش . وفي الطريق رفع رأسه الى القمر مرة اخرى . كان يبدو انه يساعده . ففي بريقه وسط السموات الشقر كان يتجاوز النكد ، مثلما سيواجه هو الامواج الفضية المندفعة الى الشاطئ ، بينما تنتظره (هيلينا) على الساحل ، وسوف يرفعها بيدين بيضاوين . وبمتعةٍ مفاجئةٍ ضحك واسرع القمر يضحك معه عبر كتل الاشجار السود .

نسيَ انه ذاهب الليلة الى بيته ، ولكن الرطوبة الباردة لبوابة حديقته البيضاء الصغيرة ذكرته بذلك ، فظهرت تقطيبة على وجهه . وحالما أغلق الباب ، ووجد نفسهُ في ظلام الردهة ، حتى عاوده الاحساس بالتعب . كان الذهاب الى الفراش يتطلبُ جهداً ، ومع ذلك ، ذهب بهدوءٍ الى غرفة الجلوس حيث يتسلل ضوء القمر الى هناك ، وتخيل ان بياضه هو (هيلينا) ، فأمسك انفاسه وتصلب ثم تنفس مرة اخرى . «غداً» فكر مع نفسه ، بينما كان يضع حقيبة كمانه على اذرع كرسي الخيزران ، ولكن كان لديه احساس طبيعي بوجود (هيلينا) . كان يبدو شاعراً بوجودها على كتفيه ، وبسرعةٍ استدار الى ضوء القمر رافعاً ذراعيه وهتف بهدوء «غداً» . ثم مالبث ان غادر الغرفة خلسة خائفاً مترقباً ان يزعج الاطفال .

في ظلام المطبخ ، احترق برعم ضوء ازرق ، وبسرعةٍ تحول الغاز الى لهبٍ اصفر عريض ، وجلس الى المائدة . كان تعباً ومهتاجاً ومغتاظاً بالشك . وبينما استقر في كرسيه كان ينظر الى كل شيء من حوله بازدراء .

كانت المائدة مغطاة بقطعة ملابس قذرة ذات بقع كبيرة بنية اللون تدلل على اثر الاطفال ، وامامه ثمةَ كوب وصحن واناء صغير عليه سكين ، بينما كان الجبن في اناء آخر ملفوف بقطعة ملابس ذات حافة حمراء كي تبعد الذباب ، الذي كان ، مع ذلك ، يحتشد من حولها على السكر والخبز وعلى علبة (الكاكاو) . نظر (سيغموند) الى كوبه المثلم ورأى عليه بقعاً مثل علامة فم قذر ، ثم شرب قدحاً من الماء .

كانت الغرفة كئيبة موحشةً ، وثمة قطعة (مشمع) محشورة في ثقب قرب الباب ، بينما تنتشر احذية ذات حجوم مختلفةٍ فوق الارضية ، في حين تغطت الاريكة بملابس الاطفال . وفي الفرن الاسود كان الرماد يقبع ميتاً ، وفي الموقد ثمة قطع من الخشب والجرائد ونفايات الورق

وكسرات الخبز والمربى . وبينما كان (سيغموند) يمشي عبر الارضية ، داس على قطعتين من الحلوى تحت قدميه . كان عليه ان يتلمس تحت الاريكه والخزانة كي يجد نعليه وهو مرتد ملابسه المسائية . وسوف يكون الامر هكذا طالما بقيت (بياترس) نفسها وبقي (سيغموند) زوجها . اكل الخبز والجبن بطريقةٍ آليه متسائلاً عن اسباب تعاسته ، ولماذا لا ينتظر الغد بمتعةٍ ، وبينما كان يأكل اغمض عينيه نصف متمنٍ لو انه لم يعد (هيلينا) بالرحلة ؛ نصف متمنٍ لو ان غداً لن يأتي .

احسَّ بشيئ ما في طريقه بينما كان يتراجع الى الخلف في كرسيهِ واكتشف انها دمية دب صغيرٍ وكسرة مشط ابيض . ابتسم لنفسه ، فلقد كانت هذه الاشياء تمثل خلاصة حياته العائلية : مشط خشن مكسور وطفل يبكي لان شعرهِ مشعث ؛ وزوجة تركت شعر طفلها بهذا الشكل ، لتّمشطه عندما يتعكر مزاجها ، ومن ثم ، الدب الدمية الذي يمد انفه الصوفي الاسود ويرفع ذراعه باتجاهه .

تساءل عن سبب ذهاب (كوين) الى سريرها من دون دميتها المفضلةاذ انها كانت متعلقة بتلك الدمية التافهة . ثم طغى عليه احساسٌ جياش بالحنان تجاه اطفاله متصارعاً مع شيئ آخر . غطس في كرسيه ، وابتدأت ذاكرته المشوشة تصطبغ بلون اسود . جلس وقد تغلبت عليه الانشداه والمشاكل يحملق ضائعاً في الفراغ ، واحسَّ بالاختناق ، فتيقظ محاولاً تعديل كتفه . اخذ نفساً عميقاً ثم استرخى مرة اخرى ، وبعد فترة ، نهض حاملاً الدمية ، وذهب ببطء الى السرير .

تنام (كوين) و (مارجوري) اللتان تبلغان التاسعة والحادية عشرة من العمر معاً في غرفة صغيرة جيدة الاضاءة . رأى ابنته المفضلة نائمة وقد انحسر عنها الغطاء ، وارجعت رأسها المتصلب الى الخلف ، بينما كان فمها مفتوحاً الى النصف ، وشعرها الاسود منثوراً على الوسادة . اما (مارجوري) فلقد كانت متدثرة بالاغطية ، فوضع الدمية بين الفتاتين .

بينما كان يراقبهما ، كره اطفاله لانهم عزيزين عليه الى هذا الحد . فاما ان ينحدر الى الدرك الاسفل ويستمر بسحب وجودٍ يكرهه ، او ان عليهم ان يعانوا ، ولكنه وافق على ان يقضي هذه العطلة مع (هيلينا) ، وقد صمم على ان يفعل ذلك . وعندما استدار راى نفسه منعكساً مثل شبح في المرآة . استدار الى الخلف ، وحملق في نفسه ، كان شعره لازال كثاً اسود ، ولم يستطع رؤية الشيب عند الصدغ . كانت عيناه غامقتين وحنونين ، وفمه تحت الشارب الاسود ممتلئاً بالشباب .

القى نظرة اخرى على الاطفال وقطب وجهه ، ثم اتجه الى غرفته الصغيرة ، واحسَّ بالفرح لانه اختبأ اخيراً في مقصورته المظلمة الصغيرة .

في الخارج ، كان العالم يلقي شحوباً فاتناً ، ويسقط من حوله ظلالاً تجعل الحقل والاشجار والبنايات تبدو مثل كائنات حية . وتلألأ نفس ذلك الشحوب طوال الليل على (هيلينا) التي كانت تستلقي متكومة ساحرة ، مثل القمر ، على البحر ، الذي كان يتأرجح جيئة وذهاباً مهدهداً جزيرتها بينما كانت نائمةً . كانت هادئة جداً وواثقة من نفسها ، ولقد كان يريحه جداً ان يكون معها . فلا شيءٌ يهم سوى الحب وجمال الأشياء . أحسَّ بالجوع والجفاف ، وعندها الراحة والحب مثل الماء والمن بالنسبة له . كانت قوية في امتلاكها لنفسها ، وفي حبها للاشياء الجميلة والاحلام .

دقت الساعة في الطابق الاسفل دقتين فهمس لنفسه :

- «يجب ان أنام» .

سحب حقيبة سفره من تحت السرير وبدأ يجهزها . وعندما اكمل ذلك في النهاية ، اغلقها بفرقعة مفاجئة ، وبدأ صوت اغلاقها نهائياً له ، ثم وقف وتمطى متنهداً وقال لنفسه :

- «انا تعب جداً» .

ولكن ذلك كان مجرد محاولة اقناع للنفس . وعندما خلع ملابسه ، جلس على السرير بعض الوقت مرتدياً منامته ، وهو يضرب ركبته باصابع يديه بسرعة ، وهو يهمهم :

- «انا في الثامنة والثلاثين الآن ، ولازلت بائساً مثل طفل !» . ثم ابتدأ يفكر في الغد .

عندما بدا وكأنه سيستغرق في النوم ، استيقظ ليجد الافكار تثقل عقله متجمعة مثل النحل على الخلية . كانت الذكريات والافكار تنساب بسرعةٍ وهبطت عليه مثلما يهبط الاوز البري ويستولي على بركةٍ ، وترددت في ذهنه مقاطع من الاوبرا ، فعزف ايقاعها بكل دمه ، وبينما كان يتقلب في عذابهِ ، تنهد وتذكر مقطوعة (كونشيرتو دي بيريوت) التي عزفتها (هيلينا) في درسها الاخير ، ووجد نفسه يراقبها كما كان يفعل دائماً . وشعر مرة اخرى بنفاد صبر فطري انتابه عندما عزفتها خطأً ، ثم ابتدأت مرة ثانية ، وعند ارتفاع وانخفاض قوس كمانها ، ادرك اين تتسلل افكاره . لقد كانت تخطئُ في العزف ، بينما كان نافد الصبر ، واحسَّ بعينيها الزرقاوين تنظران اليه باهتمام .

جفل كلاهما عندما دخلت ابنته (فيرا) فجأة . كانت فتاة جميلة في التاسعة عشرة من عمرها . عبرت الغرفة ، والقت نظرة عابرةً على (هيلينا) كما لو انها قطعة اثاث في طريقها . ثم سألت والدها سؤالاً بنبرة قاسيةٍ مهينة ، وخرجت مرةً ثانية كما لو ان (هيلينا) لم تكن هناك في الغرفة اطلاقاً .

وقفت (هيلينا) تعزف موسيقى (بيلياس) ، وعندما خرجت (فيرا) ، سألته بنبرة غريبة جعلته يرتجف :

– «لماذا تعتبر موسيقى بيلياس باردةً؟»

تلعثم سيغموند في الاجابة ثم تجاوزا كل شيْ ، ولم يذكرا اي شيْ ، مهملين كل ما يشين وكان هناك الكثير مما يشينها .

كانت تتردد على بيت (سيغموند) كطالبة موسيقى منذ عدة سنين ، باعتبارها صديقة للاسرة في البداية ، ثم ابتدأت هي و (لويزا) تذهبان بين فترة واخرى الى اية قاعة او مسرح يعزف فيه (سيغموند) ضمن الاوركسترا ، وهكذا اعتاد الثلاثة بعد فترة قصيرةٍ ، ان يعودوا الى البيت معاً . ثم دعت (هيلينا) (سيغموند) الى بيتها ، وذهب الثلاثة في جولات معاً ، ثم ذهب الاثنان لوحدهما في جولاتٍ ، بينما كانت (لويزا) تتستر عليهما .

لقد استطاعت (هيلينا) فهم وحدته واحست باذلال قدره له ، واحسٌ بعينيها الزرقاوين المهمومتين تحدقان إلى روحه باستمرار ، فاضاع نفسه فيهما .

وفي ذلك اليوم ، وقبل نهاية الموسم الموسيقي بثلاثة اسابيع ، وعندما اهانتها (فيرا) بتلك الطريقةِ ، قالت له (هيلينا) ، وهي ترتدي سترتها وتنظر اليه طوال الوقت بعينين زرقاوين مهمومتين :

– «اعتقد يا (سيغموند) اني لن استطيع المجيْ الى هنا بعد ، فبيتك لم يعد مفتوحاً لي» .

تلعثم بسبب من احساسه بالارتباك والخزي ، بينما كانت هي تضغط على يده بشدةٍ ولفترة طويلةٍ ، ثم قالت له وهي تغادره :

– «ساكتب لك .»

مقت (سيغموند) حياته في ذلك اليوم ، وسرعان ما كتبت ، وعندما تمدد ، ورأسه في حضنها بعد اسبوع ، في متنزه (ريجموند) ، قالت له :

– «انت تعب جداً يا (سيغموند) .»

لاطفت وجهه وقبلته برقة ، بينما غرق (سيغموند) في الانبهار الذائب للحب ، ولكن هيلينا كانت – اذا اردنا ان لانحط من قدر الكلمة – طاهرةً عفيفة ولكنها كانت تمثلُ على نحو ثابت القسوة والقبح بالنسبة لسيغموند .

– «انك تعب جداً ياعزيزي . يجب ان تأتي معي لتستريح خلال الاسبوع الاول من آب .»

تدفق دمه عند سماعه ذلك ، وبغض النظر عن الاعتراضات التي قدمها ، مثل عدم امتلاكه النقود ، سمح لنفسه ان تتغلب عليه ، وسوف يذهب الى هيلينا ، الى جزيرة (وايت) غداً .

(هيلينا) بعينيها الزرقاوين الممتلئتين بالعاصفة مثل البحر ، والتي تشبه البحر ايضاً في اكتفائها بنفسها باستمرار ، وفي توحدها ، بحنجرتها الغليظة البيضاء التي تعدُّ اكثر الاشياء

جمالاً وقوة على الارض ، ويداها الصغيرتان البراقتان مثل زهور الريح ، ستكون له غداً مع البحر والفجر . فتمسك باللهب الحاد الذي اغرقه . . .

ولكن تلك الفكرة سرعان ما تلاشت ، وفكر بالعودة الى لندن ، والى (بياترس) والاطفال . ولكن كيف سيكون الامر؟ . وتراءت له (بياترس) بعينيها الغامقتين العابستين ، وشعرها الاسود المعقود الى الخلف ، كما كانت يوم امس ، وهي تتفجر غضباً عندما اخبرها «سأذهب غداً في عطلة لبضعة ايام» . استفسرت عن بعض التفاصيل فاعطاها بعضاً منها ، ولكنها انقضت عليه غير مقتنعة ، متفجرة في شكها وسبابها واحتقارها ، في حين وقف الاطفال وعيونهم مفتوحة يصغون . كره (سيغموند) زوجته لاثارتها دواخل نفسه ، واثارة نظرات الاتهام الباردةِ من اطفاله .

قال شيئاً ما كان له أثره الكبير في (بياترس) . إذ كانت تنحدر من اسرة طيبة . ولقد نشأت كسيدة نبيلةٍ ، وتثقفت في مدرسة للراهبات في فرنسا . لقد اثار فيها كبرياءها القديم ، فسحبت نفسها بترفع ، واقتادت الاطفال بعيداً عنه ، وتساءل مع نفسه ، إنْ كان يستطيع تحمل اعادة هذه الاهانة مرةً ثانية . فلقد استنزفت منه شجاعته واحترامه لنفسه .

في الصباح ، ازعج (بياترس) صوت المزلاج الحاد في باب الردهةِ . فاستيقظت في الحال . وسمعت خطواته الثابتة المسرعة وهي تسير على عجلٍ على الممر المغطى بالحصى . غمرها احساس بالعجز وبقيت للحظة ما متيبسة بالمرارة ومهملة مثل سقط المتاع ، وهمهمت مع نفسها وقد اضطجعت متخشبة لفترة من الزمن :

– «انا لا شيْ ، انا لا شيْ .»

لم يكن هناك صوت في اي مكان ، وتسربت اشعة الشمس الصباحية مزهوةً خلال فتحات ستارة النافذة . تمددت (بياترس) وهي تختلج وتتنفس بصعوبةٍ وتغرس اظافر اصابعها في راحة يدها . ثم جاء صوت القطار وهو يخفف سرعته في المحطة ، وتبعه مباشرة صوت (شف – شف – شف) السريع الدال على توقف . وتخيلت (بياترس) ضوء الشمس وهو يسقط على نفث البخار والعاشقين ، زوجها و (هيلينا) ، وهما يسرعان خلال شروق الشمس . فقالت بصوت عالٍ وبنبرة مكتئبةً :

– «ليسقطها الله ميتةً !»

لقد كرهت (هيلينا) من أعماق قلبها .

ثم مالبثت ان استيقظت (كوين) التي كانت نائمة الى جانب امها وابتدأت تسألها .

★★★

الفصل الثالث

خلال شروق شمس الصباح ، تبددت ظلال (سيغموند) واطفاله و (بياترس) وحزنه مثل الضباب ، وابتهج مثل شاب يافعٍ يستعد للسفر ، وعندما اجتاز مدينة (بورتسموث) اختفى كل شيْ عدا عالم الحب القديم الجميل ، وضحك بينما كان ينظر من شباك العربة .

في الاسفل ، وعبر الشارع ، كانت تمر فرقة موسيقى عسكرية مبهرجة . وطغى صوت عالٍ فضحك مرة اخرى . لقد أحب نبرة العزف وبهرجة الفرقة وحركة الجنود ذوي الزي القرمزي . كان الناس ينسابون بسعادةٍ من الكنيسة . كيف يمكن ان يكون اليوم هو يوم احد ؟ ! . انه ليس يوماً عادياً . بل هو الحب والعودة الى (تريستان)(*) .

كانت هناك نسوة مثل ازهار الزعفران في الابيض والازرق والخزامي يتحركن بابتهاج . وفي كل مكان ، ترفرف اعلام العطلة . لقد رقص كل مخلوقٍ بابتهاج تحت شروق الشمس .

وما وراء كل ذلك ، كانت هناك تلال الجزيرة الصامتة و (هيلينا) ، وانه لامر مدهش ان يكون صبوراً الى هذا الحد . انها ستكون مرتدية لوناً ابيض كلّياً ، وحنجرتها الغليظة الباردة العارية مكشوفة للنسيم ، ووجهها متألق ، وهي تبتسم بينما تخفض رأسها بسبب الشمس التي تشرق على شعرها المكشوف .

(*) تريستان : بطل اسطورة من القرون الوسطى في اوربا ، تأتي اقدم نصوص الاسطورة من اسكتلندا ، وعلى الرغم من ان اكثر النصوص شيوعاً هي من القرن الثاني عشر وذات اصل فرنسي . الا أن صياغتها اعيدت على قصص من بلاد الكلت . حيث يرافق تريستان الآنسة إيزولت (إزولدا) من (بريتاني) الى (كورنويل) لكي تتزوج من الملك (مارك) ولكنها تشرب معه بشكل غير متعمد شراب الحب ويرتبطان بعلاقة غرامية تؤدي الى موتهما في النهاية . ولقد استخدم الكثير من الكتاب الانكليزي والالمان القصة في اعمالهم كما استخدمها (فاغنر) في احدى اوبراته عام ١٨٦٥ .

تنفس بعمق متأملاً الفكرة ولكن صبره لم ينفد . توقف القطار في المدينة حيث الجنود ذوو الملابس القرمزية والبحارة الذين يثيرون الضحك بازيائهم الزرق ، وكل النساء المتألقات الخارجات تواً من الكنيسة ، حيث يتسرب الجميع الى الشارع مثل المشكال* . تحرك القطار ببطء قرب البحر الذي انتظر (سيغموند) ظهوره متقطع الانفاس . فكان مثل (هيلينا) أزرق اللون جميلاً قوياً في تكتمه .

بعد لحظةٍ ، اصبح في المحطة القذرة واشرق عندئذٍ النهار ، وانتشى (سيغموند) بالمتعة . احسَّ بالبحر يتنهد من تحته . نظر من حوله ، كان البحر أزرق اللون مثل وردة القضاب** ، بينما تضيءُ الاشرعة الذهبية والبيض والحمر بلون الدم هنا وهناك فوق تلك الزرقة . وبينما كان واقفاً على الدكة اسلم نفسه للنسيم ، واحسَّ انه أحدُ تلك الاشرعة المتوردة ، كما لو انه كان جزءاً من كل ذلك . كان جسده يشع وسط قر البحر الرائع الكبير كقطعةٍ ملونةٍ .

بدأت السفينة الصغيرة تنبض وترتجف بيضاء بنعومة البراعم ، وارتفع الماء يزبدُ ويتأرجح بهدوء . وكانت السفن تصطف مثل طيور فضوليةٍ . وهزت السفينة القديمة (فكتري) اعلامها العديدة ذات الألوان الصفر والقرمزية ، ومرّت البيوت القديمة المستقيمة على الرصيف .

وفي خارج الميناء ، كانت السفن الحربية – مثل مخلوقات البحر الخرافية التي تأتي متوحشة الى السطح لتلقي نظرةً – تثبت خطومها السود في الماء . سخر (سيغموند) منها ، واحسَّ برغوة البحر على وجهه مثل الشرر ، وشعر بالبحر الازرق يتجمع من حوله ، والى يساره ، كانت القلعة الملونة المدورة تنتصب بشكل طريف ، متوحدة بصلابةٍ في مجرى الماء ، وسط الطيران الصامت للزوارق المجنحة بالألوان الذهبية والقرمزية .

راقب (سيغموند) جسد الجزيرة المزرق ، مثل امرأة اسطوريةٍ جميلة . لقد تلاشى حبة في ضبابها الازرق ، وبدت مستحيلة في عينيه . كان الزبد الابيض الذي تتركه السفن خلفها متبوعاً بحشدٍ هائل من زهور الربيع . ومن الجهتين ، كانت السفن البحرية الضارية الشريرة تراقب من تحت انوفها الحادة ، بينما كان الماء الاخضر الصافي يتأرجح ويتغضن تحته كما لو كان يضحك ، وفي المقدمة ، كانت جزيرة (سيغموند) تقترب وتقترب زاحفةً باتجاهه جالبةً (هيلينا) له .

ظهرت الغابات والمروج ، وتزاحمت البيوت محتشدة في رصيف الميناء كي تلتقي به . ها قد وصل الميناء وانتهت رحلته ، وتحسر (سيغموند) عليها ، ولكن (هيلينا) على الجزيرة التي كانت

---

* المشكال : اداة تحتوي على قطع متحركة من الزجاج الملون ، ما ان تتغير اوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهائية من الاشكال المتماثلة المختلفة الالوان .

** القضاب نباتٌ معرش ازرق الازهار .

تطفو مثل سفينةٍ مثبتةٍ تحت حشدٍ من السحاب الذي أطلق بينما كان (سيغموند) على الماء ، وبينما كان يراقب نهاية الرصيف وهي ترتفع الى الاعلى . اسقطت فوقه سحابات تشبه القطارات الثقيلة ظلال وزنها كله ، فارتجف في الريح الباردة .

كانت رحلته بطيئة جداً ، وسفن السماء الغامقة تقترب اكثر فاكثر منه ، كما لوان كل السحب كانت تأوي الى الميناء ساعتئذٍ . وفوق الارض المنبسطة قرب (نيوبورت) ، كانت الريح تعوي مثل مجموعة من الآلات الموسيقية ، والسماء تبدو رمادية اللون تماماً . انتظر (سيغموند) بأكتئاب في محطة (نيوبورت) التي كانت الريح الباردة تكنسها . وكان اليوم يوم أحد والمحطة والجزيرة مقفرتان .

التفع (سيغموند) بمعطفه وجلس . لقد اختفى كل تألق ابتهاجه الذي احسَّ به في الصباح ، على الرغم من انه ما زال ثمة امل كبير يتوهج في داخله . ولم ينم الا ساعتين فقط في الليل ، ولقد كان حينئذٍ رجلاً فارغاً شرب المتعة ، اما الآن ، فإنَّ الملل ابتدأ يختني .

كانت الساعة قد قاربت الثالثة بعد الظهر عندما جلس وحيداً في عربة الدرجة الثالثة ينظر الى الخارج . وسقطت بضع قطراتٍ من المطر على اللوح الزجاجي ، ثم ما لبث ان تحول الجهال الآخاذ للمطر المتقطع الى انفجار من العواصفِ ، اخفى التلال والقصب الذي كان يرتجف في المستنقعات . جلس (سيغموند) في سباتٍ باردٍ يعدُّ المحطات ، وتحت سباته كان قلبه يتحرك بصوتٍ مكتوم غشاه الاضطراب . ولقد فاجأهُ ذلك لانه كان يحس بان عقله ميتٌ .

ابطأ القطار : (يارموث !) ، محطة واحدة اخرى فقط ! . وراقب (سيغموند) المحطة متألقة تحت المطر تمرقُ من امامه ، وتحت السقف الرمادي الجاف ، كان هناك مسافر ابيض ينتظر ، وفجأةً ، قفز قلب (سيغموند) وهو يحاولُ ان ينتزع نفسه بعنفٍ . اندفع ليفتح الباب ويمسك بهيلينا التي تباطأت واصدرت صرخةً مرتجفةً بينما كان يسحبها الى العربة وهو يصرخ بنبرةٍ غريبةٍ :

–« أأنت هنا ؟ ! .

كانت ترتجف من البرد ، وازرقت ذراعاها العاريتان فلم تستطع الاجابة عن سؤال (سيغموند) ، على أنها بعد ذلك تعلقت به وهي تعانقه ، وتنفض الاجزاء الاخيرة من بردها بينما كان دفؤه يغمرها تدريجاً ، ضحك من كل قلبه بينما كانت تستكين اليه وهمس لها :

–« أهذا حلم ياعزيزتي ؟ ! .»

عانقته «هيلينا) بشدةٍ وهي ترتعد بسبب انتقال دفئه اليها ، وفي الحال تقريباً سمعا اصوات فرامل القطار ، فهتفت (هيلينا) :

– «ها قد وصلنا ! .» ثم ما لبثت ان عادت الى مزاجها العادي الطيب ، ووضعت قبعتها

بشكل معتدل ، بينما جمع (سيغموند) حقائبه .

حتى حان وقت الشاي ، كان هناك توقف في تقدم احدهما تجاه الاخر . اذ كان (سيغموند) يستشعر وخزاً خفيفاً ممزوجاً بحيويةٍ مدهشةٍ ، كما لوانه تناول نوعاً نادراً من المنشطات ، ودَهش من نفسه كما لوان كل نسيجٍ في جسده قد فوجئ بالمتعة ، كما تهمهم كل شجرةٍ في الغابة عند الفجر بصرخاتٍ مدهشة من الفرح .

عندما عادت (هيلينا) ، جلست قبالته لكي تراه ، كان مظهر المتعة الساذجة على وجهه محبباً لها ، وكانت عيناه زرقاوين عميقتين تظهر اوردتها مثل وردة ذات عروق بنفسجية عند الشفق . وبطريقةٍ ما ، غامضة ، كانت المتعة ترتجف على ما يبدو في البؤبؤ . تأملته (هيلينا) ، خصلةً فخصلة ، لقد احبت جبينه الواسع وشعره الاسود الغزير وفمه الممتلئ وذقنه . لقد احبت يديه اللتين كانتا صغيرتين ولكنهما قويتان مشدودتا العصب جداً ، واحبت صدره الذي كان يتنفس بهدوءٍ وقوةٍ ، وذراعيه وفخذيه وركبتيه .

كانت (هيلينا) ، بالنسبة اليه ، وجوداً . فلقد كانت كامنة ومنصهرة في هالة حبه . رأى فقط انها كانت بيضاء وقوية ومشرقة على نحو مكتملٍ ، وكان يدرك ان عينيها الزرقاوين كانتا ترعبانه .

في الخارج ، كان ضباب البحر يسافر ويزداد سمكه باتجاه اليابسة . ولم يكنْ مسكنهما بعيداً عن الخليج . وعندما جلسا لشرب الشاي ، اتسعت عينا (سيمغوند) ونظر مقطباً اليها ، وسألها بعدم ارتياح :

-« ما الامر؟» .

رفعت (هيلينا) رأسها ونظرت اليه بينما كانت تسكب الشاي . لقد سرتها نظرته الصغيرة المتلهفة الدالة على الكآبة .

-«اتعني الضوضاء ؟ . انها مجرد انذار لتحذير السفن من الضباب ياعزيزي .» .

كان الضباب ابيض في الخارج بينما جلسا ينتظران . وبعد بضع ثوانٍ جاء الصوت خفيضاً متضخماً كعواء حيوان بحري كبير وحيد ، آخر الوحوش ! . اطلق الضباب الصوت كله ثانية او اثنتين ، ثم تلاشى في الصمت الكثيف . ونظر (سيغموند) و (هيلينا) الى بعضيهما . كانت عيناه ممتلئتين بالقلق ، ولقد أراحها ان ترى رجلاً قوياً وكبيراً متلهف العينين مثل طفلٍ بسبب صوت غريب ، فضحكت قائلة :

- «أوكد لك انه انذار الضباب فقط ! .»

- «بالطبع ، ولكنه نوع كئيب من الاصوات» .

وردت بفضول :

- «هل هو كذلك ؟ لماذا ؟ ولكن بلى . اعتقد اني استطيع ان اتخيل انه كذلك بالنسبة لبعض الناس ، انه مثل صوت تحذير الى (تريستان) عبر البحر» .

ودندنت بهدوء ، ثم اعادت صوت الانذار ثلاث مرات ، بينما جلس (سيغموند) بوجهه الجامد مثل قناعٍ يحملق في الضباب . هدرت صفارة الانذار مرة أخرى ، وكان الصوت بالنسبة اليه منذراً بالمصائب . انتظرت (هيلينا) اختفاء الضوضاء وعادت للغناء مرة اخرى ، ثم قالت مبتهجة على نحو ملفتٍ للنظر :

-« ومع ذلك فانه يشبه كثيراً صوت انذار الضباب» .

فقال لها :

-«ماذا سيحدث في مثل هذا الوقت من الاسبوع القادم يا (هيلينا) ؟» .

وفجأة بدت مهمومةً ، وتمطت لكي تمسك بيده التي كانت تستقر على المائدة ، وقالت :

-«سانادي عليك من (كورنويل)» .

لم تفهم قصده على الاغلب ، ولكنها تركته وحيداً باحساسه بالماساة ، فلم تكن لديها فكرة عن الكيفية التي أنتزعت فيها حياته من جذورها ، وعندما حاول اخبارها احبطت مسعاه ، تاركة اياه هادئاً وحيداً من الداخل ، واعلنت بفرح عظيم :

- «لن يكون هناك اسبوع قادم ، بل الحاضر فقط .» .

وفي الوقت نفسه نهضت واقتربت منه شابكة ذراعها حول عنقه ، ثم ضمت رأسه الى صدرها ، وابتدأت تضغطه اليها ، وتسللت يدها خلال شعره ، فانضغطت مناخره وفمه على صدرها ، واستنشق حرير ثوبها ، فاستغرق في رائحة جسدها المخدرة وعيناه مغلقتان . اعترف الى نفسه ، بانها ممنوعة عليه ، ولكن نفسه الاخرى دفعته بفرح ، فبغض النظر عن كونها محجوبة عنه ، غير انها ضغطت وجهها على راسه ، ومسدت وجعدت شعره وضغطت راسه على صدرها ، كما لو انها لن تحرره مرة اخرى ، ثم انحنت لتقبل جبينه فاخذها بين ذراعيه ، وبقيا كذلك لفترةٍ من الزمن . اراد ان يخفي نفسه معها ، ان يفجر كل ماضيه ومستقبله في نوع من العاطفة الذي يستحق سنين الحياة كلها .

بعد الشاي ، استرخيا قرب النار ، وابتدأت تقص عليه كل الاشياء المسرة التي صادفتها . كان عندها حب نسوي فضولي للتفاصيل ، حب المرأة الغريب لبعض التفاصيل الدقيقة ، واصغى اليها مبتسماً منتعشاً بفرحها ناسياً نفسه . لقد اراحته مثل شروق شمس وملأته بالمتعة ، ولكنه نادراً ما كان يصغي اليها ، ثم ختمت قولها :

-«هل نخرج ام انك تعب جداً ؟ . لا ، انك تعبٌ ، تعبٌ جداً .» ، ثم وقفت قرب الكرسي تنظر بحنانٍ اليه .

علا الاشراق وجهه واجابها مبتسماً :

-«لا» واردف وهو يمط اطرافه الوسيمه في ارتياح «لا ، لست تعباً على الاطلاق» .

استمرت (هيلينا) بمراقبته في نوعٍ من الحنان الهادئ الخفي . ولكنها ذبلت امام النظرة المتسائلة البراقة لعينيه . وقالت وهي تشيحُ بوجهها . بجعدة شعره الاسود الناعم :

-«يجب ان تذهب الى الفراش مبكراً الليلة .» .

تمدد قليلاً . مصالباً ذراعيه وابتسم لها من دون ان يجيب . لقد كانت متعة حميمة ان يكون معها وتحت تصرفها .

نهض وهو يدعوها ان تلف نفسها لتتقي الضباب . فكررت السؤال :

- «هل انت متأكد انك لست تعباً ؟» .

في الخارج . كان ضباب البحر ابيض مشتبك الركام . خرجا يداً بيد ، وإذ كان الجو بارداً . فقد دفعت يدها ويده الى جيب معطفه بينما كان يتمشيان معاً ، وقال لها وهو يضغط يدها في جيبه :

- «انا احب الضباب» .

فاجابت منكمشةً مقتربةً منه :

- «انا لا اكرهه» .

- «انه يغلفنا لوحدنا معاً» .

تهادت في السير حانية الرأس صامتةً . ولم يشغله صمتها بل اضاف قائلاً :

- «لن نحصل على شيء افضل من هذا الضباب !» فضحكت بفضولٍ وبصوتٍ ممتلئٍ بالدموع تقريباً .

- «لماذا ؟» .

- «ليس لدي من شيءٍ آخر سواك . كما أنه ليس هناك شيءٌ آخر عندك غيري !) .

كانا واقفين على التلال لوحدهما . بحيث ان (هيلينا) وجدت نفسها لوحدها تماماً مع الرجل في عالم من الضباب . وفجأة اندفعت بجهشة بالبكاء على صدره ، فضمها بحنان غير عارفٍ سبب كل هذا . ولكنه كان سعيداً ولم يكن خائفاً .

في مكان اجوفٍ ما . بدأت صفارة الانذار تجأر بصوتٍ عالٍ في اذنيهما . احسَّ (سيغموند) و (هيلينا) بان عاطفتهما ابتدأت تشتد . فحاولا تغيير الموضوع ، وسألته (هيلينا) :

- «ما طبقة نغم صوت الانذار ؟» .

فاجابها (سيغموند) :

- «هل هي افقية ؟ انها تتسلق «السلم الموسيقي الملون»

- «نعم ، ولكن اقصد الطبقة المستقرة ، هل هي حول طبقة (أي) ٭ ؟.» .
- «(إي)» هتف (سيغموند) واضاف : «انها اقرب الى (اف)٭٭» .
وردت (هيلينا) :
- «لا . أصغ» .
لبثا صامتين منتظرين حتى جاء صوت انذار الضباب الطويل . فهتف (سيغموند) محاكياً نغمة الصوت :
- «اسمعي . هذا ليس من طبقة (اي) واعاد الصوت مرة اخرى انه من طبقة (اف) .
فاصرت (هيلينا) :
- «انه (اي) بالتأكيد»
ووافق (سيغموند) الصوت مدندناً اللحن :
- «بل (اف) حاد» .
ضحكت وطلبت منه ان يصعد في السلم الموسيقي فقال لها :
- «ولكنك توافقين ؟» .
فاجابته :
- «انا لا أوافق» .
كان الضباب بارداً وكأنه يسلبها شجاعتها في الحديث . وبذلت (هيلينا) جهداً كي تسأله :
- «ما هي طبقة النغم في موسيقى تريستان ؟» .
فاجابها .
- «انها امر مختلف» .
- «نعم ياعزيزي ، انها ليست الشيء نفسه» .
اجابت بنبرةٍ مطمئنة واطئة . وجفل من ملاطفتها ، فوضعت ذراعها حوله ، وحاولت الوصول الى وجهه ، وهي تتوق لقبلةٍ . ونَسيا انهما واقفان في ممرٍ عام وفي وضح النهار حتى سحبت نفسها عنه بسرعةٍ عندما سمعت اصوات اقدام في الضباب .
عندما تسلقا الممر ، ابتدأ الضباب بالانقشاع متحولاً الى ضباب رمادي رقيق عند القمة . كانت ثمة حافة معشوشبة من الارض . والسماء صافية فوق رأسيهما ، وتحتهما ، يهمهمُ البحرُ بصوتٍ اجشٍ لنفسه .

٭ النوطة الثالثة من السلم الدياتونيكي من السي ميجر .
٭٭ النوطة الرابعة من السلم الدياتونيكي من السي ميجر

سحبته (هيلينا) قليلا من حافة الجرف ، واعتصر يدها وسحبها قليلاً الى الخلف ، ولكن سرَّها ان تشعر بقبضته وهي تشتد على يدها . وقفا على الحافة مباشرة لكي يشاهدا منحدر الجرف الناعم وهو يتلاشى في الضباب ، حيث كان البحر تحته يضطرب مصدراً ضوضاء محببةً . وقال (سيغموند) وهو يحدق في الاسفل .

– « هل سنستمر في المشي ؟» .

توقف قلب (هيلينا) لحظة عندما مرت الفكرة ببالها ، وابتدأ قلبها ينبض مهموماً كيف يستطيع ان يمزح بفكرة الموت والايام الخمسة العظيمة لا زالت امامها . ثم تلبسها ، الذعر منه في تلك اللحظة وتوسلت اليه قائلة :

– «ابتعد عن الجرف ياعزيزي» .

لو حدث شيء عندها لن يكمل معها الايام القليلة المتبقية ، واحست بالمرارة بسبب تفكيرها بهذه الطريقة ، واعادت القول وهي تسحبه ببطء الى الممر :

– «ابتعد ياعزيزي» .

– «هل انت خائفة ؟» .

– «لا . .» وكان لصوتها تلك النوعية المزمارية الخشنة التي جعلته يرتجف ، ورد عليها بطريقة هجائية :

– «انه لمخرج سهل . . .» لكنها لم تفهم قصده ووبخته قائلةً :

– «وامامنا خمسة ايام ملكنا الخالص يا (سيغموند) .» .

– «الضباب هو نهرُ النسيان ، وسيكفينا هذا لو استمر خمسة ايام .» .

ثم ضحك واخذها بين ذراعيه وقبلها وهو مشدود إليها ، وتمشيا معاً ممتلئين سعادةً وهما يغلقان خلفهما ابواب النسيان .

عندما غربت الشمس ، تبدد الضباب قليلاً ورحلت كتل ممزقة منه محلقةً من جرف لآخر . وفي الافق ، ووراء الجرُفُ ، كانت السماء تمتد مذهبةً . تجول العاشقان على غير هدىً فوق ملاعب (الغولف) ، حيث اظهرت المروج الخضر والمنحدرات المعشوشبة لهيلينا انها تعبة وتريد الجلوس . جلسا قبالة الفجوات المضيئة في الغرب ، حيث كانت الشمس ، خلف ستائر الضباب الذهبية الممزقة المعتمة ، تغادر بابهةٍ .

جلس (سيغموند) ساكناً تماماً يراقب غروب الشمس . كان الغروب يشبه موسيقى زفاف رائعة ملتهبة تقترب من (هيلينا) . وتساءل عن الكيفية التي يستطيع ان يعبر بها عن ذلك ، وعن الطريقة التي تحمل بها رجال آخرون مثل هذا الجلال . وفجأة سألها :

– «ما موسيقى الغروب ؟»

نظرت اليه ، كانت رموش عينيه نصف مغلقةٍ ، وفمه مفتوحاً قليلاً ، كما لوانه في حالةٍ من الانفعال العاطفي الساحر .

– «اية موسيقى ياعزيزي ؟» .

– «ما هي برأيك افضل موسيقى تُعبّر عن غروب الشمس ؟» .

كان جلده ذهبياً ، ومزاجه الحقيقي عاطفياً جداً ، ولقد احترمته للحظةٍ ، وردت بهدوء :

– «لا اعرف» ثم اسندت راسها على كتفه وهي تنظر صوب الغرب . كانت ثمة مساحة من الصمت بينهما ، وكان (سيغموند) يحلم ، ثم ابتدأ يشرح لها .

– «سيمفونية (بتهوفن) – تلك التي . . .» .

لم تكن مقتنعةً ولكنها اتكأت عليه ، جاعلة اياه خيارها . وتسمر الغروب ثابتاً ، فلقد كان من الصعب عليها ان تعي اي تغّيرٍ ، ثم قررت :

– «موسيقى الكأس المقدسة في (لوهنغرن) .» .

ورد (سيغموند) موافقاً :

– «نعم» ولقد وجد ذلك شيئاً مختلفاً ، ولكنه لم يزعج نفسه بجدالها ، لقد حلم لوحده ، ولم يسرها هذا . لقد ارادته لها ، فكيف يمكن ان يتركها وحيدةً ويراقب السماء ؟ ولقد وضعت يدها فوق عينيه تقريباً .



الفصل الرابع

مرت قافلة الغروب الذهبية مسرعة ، وأنزلت ستائر الضباب الممزقة ، وسرعان ما أحيط (سيغموند) و (هيلينا) وحدهما بالضباب الممتد الكثيف . ارتجفت من البرد والرطوبة ، فاخذها بين ذراعيه حيث اضطجعت ملتصقة به ، ولمحك بها عن قرب ثم انحنى الى الامام ، الى شفتيها مباشرةً . كان شاربه مبلــلاً بالبردِ والضباب ، بحيث انها ارتجفت قليلاً عندما قبلها ، ثم ارتجفت مرة ثانيةً ، ولم يعرف سبب الرعشة القوية التي مرت خلالها ، اذ ظنَّ انها من الخوف والبرد ، ففتح معطفه وسحبها قريباً من صدره ، وغطاها بافضل ما يستطيع . احست في تلك اللحظة بانها موزعة بين المتعة والخجل . ثم وضع وجهه على كتفها ، وامسكها قريباً جداً منه حتى اصبح وجهه حاراً فدفنه على حنجرتها القوية الناعمة ، فهمست بحزنٍ وقد امسكت انفاسها من الخوف :

- «انك كبير جداً الى حد اني لا استطيع الامساك بك» .

ثم مدت يديها الصغيرتين على عرض كتفيه من دون جدوى ، فهمهم قائلاً :

- «ستبردين ، ضعي يديك تحت معطفي .» .

وضعها داخل معطفه وسترته ، فالتصقت بصدره الدافئ بانغماسٍ عنيف من المتعة والخوف ، وحاولت ان تشبك يديها في دفء كتفيه ، وارادت ان تحضنه ، ولكنها قالت :

- «انظر ، لا استطيع ذلك» .

ضحك قليلاً وسحبها قريباً منه ، فدست رأسها في صدره ، مخفية وجهها ، مخلوعة الفؤاد ودفعت يديها في جانبيه وهي تضغطها بنعومةٍ لكي تُحددَ خطوط جسده ، وبرقةٍ زحفت

يداها تحت سترته الحريرية ، وكلما تحركت ، كان دمه يتأجج بالنار اكثر فأكثر حتى اصبح كل (سيغموند) دماً حاراً ، وتحول صدره الى كتلة هائلة واحدةٍ من الشوق .
شدها اليه واعتصرها فوق الشوق المتأجج في صدره ، واصبحت عضلاته متصلبة قاسية . وفي تلك اللحظة ، اصبح جسداً من اللحم المشدود المفعم بالحيوية من دون عقل . وكان دمه واعياً حيّاً يجري باتجاهها . بقي ساكناً تماماً مقفلاً حول (هيلينا) واعياً بها غير شاعرٍ باي شيْ آخر .

كانت متألمة ومنسحقةً ولكنه كان الماً لذيذاً . كان امراً رائعاً ان تشعر بقوته ، وان تحتفظ بتلك القبضة التي تشبه الفولاذ على جسدها . ولقد أغمى عليها في نوعٍ من السعادة الكثيفة .
وفي النهاية ، وجدت نفسها وقد تحررت منه ، فاخذت نفساً عميقاً ، بينما كان «سيغموند» يحرك شفتيه فوق حنجرتها كان يستنشقها مثل كلب ولكن بشفتيه . قفز قلبها في ردة فعلٍ مفاجئة ، فلقد ادهشها شاربه بشكل غريب كانت شفتاه تمسحها وتضغط حنجرتها تحت الاذن ، وانفاسه الدافئة تهبُّ بايقاع عليها ، فتركت جسدها يتذبذب بأكمله مثل كمان تحت القوس . ولقد اثيرت تحت فمه ، وارتجفت من شاربه ، وكان قلبها مثل النار في صدرها .
وفجأة ، تمطت الى ابعد حدٍ بجنون اليه ، وارجعت راسها الى الخلف ، ثم وضعت شفتيها على شفتيه ، متقاربتين ، حتى بدا في النهاية ، وكأنهما ذابا واتحدا معاً . لقد كانت القبلة الاطول والاسمى ، عندما يتحول الرجل والمرأة الى كائن مفرد ، اثنان في – واحد . الخنثى الوحيدة ! » .

عندما سحبت (هيلينا) شفتيها كانت قد استهلكت تماماً ، فهي من نمط تلك المجموعة من النساء الحالمات اللواتي يستنفد الحب عندهن نفسه في الفم . لقد اكتملت رغبتها في قبلة حقيقيه . اما النار ، بلهيبها الثقيل ، فلقد انصبت من خلالها الى (سيغموند) ومن (سيغموند) اليها . لقد همدت واحست بنفسها تذوي ، اذ ليس لديها تألق الرجل ولا حيوية دمه . اضطجعت فوق صدره ، تحلم كم هو جميلٌ ان تنام ، ان تفقد وعيها هناك على ذلك السرير النادر . واضطجعت ساكنةً على صدر سيغموند تصغي الى قلبه الذي كان ينبض مهموماً .
كان الحلم لديها دائماً هو اكبر من الواقع . وكان حلمها بسيغموند اكبر من (سيغموند) نفسه ، وقد يكون اقل من حلمها ، وربما هو كذلك ، ولكنها مع ذلك ، كانت قاسية كامرأة ، بالنسبة لاي رجل حقيقي .
سحبها قريباً منه ، كان خلمه ذائباً في دمه ، ودمه يركض متألقاً اليها ، كانت احلامه ازهار دمه ، اما احلامها ، فقد كانت اكثر انفصالاً ولا انسانية . ولقرون ، كان هناك نمط معين من النساء ، ممن يرفضن الحيوان في الانسانية . وحتى الآن ، بقيت احلامها مثالية ،

مليئة بالخيال ، ودمها يجري وقد كبلته العبودية ، وكانت رقتها مليئة بالقسوة .

اضطجعت (هيلينا) ضعيفة واهنةً فوق صدر (سيغموند) فسحبها بالقرب منه ، وكان فمه ونَفَسه دافئين على رقبتها ، لكنها خمدت وغدت سلبية بعيدة عن ملاطفته ، وانسحبت منه برقة . كان حساساً جداً على نحو لا يفوته ذلك ، وكان الامر اكثر مما يطاق بالنسبة لرجل لا تستجيب له امرأة ، وغاص قلبه وتكدر دمه ، وبقي ممسكاً بها . وبقي الاثنان ساكنين صامتين بعض الوقت .

احست على نحو مؤلم ان قدمها التي كانت تغوص في العشب الندي ابتدأت تؤلمها من البرد فقالت له برقة ونبل - كما لوانه كان طفلاً ينبغي ان ترشده وتقوده :

- «اعتقد اننا يجب ان نعود الى البيت يا (سيغموند) .» .

اصدر صوتاً صغيراً قد يعني اي شئ ، ولكنه لم يتحرك ولم يحررها ، وبقي فمه حيثما كان ، ساكناً على حنجرتها واستمر يلاطفها ، وقالت له باصرار :

- «الجو بارد ورطبٌ ياعزيزي ويجب ان نعود» .

فرد بجفاف :

- «حالاً» .

انتظرت لحظةً ، ثم قالت بنبرةٍ رقيقة جداً ، كما لو انها كانت مشمئزة من سلبهِ متعته :

- «سيغموند ، الجو باردٌ» .

- كانت هناك نبرة توبيخ في كلامها اثارت غضبه فهتف بها :

- «بارد ؟ ولكنك دافئة معي» .

- «ولكن قدمي المكشوفتين على العشب ياحبيبي ، انهما مثل الحصى البليل .» .

فقال لها .

- «اوه ياحبيبتي ، لماذا لا تُعطينها لي لكي أبعث فيهما الدفء ؟» .

ثم انحنى الى الامام ووضع يده على حذائها قائلاً :

- «انهما باردان جداً ، يجب ان تسرعي وتدفئيهما» .

عندما نهضت ، كانت قدمها خدرة بحيث لم يعد بوسعها الوقوف ، فالتصقت بسيغموند . ضاحكة ، وقال لها :

- «كنت اتمنى لو انك اخبرتيني من قبل ، كان المفروض ان اعرف» .

وضع ذراعه حولها ، مغتاظاً من نفسه ، وعادا الى البيت معاً .

★★★

الفصـــل الخامس

وجدا النار متقدةً متلألئة في غرفتها . كان الشخص الوحيد الآخر في بيتها الصغير الجميل المؤثث الى حد الاختناق ، هي صاحبة المسكن ، التي كانت عجوزاً لطيفة اجرت لها غرفة المعيشة هذه للتغيير واكتساب زوار جدد اكثر من رغبتها في الربح .

قدمت (هيلينا) (سيغموند) قائلة «انه صديقي» . وابتسمت له السيدة العجوز ، فلقد كان ضخماً ووسيماً ومحرجاً . وتذكرت السيدة ان لها ابناً منذ عدة سنوات . . . وكان الاثنان عاشقين ، ولقد تمنت لو انهما عادا الى بيتها لقضاء شهر عسلها .

جلس (سيغموند) في الكرسي الكبير المنسوج من شعر الحصان قرب النار ، بينما قامت (هيلينا) بتحضير المصباح ، وهي تنظر اليه من فوق الزجاجة المتوهجة ، وجدته وهو يرقبها بابتسامة صغيرة غريبة هي مزيج من التهكم والغضب والحيرة . لقد غدا وكأنه قد تغيرّ تماماً ، لذلك ارتجفت يدها ، وكان من الصعب عليها ان تنظم الفتيلة .

غادرت (هيلينا) الغرفة كي تغير ثوبها قائلةً .

– «ساعود قبل ان تجلب السيدة (كيرتس) صينية العشاء . هناك كتابٌ عن (نيتشه) جلبته . . .» .

لم يجبها بل اكتفى بمراقبتها وهي تغادر . وعندما اصبح وحده ، جلس وذراعاه على ركبته ساكناً تماماً . كان قلبه ينبض مهموماً ، واحسَّ بكل كيانه متجهماً متحفزاً ، مروعاً مثل حيوانٍ سجين . وانهمرت الافكار في ذهنه مثل الفقاعات تتذبذب جزافاً من دون هدف . وفي لهيب دمه المُروّع ، سرت الحرارة في عروقه وابتسم لنفسه .

عندما دخلت (هيلينا) الغرفة ، صوب إليها عينيه برشاقةٍ ، كما يشعل الشرر الصوفان ، ولكن عينيها كانتا رطبتين بالحنان ، فتغيرت نظرته في الحال ، ودُهشت لكونه صامتاً وغريباً . اقتربت منه بطريقتها النسوية المباشرة . كانت في السادسة والعشرين قياساً الى سنّيه الثمان والثلاثين . وقفت امامه ، ممسكة بكلتا يديه ، تنظر اليه بحنانٍ كئيب . كانت ترتدي ثوباً ابيض ، كشف حنجرتها التي تشبه نافورة من الزبد يتوازن عليها رأسها . وكان باستطاعته رؤية الذراع الممتلئ الابيض يمرُّ صافياً خلال زبد الثوب المعطر باتجاه مرتفع نهديها ، ولكن عينيها انحنت عليه بنظرة حنون ، بحيث لم يعد يجرؤ على اظهار الهوى الذي يتحرق في داخله . لم يستطع ان ينظر اليها ، فحاول بأسىً ان يكون حزيناً ومتحفظاً معها ولكنه لم يستطع ان يكشف عن ناره . امسكت بكلتا يديه بقوةٍ ، ضاغطةً اياهما في التماس من اجل حلم حبها ، فنظر اليها بأسىً ، ثم استدار ، فانتظرته اذ ارادت ملاطفته وحنانه غير أنه لم يعرها التفاتاً فسألته :

- «هل تريد العشاء الآن ياعزيزي ؟» وكانت تنظر الى حيث ينتهي الشعر الغامق وتتصلُ رقبته الناعمة ، تحت ياقته ، حيث تلتقي بمحيط كتفيه القويين .

انتظرت واقفة ، ولكنه مع ذلك لم يلتفت اليها . اعتقدت ان هناك شيئاً ما يزعجه فلقد كان غريباً بالنسبة اليها ، وقالت في نبرةٍ عميقة مستسلمة :

- «سأنشر الغسيل اذن» .

ضغطت يديه بقوة وتركتها تسقطان ، ولكنه لم يلق بالاً بل بقي ساكناً وذراعاه على ركبتيه وهو يحملق في النار .

في التألق الذهبي لضوء المصباح ، رتبت اناءً صغيراً من ورود الجلبان الابيض والارجواني والبليحاء العطرية على المائدة المدورة . راقبها وهي تتحرك ، ورأى اهتزاز كتفيها البيضاوين المنحدرين تحت ثوبها وتجويفهما الصلب كالرخام وارتفاع حقوها ثم انحداره وهي تمشي . واحسَّ كما لو ان صدره يحترق . لقد كان ذلك ألماً جسدياً له .

كان العشاء هادئاً جداً ، وظلت (هيلينا) صامتةً حزينةً . كانت هناك نظرةً مبهمة غريبة في عينيه هي مزيجٌ من المعاناة والتهكم والحب . لقد كان عنيداً ولكنه لم يتساهل معها ، بل بقي هناك متحفظاً ، وكان تعباً ايضاً ، وكانت مظاهر المعاناة والتعب واضحة من خلال غرابة تصرفه وقد بكت في قلبها .

في النهاية قرعت الجرس كي يُرفع العشاء . وفي اثناء ذلك . عزفت ، وهي قلقة ، قطعة من فاغنر على البيان ، وسألتها صاحبة المنزل العجوز :

- «هل تريدين ايَّ شيءٍ آخر ؟» .

فردت (هيلينا) مقررة :

– «لا شيْ على الاطلاق . شكراً لكِ» .

– «اذن سآوي الى الفراش بعد ان اغسل الاطباق . هل ستطفئين المصباح ياعزيزتي .» .

فابتسمت لها (هيلينا) قائلةً :

– «انا معتادة على المصباح ، فنحن نستعمله في البيت دائماً» .

كان امامها يوم واحدٌ لا غير قبل وصول (سيغموند) لكي تكسب خلال هذا اليوم ثقة السيدة (كيرتس) ، ولقد نجحت في ذلك ، وعندما رفعت العجوز الصينية قالت لها :

– «ليلة سعيدةً ياعزيزتي ، ليلة سعيدةً ياسيدي . سأترككما الآن . هل ستبقيان فترة طويلة ياعزيزتي ؟» .

– «لا ، لن نبقى فترةً طويلةً . ان السيد (ماكنبر) تَعبٌ جداً كما هو واضحٌ» .

– «نعم ، نعم ، انها متعبةٌ جداً ، لندن هذه» .

عندما أغلق الباب ، وقفت (هيلينا) للحظة حائرةً تنظر الى (سيغموند) . كان يضطجع في الكرسي بطريقةٍ كئيبة وهو يراقب النار . وعندما حدقت إليه بعينين حزينتين حدث ان نظر اليها بتلك العينين الخائبتين الغامقتين الباحثتين بفضول ، فسألته بمرارة :

– « هل اقرأ لك ؟ .» .

اجابها :

– «اذا رغبت» .

بدا غير مهتم ، ومنعت نفسها بالكاد من البكاء . ذهبت ووقفت امامه ، ونظرت اليه مثقلة بالهم وسألته :

– «ما الامر ياعزيزي ؟» .

اجابها بتكشيرةٍ صغيرةٍ :

– «أنتِ» .

– «لماذا أنا ؟» .

ابتسم لها بسخريةٍ ثم اغلق عينيه . انزلقت بين ذراعيه بمواءٍ خفيض ، فاجلسها على ركبته ، حيث تكومت كقطة بيضاء ثقيلة ، فتركته يلاطفها بفمه ، ولم تتحرك بل اضطجعت جاثمةً وهادئة ودافئة على نحوٍ غريبٍ .

قبّلَ شعرها الذي كان معطراً بطبيعته . ومرةً بعد اخرى ، كان يسحبُ بين شفتيه خصلةً رائعة طويلة ، كما لو انه ينسل بفمه اضطراب شعرها الحي . كان جيشان هواه كلهيب ناعمٍ يلحسها بشهوانية .

بعد فترةٍ سمعا صوت خطوات المرأة العجوز تصعد . سكنت (هيلينا) ، وبدت كما لو انها تتقلص ، كما تردد (سيغموند) في مطارحتها الغرام . كان كل شيءٍ هادئاً جداً ، وبامكانهما سماع تنفس البحر الواهن ، ومن ثمَّ ، نهضت القطة التي كانت تنام في احد الكراسي واتجهت صوب الباب ، فقال (سيغموند) :

– «هل أخرجها ؟» .

فقالت (هيلينا) وهي تنزلق من على ركبته :

– «افعل» .

– «انها تخرج عندما تكون الليالي جميلةً» .

نهض (سيغموند) كي يحرر القطة (العتابي) . وعند سماعها صوت الباب وهو يفتح ، صاحت السيدة (كيرتس) من الطابق العلوي :

– «اهذه انت ياعزيزتي ؟» .

فرد (سيغموند) :

– «لقد اخرجت (كيتي) الآن» .

– «آه ، شكراً لك . ليلةً سعيدةً ! .»

سمع السيدة العجوز تغلق باب غرفة نومها ، وكانت (هيلينا) تجثم امام الموقد ، فاغلق (سيغموند) الباب بهدوء ، ثم انتظر للحظةٍ . كان قلبه ينبض بسرعة وسألها بشكل عابر .

– «هل نجلس قرب النار ؟» .

اجابت ببطء شديدٍ ، كما لو ان الامر ضد ارادتها :

– «نعم ، اذا اردت» .

انزل فتيلة المصباح بهدوء ثم اطفأ النور ، وكان جسده كله يجيشُ ويحترق بالرغبة .

اصبحت الغرفة ذات لون احمر واسود بسبب انعكاس ضوء النار ، واصطبغت (هيلينا) بلون احمر ، وهي تجثو جسداً ، منحنياً ، ، متألقاً ، مليئاً باللهب ، وبين فترة واخرى ، تقفز اشرطة حمر من ضوء النار على الجدران ، وخرج (سيغموند) ، ووجهه متورد ، من الظلالِ .

جلس على الكرسي الى جانبها ، منحنياً الى الامام ، ويداه مُتدليتان مثل وردتين قرمزيتين كسولتين في توهجِ النار . بينما كانت تركع هي قرب الموقد ، ورأسها منحنٍ الى الامام . استيقظت واحدةٌ من الازهار ، وامتدت نحوها ، وسألت عنها . كانت مفتونةً غير قادرة على الحركة . فناشدها بهمس .

– «تعالي» .

– التفتت اليه ، رفعت يديها نحوه ، وسقط ثوبها الى الخلف ، فتألقت ذراعاها العاريتان

حد الكتفين بلون وردي . ورأى نهديها يرتفعان نحوه ، ووجهها منحن بين ذراعيها ، بينما كانت تنظر اليه خائفة ، مضاءةً بوهج النار في ثوبها الملتصق الابيض متكوراً بين ذراعيها المرفوعتين . بدت وكأنها تعرض نفسها عليه للتضحية .

وخلال لحظةٍ ، كان يجثو بينما كانت تضطجع على كتفيه مهجورةً . لقد كان هنالك مقدار كبير من الاسى يسكن متعته .

كانت الساعة الحادية عشرة

عندما تحررت (هيلينا) من ذراعي (سيغموند) ونهضت من الكرسي حيث كانت تضطجع الى جانبه . لقد كانت محمومة وقلقة جدا وتشعر بحر شديد ، اذ استقر ساكنا مدة نصف ساعة ، وذراعاه الثقيلتان تلتفان حولها مما جعلها ساخنة . ولو لم تر عينيه الزرقاوين الغامقتين لاعتقدت انه كان نائما . ربتت بقلق على صدره ، وقالت له كي تجعله يتكلم :

- «هل انا مضطربة ؟» .

فابتسم لها بلطفٍ وقال :

- «ان من الرائع ان يكون المرء ساكنا على هذه الحال» .

اضطجعت معه هادئة بضع لحظات . كان ثمة شيءٌ مقدس في سكونه وسلامه بالنسبة لها . دهشت منه ، فهو مختلف الان عما كان عليه قبل ساعة مضت . كيف يمكن ان يكون نفسه ؟ انه الان مثل البحر ، ازرق وغائم في الصباح ومستغرق مع نفسه . اما من قبل ، فلقد كان محرقا وبركانيا كما لو انه سيدمرها .

لقد منحته هذا الجمال الجديد الناعم ، ولقد كانت تمثل الارض التي نمت فيها ازهاره الغريبة . ولكنها دهشت نفسها من الازهار التي انبتتها . لقد كان غريبا عليها ، مختلفا تماما عنها . ما هو الشيءُ الاخر الذي سيطلبه منها ؟ اي برعم جديد ستربيه فيها انه يبدو وكأنه يزهر وينمو على نحو لا ارادي ، وما هي الا مجرد تربةٍ ساعدت في انتاجه .

لم تستطع (هيلينا) ان تبقى ساكنةً . كان جسدها ممتلئا باحاسيس غريبة وبارتدادات لا ارادية نتجت عن الصدمة . لقد كانت تعبة ولكنها قلقة . وطوال الوقت الذي كان فيه (سيغموند) مضطجعا وذراعه الحارة من حولها ، بعينيه الزرقاوين المبهمتين المفتوحتين ، ابتدأت انفاسها تتقطع ولم تعد تطيق نفسها .

في النهاية ، رفعت ذراعها وسحبت نفسها خارجة من الكرسي . نظر اليها (سيغموند) وهو ساكن . رفعت الشعر الرطب من على جبهتها وتنفست بعمقٍ . كانت تلهث تقريبا ، ومن ثم ، نظرت سارحة الى وجهها المتوهج في المرآة . استدارت بفعل التصور نفسه من اجل ان تنظر الى الليل ، نادي عليها البحر المائي المظلم ، فدفعت الستائر جانباً .

كان القمر يخوض بلذة عبر السحابة البيضاء . وخلف الاشجار والبيوت القليلة يقبع الظلام الهائل والبحر وضوء القمر . لقد كان القمر هناك ليضع يد الغفران الباردة علي حاجبها . وسألته مشاكسةً :

– «هل نخرج للحظة يا سيغموند ؟»

فاجابها :

– «نعم أن اردت ذلك» .

كان كلاهما راغبا في الخروج ، وهو ممتلئ بلا مبالاة تستجيب لكل رغباتها .

خرجا بتؤدة ، وتجولا بصمت صوب الخليج ، ثم وقفا عند نهاية الطريق حيث يشرف القمر الحي الابيض ، ويهمس الماء عند نافذة الارض باغراء . قال (سيغموند) :

– «انها اجمل ليلة رأيتها» .

وفجأة اغرورقت عينا (هيلينا) بالدموع بسبب بساطة فرحه وقالت له :

– «احب انعكاس القمر على الماء» .

فاجابها ببساطة :

– «يصعب علي تمييز احدهما من الاخر» . ثم اضاف :

«ان البحر يبدو وكأنه ينسكب من القمر ليتأرجح بين يدي الشاطئ ، كلاهما مثل عينيك ويديك وحديثك . لا يمكن فصل كل ذلك عنك» .

واجابته مبهورةً :

– «نعم» هذا هو (سيغموند) احلامها ، ولقد خلقته ، ومع ذلك ، لا تزال تشعر بارتعاش من الالم . لقد كان ابعد منها الان ، وهو في غنى عنها .

– «اشعر كأني في البيت هنا . كما لو اني عدت الى البيت الذي ولدت فيه»

ضغطت يده بقوةٍ ملتصقة به ، فاضاف :

– «اننا نسلك طريقاً طويلا يا (هيلينا) لمجرد ان نجد اننا على ما يرام» . ثم ضحك بفرح وقال :

«لقد تخيلت نفسي منبوذا ، كيف يمكن للمرء ان يكون منبوذا في ليلته ، والقمر عارٍ من اجلنا ، والسماء ترتدي اسمالها معظم الوقت ، ما الذي نريد اكثر ؟» . لم تعرف (هيلينا) ذلك ، كما انها لم تفهم قصده ، ولكنها احست بنوع من الايقاع في كلامه ، واستمر قائلا :

«بغض النظر عما حصلت عليه او عما لم احصل عليه من الحاضر ، فان الظلام ام وان القمر اخت اما النجوم فهي اطفال . وفي بعض الاحيان يكون البحر اخا . وان ثمة اسرة في بيت واحد ، اترين ؟» .

فقالت بنعومة وقد اصغت اليه بكل جدية ونظرت اليه برثاء :

«وانا يا سيغموند ؟»

ورأى دموعها التي تشبه الفضة على وجهها العاجي المضاء بضوء القمر ، ففاض صدره بالحنان وضحك ثم انحنى ليقبلها قائلا :

- «انت مفتاح القلعة» .

ثم وضع وجهه على وجهها فاحس بلذع دموعها على خده ، وقال بارتياح :

- «ان كل ما قلته مبالغ فيه جدا ولكنه يناسب الليلة .» .

فاعلنت موافقة :

- «ما قلته صحيح دائما» .

فرد عليها :

- «انه سرمدي قدر تعلق الامر بهذه الليلة» .

بقي ، ورطوبة خدها تلذع خده ، ينظر من تحت حاجبيه الى حركة الماء الابيض تحت القمر ، بينما وقفا متعانقين معا ، يحملقان في قلب الظلام .



الصخرية ، كانت هنالك بعض الزوايا المحمية من الريح ، والمدفأة بشروق الشمس ، والمعطرة برائحة نباتات صريمة الجدي* والزعتر. قطع املودا من صريمه الجدي ملونا بلون القشطة والزبدة ، وبلل العشب حذاءه البني وسرواله الصوفي . ومرة اخرى وضع النسيم الطري عطر البحر في شعره المكشوف . وكان الجرف شبكة من الزهور من فوق وتحت ، والريحُ تهبُّ على الخشخاش النامي على الحافة مثل لهبٍ احمر ، ونبات شيخ الربيع يحدق بفضول وهو ينظر نحو الاسفل ، والهارو ذو الزهر الابيض والبنفسجي الجميل في كل مكان .

وقف (سيغموند) في منعطف حيث كانت التربة تبرعم بليلك اشعث ، واشعة الشمس تتسرب من دون ريح . ورأى الخليج الازرق ينثني على راس الارض البعيدة . وثمة بضعة طيور ، بيض وصغيرة ، تحلق في شكل دائري ، ثم تغطس في حافة الماء المزبدة الضحلة ، وهناك بعض سفن تبحر صامتة ، وبضعة انفار صغار سود او بيض ، عراة يتحركون تحت الطيور الدائرة . اختار مكانا ليسبح فيه ، حيث يغطي المد القادم حد المنتصف امتداد الرمل البراق الجميل المرصع بصخور تشبه مذبحا مربعا مجوفا من القمة . رمى ملابسه على صخرة عالية واحس بالمتعة عندما شعر باصابع الريح الناعمة الطرية وهي تدغدغه وتتجول بخوف فوق عريه . ركض ضاحكا فوق رمال البحر ، ثم خاض في البحر وهو يدفع رجليه بصخب خلال الماء الاخضر الثقيل .

اختار مكاناً باردا فتقلص جسده ، وللحظة وجد نفسه ، والماء الى مستوى حوضه يراقب الانسلال الافقي لباخرة خلال ترقرق الماء خائفة ان تغطس . ثم غطس ضاحكا تحت الماء الاخضر الصافي .

كا سباحا رديئا . اذ كانت موجة مفاجئة تغمره في بعض الاحيان . فينهض لاهثا ، طاردا الماء من عينيه ومنخريه ، وهو يعلو ويغطس مع اهتزاز الموج الذي يداعب صدره ، ثم ينحني مرة اخرى كي يبدأ مرة اخرى لعبته مع البحر . ان لمن الرائع ان تلهو ، حتى اذا كنت في منتصف العمر ، وان البحر لشريك رائع .

اراد ان يحملق ، وعيناه بمستوى الماء البراق ، عبر البحر ، وان يلقي نظرة اخيرة على الجرف وهي تواجه الصباح ، احب ان يرى البواخر تقف على قاع البحر البراقة والطيور وهي تهبط نحو الاسفل .

ولكن اثناء لعبه ، انحرف نحو حافة صخرة ، فاصطدم حوضه بينما كان يسبح ، بنهاية صخرة غاطسة حادة . عبس من الالم ، ومن القسوة المفاجئة للبحر ، ثم لم يعد يفكر في الامر

---

* صريمة الجدي : شجيرةٌ ازهارها غنية بالرحيق .

بعد ذلك ، ولكن الماء تكدر عندما شق طريقه عائدا الى الماء الصافي حيث اكمل لعبته مستغرقا .

عندما ركض خارجا من الماء على الرمل الرائع ، كان قلبه وعقله وجسده في حالة من الاضطراب ، وبدأ يلهث مالئا صدره بالهواء الذي كان له تألق البحر ومذاقه ، وبينما كان يرتجف قليلا ، سره الوجيب العنيد لجسده ، كما لو ان الطيور تصفق باجنحتها عليه . عرض جسده على الصباح ، متوهجا بانفعال البحر ، استكانت الريح اليه ، وتسرب شعاع الشمس على كتفيه مثل نفس دافئ . ولقد كان مسرورا بنفسه .

كانت الصخرة التي امامه ، مثله ، بيضاء ورطبه ، وفيها بركة صغيرة من الماء الصافي ، وتحتوي على اصداف وزهرة شقائق واحدة ، وفكر مع نفسه :

- «ستختلق (هيلينا) الكثير من الخيالات عن هذه البركة الصغيرة» .

وبينما كان يبتسم ، رأى على نحو باهت جدا ، ظله منعكسا على الماء . ولقد جعله ذلك ، على وعي بذاته ، وهو ينظر اليه . القى نظرة على نفسه ، على نضجه الابيض الوسيم ، وبينما كان ينظر ، احس بالانسياب الغادر للدم على فخذه ، الذي ظهر على شكل شريط احمر طويل . راقب (سيغموند) الدم وهو يسافر فوق الجلد البراق . لقد كان طيف نفسه احمر حول ارتفاع ركبته .

«ذلك الاحمر الزاحف انا ، وهذا البياض الذي افاخر به هو انا ايضا ، كما ان شعري الاسود وعيناي الزرقاوان هما انا . انه لامر غريب ان تكون شخصا . ما الذي يجعلني نفسي بين كل هذه الاشياء» .

احس بالبرد ، فمسح نفسه بسرعة ، وتحدث مع نفسه متفاخرا :

«انا في افضل حالاتي ، وفي قمة قوتي ، المفروض ان تسعد بي ، ولكنها لا تفعل ذلك . انها ترفضني كما لو كنت قردا من قردة البابون اتخفى تحت ملابسي» .

القى نظرة على كل ملامح نضجه الوسيم ، تسطح الصدر القوي ، الارداف الممتلئة التي تشبه مخلوقات متفاخرة بنفسها . وكان مشوها فقط بالجرح الدامي الطويل الذي تأسف على حدوثه بعمق وفكر مع نفسه :

«اذا كنت ساعطيها نفسي ، فاني لا اريد ذلك العيب بي» .

ومسح الدم من الجرح مهمها «انه لا شئ .» .

«انها تفكر عشرة الاف مرة في تلك البركة الصغيرة ، وتلك القطعة القرنفلية من الشقائق وبعض الاعشاب البحرية الصفر اكثر مني . ولكني وحق الله ، اود ان ارى كتفيها وصدرها اكثر من اي شئ اخر على الارض . . . فلماذا لا تحبني ؟»

كان يفكر في ذلك بينما كان يرتدي ملابسه ، وكان جسده هو الذي يفكر .

بعد ان بلل قدميه في بركة ماء دافئة عاد الى البيت . كانت (هيلينا) في غرفة الطعام ترتب زهرية من البنفسج . نظرت اليه مهمومة بينما كان يقف متوهجا على العتبة . لقد جعلها تحس بالارتياح ، فلقد كان صبيا وسيما ومرحا ، ذلك الذي التقته ، وليس رجلا غريبا ملحا . ابتسمت له بنبل حنون ، وقالت له مبتسمة ، وهي تنظر الى شعره الاسود المشوش الرطب :

- «هل استحممت ؟»

جفلت من عينيه ، ولكنه لم يكن شاعرا بالامر ، وقال لها :

- «انك لم تستحمي !» ثم انحنى كي يقبلها ، فتنشقت رائحة الماء الملح في شعره واجابت :

- «لا ، ساستحم لاحقا ، ولكن ما هذا . . .» وامسكت المنشفة مترددة ، ثم نظرت اليه بلهفة وقالت :

«انه دم !» .

فاجابها :

- «لقد جرحت فخذي ، لا شئ على الاطلاق» .

- «هل انت متأكد؟ ان المنشفة تبدو في حالة سيئة» .

فضحك قائلا :

- «ان المنشفة تثير المخاوف من دون داع .» .

نظرت اليه بقلق ثم استدارت قائلة :

- «الافطار جاهز» .

- «وانا مستعد للافطار ، ولكن هل اجهز نفسي ؟»

القت نظرة عليه ، كان بدون ياقة ، لذلك كانت حنجرته عارية فوق حافة قميصه الصوفي . وبشكل عام ، لم يعجبها مظهره المهمل ، اذ انه لم يكن في اناقته المعتادة ، فقالت ساخرة تقريبا :

- «سوف لن انزعج» .

رمى المنشفة على الكرسي وهو يصفر ، وسألته بحزن بينما كانت تراقبه وهو يأكل :

- «كيف نمت ؟»

فاجابها :

- «مثل الموتى ، متيبسا ، وانت ؟»

- «اوه ، على ما يرام ، شكرا لك» .

كانت مستاءة تقريبا لانه نام بهذا العمق بينما كانت تتقلب في فراشها ، وتردد اسمه في ارقها

المعذب .

وقال بحماس :

- «لم انم بمثل هذا العمق منذ عدة سنوات» .

ابتسمت (هيلينا) له بنبل ، وطغى عليها جمال سحره المعافى الوسيم . احبت حنجرته العارية ، وصدره الذي يدل على صدر رجل تحت القميص . كانت فرحة بشكل استثنائي لانه كان مشرقا بهذه الطريقة . وكان البنفسج الاسود ، في حشده الصغير ، يبدو وهو يغمز عينا ذهبية له .

بعد الافطار ، وبينما كان (سيغموند) يرتدي ملابسه ، ذهبت الى البحر . امعنت النظر ، بينما كانت تمر ، بكل الاشياء الصغيرة الجميلة - بزهرة الشيخ الصفراء الوحشية وباللبلاب البنفسجي وبتلألا الازهار والندى ، وبممرات القواقع وهي تجف تحت الشمس . كانت جولتها تسكعا طويلا . واحببت الفجوات بين الجرف اكثر من الفراغات والوهم اكثر من الخيال .

لقد ارادت ان ترى الاشياء مثلما يسرها ، من دون اي تصور انساني مسبق . انها من النادر ان تعرف اسم زهرة ، ولا تعي اية علاقات ، او تهتم مقدار ذرة بالتكيف او التحسين . ولقد افرحها ان ازهار البرسيم البنية الصغيرة تتدلى نحو الاسفل . ولم تعد تهتم اكثر ، فلقد البست كل شيء بالوهم . وفكرت مع نفسها :

- «لم يتسع الوقت لان يفرش شعر تلك الزهرة الصفراء ويمشط لها من قبل الجنيات قبل طلوع الفجر . انها مشعثة الشعر» . كما ان اللبلاب البنفسجي ، بالنسبة لها هو وسيلة اتصال جنيات النهار بجنيات الليل ، وضوء الشمس المتموج على البحر يمثل عذراوات نهر (الراين) وهن ينشرن شعورهن البراقة تحت الشمس . كان هذا هو الشكل المفضل لتفكيرها . اذ ان قيمة كل الاشياء عندها تكمن في الوهم الذي تخلقه حولها . ولم تكن تهتم بالناس . فهم بشكل عام ، وضيعون وقبيحون واغبياء .

اكتمل احساسها بالرضى ، وهي تنحني على حافة البحر الواطئة ناشرة اصابعها لكي تدفئها على الصخور ، خالقة السحر من ذلك الصباح البسيط . ثم راقبت المطاردة الكسول للامواج حول الصخور الصغيرة ، وتجعد الماء الازرق العميق حول الشعاب المظللة بالماء ، وقالت لنفسها :

«هذا رائع جدا ، انه بارد ونظيف ونقي بشكل ابدي ولا يمكن افساده بالتخمة» . حاولت ان تغسل نفسها بالصباح الابيض والازرق كي تزيل عنها التلوث الناتج عن لهفة الليلة الماضية .

كان البحر يتسلى مع نفسه وهو منكب على لعبته الخاصة . كان تحفظه واكتفاءه النفسي

هما جماله الاعظم . ان البحر لا يأخذ ويعطي مثل الارض والسماء ، وليست له تجارة مع العالم ، انه يستنفد هواه على نفسه . ولقد كانت (هيلينا) مثل البحر ، مكتفية بنفسها وغير مهتمة بالباقي .

جاء (سيغموند) حاسر الرأس ، وشعره الاسود يهفهف في الريح ، وعيناه تتلألاان اكثر دفئا من البحر – يشبه القنطريون العنبري ، واطرافه تتأرجح الى الامام والخلف مثل الماء . استندا معا على الجدار ، يدفئان ايديهم البيض الاربع على الصخرة الرمادية المقصورة ، ويراقبان الماء وهو يتموج .

عندما اصبحت (هيلينا) بالقرب منه ، فقد (سيغموند) الاحساس بالالم والتوق لاي شيء معين ، وهو ما كان يحسه دائما في الاوقات الاخرى . كانت تبدو وكأنها تربطه بجمال الاشياء . كما لو انها العصب الذي يستلم من خلاله الاحساس بالشمس والريح والبحر والقمر والظلام . جمال لم تشعر هي اطلاقا انه يتسرب اليه من خلالها وان ذلك هو ما يخلق الحب .

لقد كان دائما يستطيع التعاطف مع الازهار الصغيرة الكئيبة والاشجار الوحيدة بين حشودها ، وطيور البحر الحزينة المتوحشة . كان يميز في تلك الاشياء اللهفة العظيمة والشوق الموجه نحو شيء ما ، والذي يكون في العادة ، مثقلا به . ولكنه مع (هيلينا) ، في ذلك الصباح البحري العظيم ، كان مكتملا وكليا مثل النهار . وسألها عندما مرت غيمة فوقهما :

– «هل سيستمر الجو رائعا طوال النهار ؟»

فأجابته بطريقتها المنشدهة الهادئة ، كما لو انها غير مهتمة على الاطلاق :

– « لا اعرف . اعتقد انه سيكون يوماً مختلطاً ، سحب وشمس ، ولكن الشمس اكثر من البرد» .

نظرت اليه بحزن ، كما لو ترى فيما اذا كان موافقاً ، فاستدار من تقطيبه في السحابة كي يبتسم لها . بدا متألقاً وممتلئاً بالحياة وقال :

– «أحبُّ السماء الزرقاء العارية ، وشروق الشمس الذي يبدو وكأنك تحركه من جولك عندما تمشي» .

ابتسمت له وقالت :

– «الجو دافئ هنا حتى بالنسبة لك» .

اجابها :

– «آه ، هنا» . ثم وضع وجهه على الصخرة كي يستشعر توهجها ، تاركاً اصابعه تزحف بأتجاه اصابع (هيلينا) . ضحكت وامسكت باصابعه ضاغطة اياها بيدها . ولزهاء الساعة ، بقيا على

تلك الحالة ، تحت شروق الشمس الهادئ ، قرب حافة البحر ، حتى ابتدأت تتنهد وترفع وجهها للنسيم الواهن الذي كان يتسلل من الغرب . لقد كانت تمل بسرعة من الدفء مثلما من البرد . كانت هكذا دائماً ، تجفل من كل شيء ، متطرفة جسدياً ، ولكنها اكثر تطرفاً من الناحية النفسية وعلى نحوٍ خطير.

تسلقا التل الغربي ذا النسيم العذب ، وعلى اعلى نقطة من الارض ، ثمة صليب طويل محاط بسور حديدي احمر ، قرأ النقوش المحفورة عليه وهتف :

- «المنظر على ما يرام ، ولكن السياج قبيح وردي» .

فردت (هيلينا) بطريقة غير محددة :

- «اوه ، كان المفروض ان يسيجوا المكان برخام لورد (تنيسن) الابيض» .

ففسر قولها طبقاً لفكرته الخاصة وقال :

- «نعم ، فلقد حطَّ من شأن الاشياء العظيمة ، أليس كذلك» ؟

فهتفت :

- «تنيسن !» .

- «ليس الطواويس والاميرات ، بل اشياء اكبر» .

فاعلنت :

- «ما كان المفروض ان اقول كذلك» .

بدا متردداً ، ولكنه لم يكن كذلك حقاً .

تجولا فوق التلال بأتجاه الغرب بين الرياح . وبينما كان يتبعان الرأس البحري الى نهايته ، احسّا بالنسيم المنبعث من اجنحة البحر وهو يمشط شعرهما ، واصاخا السمع لاصوات الصراخ الحادة القلقة الصادرة من تحت الجُرف . وبين الحين والآخر ، يندفع نورس الى الاعلى ، مثل قطعة من الرغوة ، يطير فوق حافة الجرف ويغطس مرة اخرى ، وبين الفينة والاخرى ، وعندما يهبط الممر في تجويف ، كانا يستطيعان رؤية جدائل الطيور المعلقة ، وهي تمر داخلة وخارجة من مأواها في الجرف .

كانت تلك الطيور المتوحشة تناشد كل الشعر والشوق في داخل (هيلينا) . انها تدهشها وتعبر عنها تقريباً . زحفت رويداً رويداً الى الحافة ، شاعرة بأنها يجب ان تراقب النوارس وهي تنتشر مثل شظايا بيضاء فوق الصخور المسودة بالاعشاب البحرية . وقف (سيغموند) في الخلف قلقاً ، اذ لم يكن يجرؤ على ان يمزح مع القدر الآن ، وتملكه احساس قوي بالموت من ان يفقدها ، فتوسل اليها ، وهو يتبعها الى اقرب ما يستطيع :

- «ارجعي يا عزيزتي ، لا تقتربي كثيراً» .

سمعت صمت الالم والالتماس في صوته ، ولقد أدهشها ذلك ، فاقتربت اكثر قليلاً . لم يكن الموت بالنسبة لها غير واحدٍ من رموزها ، الموت الذي تتحدث عنه القصص القديمة – شيءٌ عظيم وشامل ومظلم .

بينما كانت منحنية الى الامام ، كان بأمكانها ان ترى خط الرمال الرمادي وخط زبد البحر متعرجاً حول الصخور السوداء . وفي كل مكان ، كانت النوارس تتحرك مثل رغوة على قدر ، وهي تصرخ متجمعة .

راقبت الطيور الجميلة ، وسمعت مناشدة (سيغموند) لها ، وانتشت بالمتعة وهي تلهو بألمه العميق . تقدمت (هيلينا) بأتجاه (سيغموند) مبتسمة وهي تقول ان المنظر يبدو رائعاً في الاسفل . شد يديه عليها في محاولة للتحرر من المه . كان ممتلئاً بألم ناتج من رعب دفين قوي يشبه الهاجس ، فضحكت عندما امسك بها .

تمشياً باحثين عن طريق للنزول . وفي النهاية ، سأل (سيغموند) احد حراس الشواطئ عن اقرب طريق للنزول من المنحدر ، فأشار الى طريق (المائة خطوة) ، فقال بشك ، وهما يهبطان على الطباشير الابيض الذي يخطف الابصار :

– «متى تكون المائة خطوة ليست على هذا النحو؟» .

كانت هناك ثمان وستون خطوة فقط : وضحكت (هيلينا) من دقته . فقال :

– «لابد انه حبٌ تقريب الارقام» .

فقالت ضاحكة :

– «من دون شك» .

كان قد اخذ الامر على محمل الجد تماماً واضاف :

– «او المبالغة» .

كان ثمة شاطئ ينحدر من الرمل الابيض الدافئ ، وقد قصرته الشمس فأصبح ناعماً مثل القطيفة ، وملأت اصوات النوارس ظلام التجاويف الارضية ، وكان اصطكاك الحصى يتسرب من حيث ينكسر الماء بهوادة ، ويأتي خرير البحر مرتبكاً ، مثل الصدفة ، بين الجرف المطوية .

اضطجع (سيغموند) و (هيلينا) جنباً الى جنب فوق الرمل الجاف ، صغيرين مثل طيرين ساكنين ، بينما كانت آلاف النوارس تدور في عاصفة بيضاء فوقهما ، وتنتصب الجرف العالية خلفهما ، وفوق الجرف ، كان ثمة عدد لا يحصى من السحب المسافرة ، قوافل سريعة في طريقها . ووسط السحب والمحيطات المسافرة ، وتحليق الكرات الثقيلة الهادئ ، كان (سيغموند) و (هيلينا) مستغرقين في مراقبة السماء ، مثل حبتي حياة وسط الحركة الهائلة ،

يسافران للحظة جنباً الى جنب .

ناما على الشاطئ ، مثل طيرين بحريين ، ابيض ورمادي ، وشاهدت السفن الكسولة التي كانت تتهادى عبر الخليج الجرف والكتل الصخرية ، ولكن (سيغموند) و (هيلينا) كانا صغيرين جداً . اضطجعا مُهْمَلَين ضئيلين ، يراقبان خلال اصابعهما نصف المطبقة قوافل النهار المختلفة . تمددا واصابعهما مشبوكة فوق عيونهما ينظران الى السفن المبحرة عبر المياه الزرقاء ، وكان (سيغموند) يقول :

– «هذه سفينة ذات اشرعة رمادية» .

فقاطعته (هيلينا) :

– «انها تبدو مثل ربة بيت في سن الاربعين ، وهي تتمشى بهدوء في بيتها ، وبيدها قطعة قماش لتنظيف الغبار ، اليس كذلك ؟» .

– «وهذا مركب متعدد الاشرعة . الا ترين اشرعته الاربعة ، . . . .» .

واستمر يصنف لها السفن حتى قوطع بضحكة خبيثة من (هيلينا) .

فاحتج قائلاً :

– «هذا صحيح ، انا متأكد !» .

فضحكت بنبرة اخبرته انه يعرف اقل منها في تصنيف السفن :

– «انا لا اعارضك» .

– اذن ، فلقد اضطجعت هنا تسلين نفسك على حسابي طوال الوقت» .

قالها وهو يجهل على الاقل سبب ضحكتها . استدارا ونظر احدهما للآخر . عيون زرق تبتسم وتستدير ، بينما كان الشاطئ يتموج تحت وهج الحرارة ، ثم اغلقا عيونهما من ضوء الشمس . نَعِسًا بسبب الشمس والرمل الابيض وزبد البحر ، فنامت افكارهما مثل الفراشات على زهور المتعة ، ولكن الظلال الباردة اجفلتهما .

قال (سيغموند) متأسفاً :

– «الغيوم قادمة» .

فاجابته :

– «نعم ، ولكن الريح قوية تكفي لتمزيقها» .

– «انظري الى الظلال – انها تطفو كالبقع وتلتهم ضوء الشمس» .

فقالت وهي تستكين اليه :

– «الجو دافئ هنا بما فيه الكفاية» .

– «نعم ، ولكني افتقد الوخزة . احب ان اشعر بالدفء وهو يخزني» .

- «لا ، انا لا احب ذلك ، ان اكون دافئة فذلك يكفيني»
- «احب ان يكون ضوء الشمس علي حقيقياً وواضحاً ومحسوساً . اشعر اني مثل بذرة تجمدت لعصور ، واريد ان يعضني ضوء الشمس» .

انحنت عليه وقبلته . وجاءت الشمس متلألئة القدمين فوق الماء ، تاركة بصمات مشرقة على وجه (سيغموند) . اضطجع وعيناه نصف مغلقتين متمدداً بأرتخاء على الرمل . نظرت الى اطرافه ، وتخيلت انه لابد ان يكون ثقيلاً مثل الكتل الصخرية . جلست على جسمه ، واصبعها ينقر على حواجبه التي كانت عريضة ومقوسة قليلاً ، بينما اضطجع ساكناً تماماً ، وكأنه في نصف حلم .

في تلك اللحظة ، وضعت رأسها على صدره ، وبقيت كذلك وهي تراقب البحر وتصغي الى دقات قلبه . كان النبض قوياً وعميقاً . وبدا وكأنه يتسرب عبر الجزيرة كلها وخلال الاصيل كله ، ولقد ادهشها ذلك . كان عميقاً جداً وصامتاً بزفرات الحياة العظيمة . هل للكون قلب ؟ .

هل ثمة رب عظيم في اعماق الكون يحرك امواج الحياة مثل قلب هائل غير واعٍ ؟ اخافها الامر . فلقد كان هذا هو الرب الذي لا تعرفه مثلما لا تعرف هذا السيغموند . انه مختلف عن العينين نصف المغلقتين بالهدبين السوداوين والانف الساحر الجميل . وان قلب الكون ، كما سمعته ، لا يمكن ان يكون له صوت الرشاش المتجعد الناتج من تراجع الامواج النائمة . اصاخت السمع لروح (سيغموند) ، ولكن صوت قلبه كان يعلو بضرباته على كل صوت ، وهو ينبض بعنف .



الفصل السابع

استيقظ (سيغموند) على اصوات مدافع البحر المكتومة ، ثم تأمل الماء الرمادي القاسي في دهشة ، واستدار الى (هيلينا) قائلاً :

- «اعتقد انهم يحيون القيصر ، يا للمتسول المسكين !» .

فابتسمت له وقالت :

- «كنت خائفة من انهم سيوقظونك» .

اصغيا مرة اخرى الى الاصوات المكتومة الجوفاء التي تتردد عبر الماء والتلال . وتحول النهار الى لون رمادي ، فقررا ان يتمشيا بأتجاه الخليج الآخر ، وقالت (هيلينا) :

- «المد قادم» .

فاجابها :

- «ولكن شريط الرمل العريض هذا لم يبلل منذ عدة شهور . انه هش مثل الفلفل» .

ثم استمرا في التجول على امتداد الساحل ، بجانب الخط المتعرج الاسود لطحلب الفوقس المتجعد .

عند قاعدة الجرف تراكمت كسارة الطباشير ، وعلى الجانب الآخر امتد سطح البحر المستوي ، ويداً بيد ، وحيدين ، مظللين بظلال الجرف الهائلة ، استمرا في المشي وفي نهاية السباق ترنحت الامواج وسقطت مهزومة .

اقترب (سيغموند) و (هيلينا) من رأس ارضي عمودي ، مثل جدار بيت ، امتلأت قاعدته بكتل بيضاء من الجلاميد الصخرية ، التي كان ماء البحر يتكسر عليها بصوت اجوف ،

متبوعاً بصفير حاد يدلل على انسحابه . كان على العاشقين ان يجتازا صحراء الكتل الصخرية البيضاء هذه ، والتي كانت تتلألأ ببريق ناعم براق على نحو غريب . ولكن (سيغموند) رأى الامواج عند جدران الرأس الارضي ، وعندما القى نظرة الى الخلف ، رأى رأساً ارضياً آخر يرشه الماء عند قاعدته المزبدة . كان عليهما ان يسرعا ، او انهما سيسجنان على الهلال الرملي الرقيق الذي كان باقياً بين الجدار العظيم والماء . اخافته الجُرف المطلة عليه ، واشعرته انه سجين ولا حيلة له . واحسَّ بأنها تمسك به في شبكة من الكتل الصخرية ، بينما كان البحر يتحسس بيديه باحثاً عنه . ولكن (هيلينا) كانت معه ، تكُّد الى جانبه ، وقد غشي بصرها بفعل ذلك البريق الذي يشبه بريق الجلد الصادر عن الصخرة البيضاء فقالت له :

– «اعتقد اني سأستريح للحظةٍ» .

فتوسل اليها :

– «لا ، هيا بنا» .

فردت ضاحكة :

– «يا عزيزي ، ثمة اطنان من هذا الحصى كي تحمينا من البحر» .

نظر الى الامواج ، وهي تنحني وتتسلل بخبث بين الكتل الصخرية . سوف يكون امرأ احمق ان يسجنا . بينما اضافت قائلة :

– «انظر الى هذه الخشبة السوداء ، هل تعتقد حقاً ان البحر هو الذي احالها فحمة ؟» .

وتوسل اليها مرة اخرى :

– «دعينا ندور حول الزاوية» .

بينما اضافت متهكمة :

– «صدقني يا (سيغموند) ، ان البحر ليس متلهفاً الى هذا الحد كي يأخذنا» .

عندما استدارا حول النقطة الاولى ، وجدا نفسيهما في خليج صغير ناتيْ من البحر . وكانت مقدمة النتوء الارضي محددة كالعادة . كان الخليج ابيض نقياً عند قاعدته بسبب اكداس الحصى الهائلة ، وحيث يتقعر الجرف الهائل خلفه ، بينما يتكتل الركام الصخري الابيض في الاسفل ، ويتقوس البحر الهائل في المقدمة . ولقد استمتعت (هيلينا) بكل ذلك ، فقالت متوقفة ، وهي تواجه الغرب :

– «هذا رائع يا سيغموند» .

فأبتسم لها بسخرية وهو يجلس على كتل صخرية . كانا لوحدهما تماماً في تلك الكوة البيضاء الهائلة الناتئة المطلة على البحر . هنا يستطيع ان يرى المد وهو يضرب قاعدة الجدار ، فلقد كان يأتي مندفعاً ليس بعيداً عن اقدامها . وسألها :

«هل تريدين حقاً الذهاب خلف هذه الحافة ؟» .

نظرت من حولها بسرعة ، مدهوشة كما لو انها توبخّه :

«هذا مكان رائع . اود ان ابقى هنا لساعة» .

«ومن ثم الى اين ؟» .

«بعدئذ ؟ آه ، بعدئذ . افترض ان يكون قد حلَّ عندها موعد الشاي» .

«شاي على الشقائق القرنفلية المالحة مع الاب نبتون» .

نظرت بحدة الى الرأس الابيض الناتئ حيث كان البحر يزبد عند قاعدته ، ثم قالت وهي تستدير اليه :

– «افترض ان الامر خطير» .

ثم استدارت وابتدأت تتسلق بصمت الى الامام . كان عليها ان تقود المسيرة ، اما هو فلقد تبعها وهو يقول :

– «هناك الكثير من المسافة بيننا وبين البحر حقاً ، فالبحر يبدو قريباً في الظاهر فقط» . ولكنها استمرت تجرُ خطاها متعمدة ، فالامر الآن مسألة خطر ولم يعد مسألة عدم اقتناع .

واحسَّ (سيغموند) بالارتياح . ازبدت الامواج متسلقة الرأس الارضي المكشوف حيث كنس منه الحصى الصلب الى الخلف . على فرض انهما لن يستطيعا الخروج .

بدأ يبتسم بفضول . اصبح على وعي بضوضاء الماء الصاخبة ، وبارتجاف الحصى الواهن عندما تضربه الموجة ، وكان يضحك مع نفسه بأستمرار . استمرت (هيلينا) تكد في المسيرة صامدة ، بينما بقي خلفها تماماً .

بدت النقطة قريبة ، ولكن الوصول اليها استغرق اكثر مما توقعا . وكانت الجُرف الهائلة تنتصب امامها ، وكتل الحصى الكبيرة والبحر المتأرجح . ابتدأت الامواج تضرب بصوت اعلى وتهدر على نحو مرعب ، والريح تكنس حول المنعطف وتبلل وجهيهما . وتمنى (سيغموند) لو انهما قد عُزلا ، وتمنى ايضاً وبلهفة ان يكون الطريق مفتوحاً ، وارتسمت الابتسامة على وجهه .

ومن ثم ، رأى ان هنالك رفاً او منصة عند قاعدة الجرف ، تتكسر عليها الامواج . تسلقا حافة الاكمة مسرعين الى المقدمة ، حيث امسكت بهما ريح رطبة وهائجة ، وكان الماء يصطفقُ في الاسفل ، وبين الاثنين تقلصت (هيلينا) ذاوية ، فأمسكت بسيغموند ، بينما اندفعت الموجة القاسية الهائلة على الصخرة ، ثم تراجعت لتستعد لتدفق آخر اقوى . كان الرذاذ والرغوة يدوران بسرعة مع الريح كالدخان . وذكّرت اصوات الامواج (هيلينا) بالقلب النابض ، فالتصقت به اكثر ، بينما كان شعرها يتطاير مبللاً وثوبها الابيض يرفرف في الريح

الرطبة . وكانت اندفاعة الامواج البطيئة تأتي على الصخرة دائماً ، مثل قلب هائل ينبض في الصدر . وكان ثمة شيء قاس يتعلق بذلك لم تكن تطيقه . ولم تكن تمتلك سلاحاً ضد تلك القوة الطائشة .

القت نظرة على (سيغموند) . كانت ثمة قطرات صغيرة من الضباب اضفت لوناً رمادياً على حاجبيه . كان ينظر الى البحر ، ويدير عينيه ويبتسم بقسوة . اصبح وجهها مهموماً ومتجهماً . لقد كان مثل القلب والبحر القاسي هنا تماماً . فهو لم يكن (سيغموندها) ، فهي قد كرهت القسوة فيه .

استدارت على نحو مفاجئ ، واندفعت فوق الكتل الصخرية بأتجاه الخليج المزدحم العريض ، بينما بقي وحيداً يبتسم لهيجان البحر المدهش ، غير مبال بمغادرتها ، اذ كان من السهل عليه ان يلحق بها .

عندما استدار في النهاية من الماء المضطرب ، كان قد استنفد وحشيته واصبح حزيناً . فهو لا يستطيع اطلاقاً ان يساهم في معركة الفعل الهائلة ، فذلك هو خارج قدراته . ان هناك الكثير من الاشياء التي تركها تفوته . لقد تدهورت حياته الى الحضيض ، واختصرت الى مجرد بضع هوايات قليلة وبضع ضرورات فقط . وحتى هنا ، لم يعد لديه شيء آخر سوى (هيلينا) ، ومن خلالها لديه بقية الاشياء . ولكن ماذا بعد هذا الاسبوع ؟ كان ذلك امراً مبهماً ، تركه في الظلام فزعاً .

كانت (هيلينا) تمشي وحيدة فوق الساحل المضطرب . رأى جسدها الصغير منحنياً بينما كانت تندفع الى الامام ، فخلبت قلبه بفتنتها العميقة .

كانت جميلة ، وهي رفيقة مرح ممتلئة بالجمال والمتعة . لماذا يقسو عليها ؟ الانها لم تمر بتجربة حكمته المرّة الخاصة ؟ لقد كانت شابة وساذجة ، ولكن هل عليه ان يغضب منها من اجل ذلك ؟ وضاق صدره من التفكير فيها . كان عليها ان تعاني بسببه ايضاً .

اسرع خلفها ، ولم يلحق بها الا بعد ان وصل الى تل اخضر صغير حيث انحدرت التلال واختفت الجرف ، عندها فأمسك بيدها وواصلا السير .

توقفا على رابية خضراء تقع وراء امتداد الرمل ، ودون ان ينبس بكلمة واحدة احتضنها بين ذراعيه ، وانقطعت انفاسها معاً . اعتصرها اليه بشدة كما لو انه يطحنها بضغطه العنيف ، واحست بجسده يعلو ثم يغطس فيها . وكان يبدو وكأنه يضغط ايقاعاً ، يضغط نبضاً جديداً فيها . وتدريجاً ، وبدهش عميق ذابت فيه ، كمعدن ينصهر على قالب . كان مزيجاً من البحر وضوء الشمس لاهباً ودافئاً وقوياً بشكل لذيذ .

تهلل (سيغموند) فرحاً ، فقد ذابت به في حب صاف في النهاية .

وقفا متعانقين على ذلك النحو بعض الوقت ، ثم رفعت (هيلينا) وجهها المتوهج

واسترخت . كانت تنبض برضى وتحرر غريبين وقالت :

- «ربما يكون البحر ايضاً مثل اي طريق آخر» .

كان كلاهما مجفلاً . وانطلقت الجملة عبر افكارهما مثل نجم يطير في الليل من الفراغ . لم تكن لديها فكرة عن سبب قولها ذلك ، وضغط فمه على فمها وفكر مع نفسه بردة فعل :

- «ليس لك . لا يمكنك سلوك هذا الطريق بعد» .

ولكنه لم يقل شيئاً ، بل ضغطها اليه بعنف واطبق على شفتيها .

تنبها بوجود اصوات ، فانهيا عناقهما ، واستمرا يتمشيان على حافة الماء ، كان المدُّ يتراجع ، وانحنى (سيغموند) فالتقط من مشاطة الماء مصباحاً كهربائياً كان مُلقى مشتبكاً في عشب بحري عند قاعدة الصخرة ، ناوله الى (هيلينا) ، فاضاء وجهها بنوع من المتعة الفضولية ، اخذت المصباح برقة من يده وتحسسته برقتها الرائعة وهي تهتف بسعادة :

- «أليس ذلك رائعاً . لابد ان البحر كان نبيلاً وكريماً جدا» .

فابتسم (سيغموند) وقال :

- «في بعض الاحيان» .

فردت قائلة :

- «ولكني لم اكن اعتقد ان اصابعه بهذه المهارة» .

تنفست على المصباح الزجاجي حتى اصبح كبرعم زهرة (المغنوليا) ، واستنشقت نكهته الرقيقة .

قال لها :

- «ما كان ليعاملك بطريقة طيبة» .

نظرت اليه بعينين مهمومتين ، ثم اعادتها الى المصباح . كانت اصابعها صغيرة قرنفلية اللون ، وكانت لمستها ارق لمسة في العالم ، فهي تشبه احساساً ضعيفاً بالحرير ، بينما كان يراقبها ، وهي ترفع اصابعها عن الزجاج ثم تنقره بلطف ، سخن دمه ، وراقبها منتظراً كلماتها وحركاتها بشغف ، وقالت :

- «انه لتصرف رقيق من جانب البحر» . واضافت :

«ان (وتان) لشخص اخرق ، فهو ينقر فوق الاناء دق - دق - دق - فتضرب الاسماك اللاهثة بزعانفها . . تضرب وتضرب وتخرج صوتاً كصوت رنين الكمان اذ تسحب اوتاره .

غالباً ما تصعب ترجمة حديث (هيلينا) الى مصطلحات مفهومة . اذ انها لم تكن صافية التفكير .

ما يسقط من الشعر ويتجمع في المشط ، والمقصود هنا الاعشاب والمواد التي يطرحها ماء البحر على الشواطئ

ثم ختمت كلامها قائلة :

- «ولكن الحياة مليئة بالخيبات» .

ابتسم (سيغموند) بنعومة لها . كان يحبها كثيراً كي يخالفها او ان يتمعن في كلماتها ، ثم مازحها قائلاً :

- «ليست هناك حسابات مع الحياة ، وليست هناك حسابات مع البحر . والطريقة الوحيدة للتعامل مع الاثنين هو ان تجعل نفسك اقرب ما يمكن الى الفراغ ثم تطفو» .

آلمها ان يكون قليل الاحترام لافكارها ، فاستمرت ماشية كي تنسى ما قاله .

كان هناك ثلاثة اطفال على الشاطئ ، اعادت اليه (هيلينا) الحلية التافهة غير قادرة على رميها بعيداً ، ولانه كان والداً فلقد قال :

- «سأعطي المصباح الى الاطفال» .

نظرت اليه واحبته من اجل تلك الفكرة .

تجولا يداً بيد ، فلقد كان يسرهما ان يمتلك احدهما الآخر علناً بعد سنين من البعد التقليدي . وصلا الى الفتاة الصغيرة التي كانت تنحني فوق البركة بينما يتدلى شعرها الاسود المظفور الى الماء . وقفت وهي تدفع خصل شعرها الى الخلف كي تتأملها وهما يقتربان ، بينما كانت تمسك بأحدى يديها ببعض الحصى . قال (سيغموند) وهو يعرض عليها المصباح :

- «هل تريدين هذا ؟ لقد وجدته هناك» .

نظرت اليه بعينين زرقاوين حزينتين وقبلت هديته ، ولكن بدا واضحاً انها لن تقول اي شئ . فاضافت (هيلينا) بنبرتها المنغمة المدهشة التي يستخدمها بعض الناس عند الحديث مع الاطفال :

- «لقد القتها الامواج من حضنها على بعض الاعشاب البحرية بأنامل حانية» .

تألقت عينا الطفلة ، وقالت (هيلينا) مبتسمة :

«ان خط المد مليئ بالكنوز» .

اجابتها الطفلة بأبتسامة صغيرة . اما (سيغموند) فلقد ابتعد قليلاً . وقالت (هيلينا) :

«يا لجمال عينيها ! !» .

فاجابها :

- «نعم» .

نظرت اليه فأحس انها تبحث في اعماقه بشوق بعينيها ، ولكنه لم يستطع ان يرد النظرة اليها ، بل اخذت يده وقبلتها ، مدركة انه كان يفكر في اصغر اطفاله .

★★★

الفصـــل الثامن

يمر طريق العودة الى البيت بالحقل ، عبر ممرات ضيقة صغيرة حميمة ، حيث تنتصب نبات ازهار الكشاتين بجدية ككلاب حزينة فوق الارض المنخفضة المفتوحة الخشنة الممتلئة بنباتات الزتم والخلنج بينما تغلفت فجواتها بالسرخس والاشجار .

وصلا الى كنيسة كاثوليكية رومانية صغيرة في الحقول ، حيث يطل تمثال السيد المسيح من علٍ على الموتى ، الذين كانت قبورهم تشكل روابي تحت الغطاء النباتي ، وكان قلب (هيلينا) يمتلئ بالعاطفة ، ذلك ان كل حنينها واحساسها بالشفقة ازاء المسيحية قد افعماها مرة اخرى .

يحيط الممر بجدار الكنيسة ، بحيث كان الموتى يرقدون في جهة ، بينما كان (سيغموند) في الجهة الاخرى ، قوياً ممتلئاً بالحياة ، ولكنه كان يمشي بطريقته العجوز الواهنة . احست بشوق نادر اليه واعجاب به . كان امراً غريباً بالنسبة لها ان تشعر بهذا التواضع ، ولكنها ذلك المساء ، احست انها يجب ان تسعفه وان تكون مطيعة له .

جعلته يتوقف كي ينظر الى القبور . وفجأة ، وبينما كانا واقفين ، قبلته وعانقته بحماس واثارته حتى احرقت عاطفته همومه ، وبدا وكأن الحياة قد نفخت فيه ، فتوهج وجهه كما لو انه سيتفجرُ ضوءاً ، عندها اعتراها الرضى واصبح بأمكانها ان تضحك .

بينما كانا يتمشيان خلال خمائل التنوب ، يصغيان الى الطيور التي تجمعت ، مثل عائلة تثرثر في البيت اثناء المساء ، ويصيخان السمع الى حفيف الريح الواهن ، تركت (سيغموند) يقودها ، فكان هو الذي يحدد ايقاع حركتهما ، بينما استندت عليه كطير على غصن متأرجح .

تجادلا حول الطريق الذي سيسلكانه ، واستسلم (سيغموند) كالعادة لها . سلكا طريقاً خاطئاً تماماً ، وعندما تراجعا ، تسللت خطواتهما خلسة عبر حقل دواجن ، كانت دجاجاته

تتوزع في مجموعات بائسة . ومرة اخرى ، وقد احست بالخوف بسبب حلول المساء ، تصارعت كبرياء (هيلينا) مع استسلامها الجديد الى (سيغموند) . فمشت منحنية ولم تنطق بكلمة واحدة ، وكان هو الآخر صامتاً ايضاً ، ولكن قلبه كان قوياً في داخله . وفي مكان ما في الافق البعيد ، كانت ثمة فرقة موسيقية تعزف مقطوعة (سهرة على الراين) .

عندما اجتازا اشجار الزان واقتربا من البيت ، قالت له (هيلينا) كي تجربه ، وتضرب ضربة كبريائها الاخيرة :

– «يا ترى ما الذي سيجلبه لنا يوم الاثنين القادم ؟» .

فاجابها بمتعة :

– «نهاية سريعة» .

كان يحدق في الارض ، ويبتسم لها بسعادة عفوية اكسبته حبها . لقد كان رائعاً في عينيها ، ولقد احبته ، وهي تغار من كل جزيئة تتجنبها فيه . لقد ارادت ان تضحي من أجله ، ان تجعل نفسها مذبحاً مشتعلاً له ، وارادت ان تمتلكه .

ومرت الساعات التي كان من المفروض ان تكون ملكها الصرف بطيئة تماماً عليها .

في تلك الليلة قابلت هواه بالحب . لم يكن هواه ما ارادت في الحقيقة ، ولكنها رغبت في ان يشتهيها بجنون ، وانه يجب ان يأخذ كل شيئ ، كل شيئ . ولقد كانت ليلة رائعة بالنسبة له ، اذ اعادت فيه الرغبة بالحياة كاملة ، ولكنها احسّت انها قد دمرت نفسها ، وان روحها قد ذُبلت .

في الساعة السابعة صباحاً . تمددت (هيلينا) بلذة في الماء الدافيئ . بينما كانت الامواج الصغيرة تتسلق الشاطيئ ممتلئة وصافية بلا زبد ، تخفق باستمرار بايقاع عاطفة الليلة الماضية . لم تحس بشيئ اكثر اثارة للمتعة من هذا الماء الدافيئ الذي ينساب فوقها . تمددت وابتدأت تتأمل البحر المتألق . كانت كل الاشياء التي تبدو مجبولة من ضوء الشمس ملطخة على نحو او آخر . وارتفعت الجرف من بين الامواج المتألقة مثل سحب ذات نسيج قوي ودقيق ، والصخور على امتداد الساحل تبدو مثل قطرات ندى متلألئة . ذابت القسوة من العالم ، بحيث ظهر ضوء الشمس في عروق الصخور وجرف الصباح . نعم ، كان شروق الشمس يجري في كل مكان . مثلما نحن ممتلئون بالدم ، والنباتات منسوجة من النسخ المتلألئ الاخضر الذهبي . كانت المادة والصلابة ظلالاً يلقيها الصباح حول نفسه كي يجعل نفسه ملموساً . مثلما كانت (هيلينا) ظلاً القته روحها ، كسرة من شروق الشمس . فوق هشاشتها .

تذكرت انها رأت الخفافيش تطير واطئة فوق بركة متلألئة عند الغروب ، وكانت اغشية اجنحتها تبرق بوميض قرمزي كلما نشرتها عبر الضوء ، فتبدو لوهلة وكأنها مجنحة بقطع من

اللهب المنسوج المخاط بالدم . كانت الخفافيش تخفق بسر لها .

اصبحت الجُرف الآن مثل اجنحة مشرعة يتسرب الصباح من خلالها على نحوٍ باهت . واحست بأن اجنحة العالم كلها مشرعة خلال ذلك الصباح في طيران براق هائل . كان الكون نفسه يطير ، وضوء الشمس ينسكب على الكون المدوّر الكبير ، حتى تخيلته نخلة كبيرة تهمهم في الجو الملون عبر مساحات شاسعة من ضوء الشمس .

اضطجعت وشرعت في هذه الرحلة الرائعة . كان شعاع الشمس الذائب في الماء يجعل الامواج ثقيلة وذهبية وغنية ببرودة قطيفية مثل زهر الربيع العطري . كانت قدماها تخفقان تحت الماء المظلل ، وصدرها يخرج براقاً كصدر طير ابيض . وتساءلت مع نفسها «اين سيغموند» ؟ . لقد كان هو ايضاً في مكان ما بين البحر وشروق الشمس ، ابيض اللون ، يمرح مثل طير ، ويشرق مثل ذرة ضوء شمس قلقة حيّة . ضربت الماء ، مبتسمة شاعرةً انها لوحدها معه . لقد امتلك كلاهما هذا الصباح ، مثل زوج من الطيور الكبيرة المتوحشة يسكنان بحراً فارغاً .

كان (سيغموند) قد وجد كهفاً ابيض اللون يتفجر بماء اخضر ، براقاً ومليئاً بالحياة مثل نسغٍ صاعد . وومضت صخرة بيضاء خلال الماء ، وفي الحال ايضاً ، تألق (سيغموند) في اخضرار البحر الحي ، مثل ازاهير شاحبة ترتجف نحو العلا . وقال (سيغموند) : «الماء ممتلئ بالحياة مثلي» . وضغط صدره الى الامام عليه . لقد سبح جيداً ذلك الصباح ، وكان اكثر امتلاءً بالحياة من البحر لذلك سيطر عليه بذراعيه ضاحكاً شاعراً بمتعة انتصاره على الامواج ، مجازفاً بتهور بكبريائه الجديدة ، سبح حول زاوية الصخرة عبر مدخل شامخ واسع الى ممر حيث يجري الماء مثل طوفان من الضوء الاخضر فوق القاع الابيض اللامع . وفجأة انبعث تحت ضوء الشمس البراق في الفجوة الصغيرة الثانية من الخليج .

وصل الى هناك مثل مستكشف ، اذ يتعذر بلوغ الخليج من اليابسة . خاض خارجاً من الماء البارد الأخضر الى حيث الرمل الذي كان نقياً مثل كتفي (هيلينا) ، منتقلاً من ظلال المدخل الى ضوء الشمس ، على التويج المتألق لبرعم الخليج هذا .

لم يشعر – الا بعد ان احس بضوء الشمس – كيف شرب البحر بشفتيه الباردتين من دفء جسمه بعمق . رمى نفسه على الرمل الهش الدافئ مثل فرو ابيض واضطجع مبتلاً ، متألقاً ، لاهثاً ، منتفخاً بكبرياء مبعثها السعادة ، لانه قد انتصر على ذلك الكهف البحري الصغير الذي يتعذر الوصول اليه . وقد زحف اليه مثل نحلة بيضاء الى برعم بكر ابيض انتظر نحلته طويلاً .

احسَّ بالرمل دافئاً على صدره وبطنه وذراعيه مثل جسد عظيم يلفه . وكاد يتخيل انه يستشعر لهاثه وهو يتنفس تحته ، ثم استقبل الشمس وضحك . ولفترة من الزمن ، إختصن

جسد الخليج الدافئ تحته ، ونشر ذراعيه على الرمل ، واخذ منه ملئ قبضتيه ، وتركه ينساب رائعاً ، دافئاً ، ناعماً خلال اصابعه وردد مع نفسه :

«انه مثل هيلينا بالتأكيد» ، ووضع ذراعيه مرة اخرى على جسد الشاطئ الدافئ ، تاركاً يديه تتجول وتكتشف وتجمع كل الدفء والنعومة والدهشة الغريبة للحصى الناعمة الدافئة ، ومن ثم ، تتقلص من البرد العميق الذي صادفته يداه بينما كانتا تحفران نحو الاسفل الى اعمق من رسغه . وفي النهاية وجد ان غرابة برودة الرمل العميق مدهشة هي الاخرى . دفع يديه مرة اخرى ، وعلى نحو اعمق ، مستمتعاً تقريباً بأذى البرد الثقيل المظلم ، وذلك لان شمس الخليج وزهرته البيضاء كانتا تتنفسان وتقبلانه في جفاف جسده ، وتمسك به زهرة الخليج في تقعرها الدافئ مثل نحلة في زهرة ، مثل نفسه بين نهدي (هيلينا) ، وينسابُ ضوء الشمس كدفء انفاسها خلال شعرة ، فيتنفس على نحو قريب ورائع ، ومع ذلك ، وتحت كل هذا ، كانت تلك الكتلة العميقة من البرد ، والتي كان الدفء والنعومة يطفوان فوقها فقط .

اضطجع (سيغموند) محتضناً الرمل ، ونثر بملئ يديه فوق جسمه حتى سخن واكتفى ، ثم نهض ونظر الى نفسه وضحك . كان الماء يتأرجح موبخاً الحصى الحادة في الاسفل مهمهماً كطفل صغير ، لم يكن راغباً في هجر رفيق لعبه . ضحك (سيغموند) وابتدأ يزيل الرمل الملتصق بجسده ، ووجد نفسه جافاً وناعماً على نحو غريب .

نثر المزيد من الرمل الجاف فوق جسده بنشاط وتعمد مثل طفل يلعب لعبة استحوذت عليه . وفي الحال ، اصبح جسده جافاً ودافئاً وناعماً كزهرة البابونج ، ولكنه اصبح مع ذلك رمادي اللون وملطخاً بغبار الرمل . تأمل (سيغموند) جسمه باستهجان على الرغم من انه كان ممتلئاً بالمتعة ، وبرغم ان يديه كانتا سعيدتين بملمس جسده . لقد اراد نفسه نظيفاً . واحس بالرمل خشناً في شعره وحتى في شاربه . سار وهو يكابد الالم فوق الحصى حتى وجد نفسه فوق القعر الصخري الناعم . ومن ثم ، غمر نفسه وحرك رأسه في الماء ، وغسل ومسح جسمه بيديه جيداً . لابد ان يشعر بأنه نظيف وحر ونشط كما لو انه غسل والى الابد كل سني التلوث في رمل الصباح هذا وشمسه وبحره . لقد كان ذلك التطهير ! .

اصبح (سيغموند) مرة اخرى قسَّ الشمس السعيد ، واحس كما لو ان كل ادران التعاسة قد ازيلت منه ، كما لو انه غمس قطعة قماش ملوثة بماء البحر ثم قصرها بيضاء على الشاطئ المشمس ، وهكذا احسَّ ، ابيض اللون ، جميلاً وبنظافة القماش ، وممتلئاً بالخفة والسحر .

كانت حديقة المنزل الامامية – حيث تنتظره هيلينا – طولية الشكل وملتوية ، وذات رصيف غائر من حجر الرصف يمتد على جانب العشب الى الباب ، ومن الجانبين كان جدار الحديقة العالي مثقلاً بازهار ياسمين البر وصريمة الجدي .

جلست (هيلينا) جانباً ، وفرشت امامها خارطة على المصطبة تحت اللبلاب الصغير المعترش وهي تتبع طريق تجوالها غليها . كانت ساكنة جداً . ولم يعكر سكونها من شيئ سوى طنين النحل الذي كان داخلاً وخارجاً من العريشة الصغيرة المتألقة المكونة من ازهار الكبوسين ، بينما انتصبت اوراق الكبوسين دافئة رمادية اللون في ظلالها الرقيقة تحت الشفق الاخضر ، والقت بضع ازهار بضوئها القرمزي والذهبي الخفي ، وثمة رائحة خافتة تنشرها ازاهير البليحاء العطرية ، و (هيلينا) مثل فراشة بيضاء في الظل . وذراعاها مثل لوامس تمتدان بقوة الى المصطبة ، بينما كانت منكبة فوق الخارطة ، مندهشة بالفرحة المطلقة وهي تتبع كلمة بعد اخرى ، وتستحضر منظراً بعد آخر ، وعندما تكتشف اسماً كانت تتذكر المكان ، وكلما تحركت الى العلامة الاخرى ، كانت تتخيل الممر الطويل المرتفع الهابط بسعادة .

كانت تنتظر (سيغموند) ومع ذلك اجفلتها حركة يده على المزلاج ، فانتفضت وقد اعترتها اثارة مفاجئة . كان (سيغموند) يقف في ضوء الشمس عند البوابة . حيا بعضهما بعضاً عبر الزهور الطويلة .

وعندما امسك (سيغموند) بيدها ، قال لها وهو يضحك بنعومة :

– «لقد خرجت من الماء جميلة جداً هذا الصباح» .

ضحكت ولم تكن جميلة ، ولكنها احست انها كذلك في تلك اللحظة . القت عليه نظرة مليئة بالحب والعرفان بالجميل وهمهمت في نبرة ساكنة كما لو ان ما ستقوله مدنس وغير ضروري :

– «وانت ايضاً» .

احس (سيغموند) بالغبطة فلقد احب ان يقال له بأنه جميل . وبعد بضع لحظات اصغيا خلالها الى طنين النحل وتنفس البليحاء قال لها :

– «لقد عثرت على خليج ابيض صغير مثلك ، خليج بكر ، كان علي ان اسبح هناك » .

فقالت مهتمة به لا بالخبر :

– «آه» !

– «كان يشبهك تماماً ، هناك الكثير من الاشياء التي تشبهك» .

ضحكت مرة اخرى بطريقتها المفعمة بالسعادة ، وصدر التذبذب الشبيه بالقصب في صوتها ، وقالت :

– «لقد رأيت الشمس خلال الجُرف والبحر ، ورأيتك انت» .

لم يفقه ما قالت . فنظر اليها مستفهماً . كانت بيضاء اللون ، ساكنة مبهمة . ثم نظرت اليه ، جملقت عيناها الجادتان دون ان تطرفا ، فارتجف وتغشت كل الاشياء امامه ، وبعد ان

رفعت عينيها ، وجد نفسه يقول :
- «اتعرفين ؟ . لقد احسست كما لو اني البشر الاول الذي يكتشف الاشياء ، مثل آدم عندما فتح عينيه على العالم للمرة الاولى» .
فاعادت (هيلينا) بهدوء ، وهي تتأملهُ بعينين مثقلتين بالمعاني :
- «لقد رأيت شروق الشمس فيك» .
ضحك مرة اخرى غير قادر على الفهم ، ولكنه احسَّ انها عنت الحب ، فقال لها :
- «لا . ولكنك غيرت كل شيء» .
كانت نبرة التساؤل والمتعة في صوته قد اثرت فيها الى ما يفوق حدود السيطرة على النفس ، فأمسكت بيده وضغطتها وقبلتها بسرعة ، وفجأة سيطر عليها الحزن .
- «احس كما لو ان وضعنا صحيح ، انت وانا يا هيلينا ، بل هو امر مستقيم ،. أليس كذلك ؟ كما ان البحر وكل شيء آخر من حولنا يبدو معنا . الا تعتقدين ذلك ؟» .
عندما نظر اليها ، وجد عينيها مغروقتين بالدموع ، انحنى وقبلها ، بينما ضغطت رأسه على نهديها . لقد كان سعيداً جداً .



الفصل التاسع

ازداد النهار قيظاً ، وزحفت قطع من السحب بلون الفضة عبر السماء المجدبة مثل سلحفاة اثاقلت في مشيتها حتى توارت بالحجاب . ولقد اكتست الطرق الكلسية بلون ابيض وهي ترتجف من الحر الشديد .

سارت (هيلينا) و (سيغموند) حاسري الرأس تحت وهج الشمس ، وقد وليا وجهيهما شطر المشرق واجمًا ، وهما يجران الخطى على امتداد الطريق الطويل ، كأنهما حشرتين في مشكاة في موقد ساخن ، وقد انتشرت زهرات الخشخاش هنا وهناك تزهو بلونها الاحمر بين عشب الزان فبدت تحت ضوء الشمس اشبه بقطرات دم فوق ماء اخضر . وكانت (هيلينا) تسترجع ابياتاً من الشعر لفرانسيس ثومبسن (*) ، وهي ابيات لم يقرأها (سيغموند) في حياته قط . وكانت تردد ما تحفظه من الشعر ضاحكة ومستذكرة صورة (ثومبسن) الشاحبة . نظرت الى (سيغموند) الذي كان يسير الى جنبها بارتياح عظيم وقالت له : «الفنانون اناس تعساء حقاً» ، فاجابها (سيغموند) :

– «وما اظن فاكثر الا واحداً من هؤلاء» .

ثم رفع رأسه الى حيث السماء المشرقة الساخنة . وشرب من حرارتها بوجهه المغمض العينين . لقد بدت كل العوالم شاحبة امامه الا عالم نفسه . فكم من اناس احبهم واشفق عليهم . وكم من ناس أصطبر على صحبتهم بلا توجع او انين .

(*) فرانسيس ثومبسن (١٨٥٩ - ١٩٠٧) شاعر انكليزي معروف بشكل رئيسي بقصيدته الصوفية الطويلة التي عنوانها (كلاب السماء) التي نشرت ضمن ديوانه (اشعار) الذي صدر عام ١٨٩٣ .

بلغا مكاناً اصبح بأمكانهما الوصول الى الساحل عبر ممر منحدر . وبينما كانا يهبطان المنطقة الصخرية التي كستها ازهار الشيخ بلون اصفر . احسا بأنهما يغطسان في هواء الخليج الحار الخامل . وغادرا جو الارض العليا المنعش فوق رأسيهما .

كانت الحرارة تتوهج وترتعش بين الصخور الرملية البيضاء التي تبدو وكأنها نُقّيت بالصهر . جلست (هيلينا) وخلعت حذاءها . وخطت على الرمل المتألق الحار حتى سَفَع قدميها بشكل ملذٍ ومخدرٍ تقريباً . بعدها ركضت الى الماء كي تبردهما . وتسابقت مع (سيغموند) يجريان في الماء الضحل . ويراقبان في استغراق . الامواج المسرعة مثل خنافس بلورية تعدو فوق اقدامهما البيضاء . ويتأملان البحر الذي يرتفع قربهما . فيبدوان مثل قزمين امام امتداده الواسع .

ولفترة قصيرة . تمشيا بصمت على امتداد حافة المياه . ثم هبط عليهما شفق النوم . ذلك السكون الصغير الذي يغلق الابواب ويسحب ستائر البيت بعد احتفال .

تجولا على الشاطئ حيث يصل المد . ثم جلسا على الرمل متكئين على صخرة بنية مصقولة . حيث كانت الشمس تشرق على جبين (سيغموند) . بينما استكانت (هيلينا) في ظله . ومرت الساعات دون ان يحسا بها . صامتة تنسل . وزحف البحر اقرب واقرب منهما . مثل افعى تراقب طيرين نائمين . انها قد لا تزعجهما . لكنها تتراجع الى الخلف . متوقفة عن مراقبتهما بعينيها البراقتين .

في الوقت نفسه تساقطت ازاهير عاطفتهما تساقط ازهار الخشخاش عند الظهيرة . ونضجت بذور الجمال في داخلهما بسرعة . وتسربت احلامهما مثل الريح خلال روحيهما . وانسابت مع بذور غبار التجربة الجميلة التي انضجاها . كي يُسمّدا بها ارواح الاخرين ايضاً . في داخلهما . اختلطت البواخر والسماء والبحر فأنجبت براعم جديدة من حرارة حبهما المتقدة . وكانت بذور هذه البراعم تهتز كلها ناما في يد الرب الذي يمسكها براحته بحرص . ثم يرميها مرة اخرى كي ينتج براعم رائعة جديدة من الجمال .

هبَّ نسيم عليل على الجُرُف . واضاء النوم للعاشقين تجربتهما . وتحفزت براعم جديدة في روحيهما بينما كان مضطجعين في الشفق المظلل عند شرفة الموت . وداعب النسيم وجه (هيلينا) وانساب برد على نحرها . وعندما انصرم الظهر استعادت حيوتها . وكما كانت سريعة الذبول . كان انعاشها سهلاً كوردة بنفسج بيضاء تغمس في الماء . ولقد ارتجفت قليلاً ثم نهضت .

كان امراً غريباً بالنسبة لها ان تبعث من الصخرة البُنية الى الحياة مرة اخرى . واحست انها قد استعادت حيويتها على نحو رائع . كان كل شيءٍ من حولها مفعماً بالحيوية كحديقة رطبة في صباح حزيراني مبكر . رفعت شعرها ثم نثرتهُ ونفضته كي تطرد الرمل . وركضت وضحكت مثل الخشخاش الهدابي الذي يتفتح للشمس . تركت الريح تمشط خصلات شعرها المتشابكة

باصابعها الهشة . لقد احبت (هيلينا) الريح ، فاستدارت لها ، وتقبلت قبلاتها على وجهها ونحرها .

تمدد (سيغموند) ساكناً تماماً يتأملها بأمعان . لقد كان التغير في داخله اشد عمقاً كما لو ان هذا التغير كان في نسيجه . وتفتحت براعمه ببطء ، وكانت من نوع طري ، فتمدد مبتسماً لها ، وفي النهاية خاطبها قائلاً :

– «تبدين الآن كما لو انك تنتمين الى البحر» .

فاجابته :

– «انا كذلك ، وسأرجع اليه في يوم من الايام» .

في تلك اللحظة ، تمثل البحر لها عاشقاً عظيماً مثل (سيغموند) ، لكنه اكثر تجرداً يستطيع اخذها اذ يخفق (سيغموند) . استمتعت للحظة بتلك الفكرة بينما يتأملها سيغموند مبتسماً ، وبرعم فرحه قوياً معافى . فقالت له (هيلينا) مادة يدها له :

– «تعال !» .

نهض على مضض تقريباً من سباته العميق المثمر .



الفصل العاشر

حمل (سيغموند) الاحذية والجزم بينما كانا يتجولان على الرمل بأتجاه الصخور . وكان ثمة احساس ملذ بالخطر في تسلقهما باقدام عارية فوق ذلك الخليط الناعم الوعر من الصخور . ضحكت (هيلينا) على نحو مفاجئ بسبب من الخوف عندما احست بنفسها تتزحلق . وكان قلب (سيغموند) يتواثب مُثاراً كطفل . وكان يحدث هذا كلما مد نفسه الى الامام متجشماً الخطر ليساعدها . وعلى هذا النحو استمرا يمشيان الهوينا . وغالباً ما كانت تناديه ليقترب منها ويراقب برك الماء الصخرية الصغيرة الجميلة الملونة ببراعم شقائق النعمان الحمراء والبنية اللون . والتي لم تكن تبدو غير ظلال مستترة بحرير بحري اخضر رقيق . احب (سيغموند) ان يلكز الحصى الابيض وان يُفزع السرطانات الصغيرة القابعة في الفجوات المظللة خلال الاعشاب ويزعج شقائق النعمان المتحفزة فتطبق على اصبعه على نحو مفاجئ . ولكن (هيلينا) احبت ان تراقب الاشياء من دون ان تمسها . وكانت الشمس عندئذ تنحدر خلف الصليب في الافق البعيد نحو الغرب . والضوء يستحم في لجين وذهب على سطح الماء اللامع . وفي النهاية مد (سيغموند) بصره قلقاً مسافة ميلين حيث تمتد الكتل الصخرية المطلية المتلألئة . وجلست (هيلينا) على صخرة تغمس قدميها في بركة دافئة مستشعرة ملمس الاعشاب البحرية الطرية التي تُشبه قماش القطيفة .

قال لها :

- «الا تعتقدين ان من الافضل ان نتسلق الجُرف» ؟

تأملته مبتسمة بعينين لا مباليتين وضربت الماء بقدميها . وتفحصت اصابع قدميها الوردية . كانت سعيدة على نحو طفولي مضحك . وسألته بأبتهاج :

- «ولماذا يجب علينا ان نفعل دلك ؟» .

راقبها متأملاً اياها ، فلقد اشعرته لا مبالاتها الطفولية بالعواقب الممكنة بأحساس المسافة بينهما ، فهو قد يمرح بمظهر الحياة اللذيذ الدافئ ، ولكنه يهتم دائماً بكتلة البرد القاسية تحته ، كتلة الحياة المجردة من العاطفة تجاه الفرد ، المجردة من الاحساس به .

لقد استهوتها التوافه والدمى ، غوامض الاشياء وسحرها . وما كانت لتمتلك الحياة فتقسو عليها ، فهي اما ان تكون جميلة وخيالية ، او غريبة او مبهمة ، او ان تكون حقيرة ومبتذلة دون التصور .

كان عليه ان يستشعر بأحساس شقائق النعمان ، وان يكتسب معرفة متعاطفة لتجربتها في دمه قبل ان يكون مقتنعاً . فلقد كانت شقائق النعمان ، شكلاً جميلاً رائعاً آخر في مشكال (هيلينا) .

جلست ترطب قدميها الورديتين في الماء غير واعية بكربه . واعتصم بالصبر ازاءها وهو لا يستطيع اطلاقاً ان يجذب انتباهها ، فقال لها بهدوء :

- «هيا ، انك تبدين كما لو كنت في سن السادسة اليوم» .

ضحكت بينما تركته يرفعها ، ثم استكانت اليه مبتسمة بطريقة فضولية برّاقة . قبلها بكل احساس الابوة الذي كان حيّاً على نحو حزين في داخله ، وقال لها :

- «والآن ارتدي جواربك» .

فردت ضاحكة :

- «ولكن قدمي مبتلتان» .

جثا على الارض وجفف قدميها بمنديله ، بينما جلست هي تداعب شعر رأسه باطراف اصابعها ، واخذ ضوء الشمس يغدو ذهبياً اكثر فأكثر ، وقالت له :

- «انا احسد المتوحشين لانهم حفاة الاقدام» .

- «ليس ثمة زجاج مكسور في العراء ، او كان الامر كذلك» .

وبينما كانا يجتازان الرمال ، سلكت اسرة كاملة الطريق المحاذي للجرف ، نزل افرادها على نحو مبعثر في طابور منفرد مثل صف في المسرح . صبيان ثم طفلة صغيرة تلاهم الاب وفتاة اخرى ثم الام ، وخلفهم ثمة كلب يهرول محترساً شاكاً في امكانية قدرته على النزول . اندفع الصبيان يصرخان بأتجاه الخليج وتبعهم الكلب نابحاً ، اما الصغيرة فلقد انتظرت والدها وهي تصرخ بحدة :

- «لن تسقط (تيس) الآن ، أليس كذلك يا ابي ، فهل انزلها الآن ؟» .

فرد الإب :

- «نعم ، دعيها تركض» .

وبعناية فائقة ، انزلت الفتاة الهريرة التي كانت تحملها قريباً من صدرها . كانت المخلوقة الصغيرة مرتبكة وخائفة ، واستدارت من حولها بحزن ، فقالت لها الطفلة :

- «هيا يا (تيسي) ، انك الآن على ما يرام ، هيا اركضي على الرمال» .

وقفت الهريرة مترددة وتعيسة ، ثم رأت الكلب امامها بمسافة فركضت خلفه ، كانت مخلوقة مسرعة مجعدة الشعر ، ولكن الكلب سبقها ودخل الماء ، فمشت الهريرة بضع خطوات وهي تحرك وجهها الصغير ذات اليمين وذات اليسار ، وتموء على نحو مثير للشفقة . بدت صغيرة على نحو استثنائي ، شيْ مجعد بحجم اليد ، وهي تقف مذعورة من الماء الصاخب ، فتطفو صيحتها الواهنة فوق تناثر الامواج .

نظرت (هيلينا) الى (سيغموند) بعينين يملأهما الاسى ، وهو يراقب الهريرة ويبتسم قائلاً :

- «انها تصرخ لان الاشياء هائلة الحجم لا تستطيع استيعابها» .

- «ولكن انظر اليها كم هي خائفة» .

فرد ضاحكاً :

- «وانا ايضاً ، واذا كان ثمة آلهة يراقبونني الآن ويضحكون ، فأنهم على الاقل لن يكونوا رحماء معي الى الحد الذي يضعوني في مآزرهم . . .» .

فضحكت بحيوية وهتفت :

- «ولكن لماذا ؟ لماذا تريدهم ان يضعوك في مئزر ؟» .

فرد ضاحكاً :

- «انا لا اريد ذلك» .

على قمة الجرف ، كانا وحيدين بين خليجين ، بين الماء الازرق الغامق الى اليسار ، بينما امتد على اليمين الماء الذهبي الرقراق نحو الشمس ، كان (سيغموند) يبدو وكأنه مغموس حد الخصر في الظل ، ووجهه براق ومتوهج . كان يراقب المشهد بجدية ثم قال لها :

* «اريد ان امتصه كله ؟» .

وعندما استدارا في النهاية ، همهمت (هيلينا) ببطء :

- «نعم ، ان المرء يستطيع ان يستعيد الى ذهنه كل التفاصيل ، ولكن ليس بوسعه ان يستعيد الظروف اطلاقاً» .

تأمل مفكراً للحظة ثم قال لها :

- «يا للغرابة ، اني استطيع تذكر الاجواء لا التفاصيل . انها تمثلُ لحظة عندي وليست قطعة من منظر . يجب ان اقول ان الصورة في داخلي وليست هناك في الخارج» .

ومن دون ان تزعج نفسها كي تفهم – اذ كانت تميل الى اعتباره حشواً في الكلام اصدرت صوتاً قصيراً يدل على الموافقة ، فأستنتج قائلاً :

– «هذا هو السبب الذي يجعلك تريدين الذهاب مجدداً الى مكان ما ، بينما لا اهتم انا بالامر كثيراً لاني احمله معي»



الفصل الحادي عشر

قررا ان يشقا طريقهما عبر الممرات المؤدية الى خليج (الوم) . ومن ثم ، وقد وضعا صليب الكنيسة علامة امام بصرهما ، عزما على ان يعودا فوق التلال ، بينما كان ظل القمر ينساحُ رحباً على الماء امامهما ، لان القمر كان يظهر متأخراً . ومع ذلك ، فلقد ارتفع الشفق اسرع مما توقعا .

كان الطريق يتلوى بين المروج والاراضي الموحشة وغياض الاشجار ، طريق صغير عنيد ، مبهم تماماً ، لذلك فقدا علامتهما الارضية البعيدة ، الصليب الابيض .

تسرب الظلام خلال ضوء النهار ، وعندما وصلا في النهاية الى علامة على الطريق ، كانت الدنيا قد اظلمت تماماً حدًّ انهما لم يستطيعا قراءتها . كانت الاشارات تندغم مع الغسق كلما امعنا النظر اليها .

قالت (هيلينا) :

-- «يجب ان نتجه نحو اليسار» .

الى اليسار ، كانت التلال ترتفع ناعمة رمادية اللون ، ولكن قممها كانت سوداء مجللة بنباتات (الرتم)* التي تبدو مثل عملاق اسود يضطجع نائماً بينما يقبع - نبات (جلد الدب) فوق كتفه .

ثمة ممرات طباشيرية شاحبة تمتد جنباً الى جنب عبر المرج . وبعد ان تسلقا التلال ، وصلا الى حفرة جير مهجورة تمكنا من عبورها . وبعد ان اجتازا بيتاً ريفياً منعزلاً تسلقا جنب التل

---

* الرتم : نبات له اشواك وازاهير صفراء اللون

المنفتح حيث طغى عليهما احساس بالاتساع والحرية . وقال لها (سيغموند) وهما يجوسان نحو الاعلى على غير هدى :

- «يمكننا ان نهتدي الى طريقنا اثناء الليل» .

لم تكن (هيلينا) لتهتم باتجاهها ، فكل الاماكن في ذلك الليل الكبير المعتدل كانت بيتها ، وهي ترحب بها . اقتربا اكثر فأكثر من عباءة (الرتم) الخشنة . فقال لها (سيغموند) :

- «لابد من وجود ممر خلاله» .

ولكنهما عندما وصلا . لم يجدا اي ممر ، بل واجههما جدار لا يمكن اختراقه من نبات (الرتم) يرتفع الى اطول من قامة (سيغموند) الذي خاطبها قائلاً :

- «ابقي هنا ، بينما اذهب وابحث عن طريق خلاله . اخشى انك ستتعبين » .

وقفت وحيدة قرب جدار (الرتم) ، وابتدأت الاضوية التي كانت تومض اثناء الغسق تشتد توهجاً بحيث ابتدأ البيت الريفي الصغير القابع اسفل التل بالتوهج متخذاً هيئة واضحة في الليل ، بينما تحول البحر البعيد الخفي الى طريق واسع وغامض ، تتحرك ذرات ضوئه ببطء ، بينما رابطت مصابيحه الكبيرة وسط الظلام .

ارادت (هيلينا) ان يمسح شحوب النهار تماماً من الغرب . لقد كانت تريد ليلاً اسود معتماً ، يستطيع ان يمحو كل شيء باستثناء (سيغموند) ، فسيغموند يمثل ما يعنيها من العالم . اذ ان الظلام والرتم والتلال وذرات الضوء . تبدو كلها وكأنها تُنم عليه ، انتظرته كي يرجع ، فلقد كان من الصعب عليها ان تتحمل ظرف الانتظار الشديد . ولقد جاء خفياً بملابسه الرمادية ولكنها احست بقدومه . قال لها :

- «لا فائدة ، ليس هناك من اثر لممر ، ولا مهرب ارنب» .

فردت بهدوء :

- «اذن سنستريح قليلاً هنا» .

فاشار ساخراً :

- «هنا ، على تل الخلدان (*) هذا ؟» .

جلسا في فسحة صغيرة بين نباتات الرتم ، حيث كان المُرج ناعماً جداً ، والظلام يبدو اشد عمقاً . كان الليل مشبعاً برائحة الظلام الباردة وعبير التلال العبق الحميم الممتزج برائحة زهر العسل والرتم وعبير السرخس .

استدارت (هيلينا) اليه ، مسندة بيدها على فخذه ، وسألته بنبرة متسائلة فرحة :

- «في اي يوم من الاسبوع نحن ؟» .

(*) تل ينتج من التراب الذي تستخرجه فئران المناجذ اثناء حفرها لجحورها .

ضحك (سيغموند) وقد فهم قصدها وقبلها ، ولكنها الحت عليه قائلة :

- «ولكن حقاً ؟ ما كنت لاصدق ان العلامات يمكن ان تسقط عن كل شئ على هذا النحو» .

ضحك مرة اخرى ، وكانت لا تزال منحنية بأتجاهه ، مستندة بثقلها على يدها ، موقفة تدفق الدم الى فخذه .

«لقد اعتادت الايام ان تمر في موكب مثل الدمى السبع ، كل واحدة منها بترتيب وزي معين . فتدور من حولها الى ما لانهاية .» ضحكت مسرورة بالفكرة واردفت قائلة : «يا له من امر غريب حقاً ، ان تصهر النهارات والليالي في قطعة واحدة . كما لو ان عقرب الساعة لا يدور الا مرة واحدة فقط طوال الحياة» .

فاعترف متأثراً ببلاغتها :

- «هكذا يبدو الامر» . واضاف قائلاً :

«لقد مزقت كل العلامات المميزة للاشياء ، وهي مختلفة كلها . وهذا الصباح بالذات يبدو من السخف الحديث عنه ، لماذا يتوجب علي ان أوزع الى أصباح وأماس وليالٍ ؟ . فانا لست مخلوقاً من مقاطع الزمن . والآن تتسابق الليالي والنهارات فوق رؤوسنا تسابق ظلال السحب وشروق الشمس فوق البحر ، ونحن غافلون عن ذلك طوال الوقت .

شبكت ذراعيها حول رقبته ، وذكره وخزٌ مفاجئٌ في ساقه بشدة ضغطها عليه . جَسَّ نَفَسَه من الالم بينما كانت تقبل عينيه برقةٍ . وضعا خداً على خد ، يتأملان النجوم ، وشعر باحساسٍ رائع ممتلئٍ بالمتعة ، وحِدَّةٌ في الاحساس وامتلاء رائعٌ رقيق يشبه الموسيقى . قال لها مكرراً نفسه :

- «اتعرفين . . الحق انك نسجتِ كَلَّ الاشياء في قطعةٍ واحدةٍ من أجلي . إنَّ الاشياء ليست منفصلة عن بعضها بل هي في تناغم وفي حالةِ حركةٍ مستمرةٍ ، وأنتِ الحافزُ في كل شئ» .

تمددت (هيلينا) الى جانبه وقد وضعت نصف جسمها فوقه ، حزينةً من فرط الغبطةِ ، وقالت له مدفوعةً بخيلاء المعجب :

- «يجب ان تكتب سمفونية عنا» .

اجابها :

- «في وقتٍ ما ، لاحقاً ، عندما يتوفرُ الوقت .» .

فهمهمت قائلةً :

- «لاحقا ؟ بعد اي شئ ؟» .

اجابها :

- «لا اعرف ان هذا لامرٌ بَراقٌ جداً ، لا نستطيع رؤية مابعده» .

ادار وجهه نحو وجهها ، وخلال الظلام ، ابتسم في عينيها اللتين كانتا قريبتين جداً منه ، ثُمَّ قبلها قبلة طويلة عميقةً ، واضطجعا ورأسها على كتفه ، يراقب النجوم عبر شعرها . وقال لها بنبرة الفرحِ المتسائلة المجردة نفسها :

- «اتساءل انّى يتوفر لجسدكِ مثل هذا العطر الطبيعي الرائع ؟» .

اجابته :

- «الا تمتلك جميع النسوة ذلك ؟» .

وترددت في صوتها مرة اخرى تلك النبرة الثاقبة المزمارية الغريبة التي تشبه صوت النحاس الاصفر مرة اخرى .

وقال لها لا مبالياً :

- «لا اعرف . ولكنك تفوحين عطراً يشبه رائحة البندق ، لُبِّ البندق الطازج مع نفحةٍ من عطر الخشخاش . .» .

واستمر يستنشقها بفمه المفتوح ، شارد الذهن ، مستغرقاً فيها تماماً .

همهت بشوقٍ ، غير قادرةٍ على السيطرة على نبرة صوتها عند الحديث :

- «انك غريب الاطوار . . جداً .» .

فردَّ عليها ببطءٍ :

- «اعتقد . . استطيع ان أرى النجوم تتجول عبر شعركِ . ابقي ساكنةً ، إذ لا يمكنك رؤيتها» .

تمددت (هيلينا) مذعنةً ساكنةً تماماً بينما استمر في نغمٍ رتيبٍ بطيءٍ :

- «اعتقدت ان بامكاني مراقبتها وهي تسير فتدبُّ مثل ذبابٍ ذهبي على السقف ، ولكنك تنكثين شعركِ الان فتسرع النجوم» .

ومن ثَّم ، وكأن فكرةً جديدةً طرأت على باله ، اضاف قائلاً :

«هل لاحظتِ انكِ لا تستطيعين تمييز الكواكب وانتِ مضطجعة هكذا» ؟

- «لا استطيع ان ارى اياً منها ، بل لا يمكنني تحديد الشمال» .

ضحكت من فكرةِ استجوابه لها بخصوص هذه الاشياء . كانت ترفض فكرة تعلّم اسماء النجوم او الكواكب او النباتات المبثوثة جنب الطريق ، اذ كانت ترددُ «لماذا يتوجب عليَّ ان اسميها ؟ اني افضل ان اتأملها ، لا ان اخفيها تحت اسم ما» . لذلك ضحكت عندما طلب منها ان تجد نجمة (النسر الواقع) أو (السِّماك الرامح) بينما استمر (سيغموند) حالماً :

- «يا لامتلاء السماء ! . . انها مثل شارع مزدحم . إنَّ المكان من حولنا يبدو مقفراً مقارنةً

بها . هاقد وجدنا يا (هيلينا) مكاناً اكثر هدوءاً وعزلة من النجوم ، اليس رائعاً ان نكونَ هنا ، والسماءُ جارنا القريب» ؟ .

تساءلت باسيً :

- «هل فعلت الصواب عندما دعوتك للمجيْ الى هنا ؟» .

فاستدار نحوها واجابها بنعومةٍ :

- «مثل حكمة الله في دقتها . اعتقد ان بضعة ملائكة متخفين هم الذين جلبونا الى هنا - هرّبونا !» .

وسألته :

- «وهل انت سعيد ؟»

فضحك قائلا :

- «استمتع بيومك» . لقد قطفنا الجمال يا عزيزتي ، وبهذه الوردة في عروة سترتي اتجرأ على الذهاب الى الجحيم او الى اي مكان آخر» .

فسألته بحزنٍ :

- « ولم الجحيم يا سيغموند ؟» .

فضحك وقال لها :

- «اعتقد انها النتيجة ، لقد فشلت في كل شيْ اخر يا هيلينا ، ولكن يومنا هذا وردة لم يجنها الكثير من الرجال» .

قبلته بحنانٍ وابتدأت تبكي بطريقةٍ سريعة مكتومةٍ ، فهمهم قائلاً :

- «وماذا يهم يا هيلينا ، ماذا يهم ، اننا الان معاً» .

اثارت فيها نبرة (سيغموند) الهادئة عاطفة مشوبة بالحزن ، واحست انها يمكن ان تفقده ، احتضنته بقوةٍ ، وانفجرت في نشيج لا يمكنها السيطرة عليه . لم يفهم سبب بكائها ولكنه لم يقاطعها ، بل امسك بها واحتضنها بقوةٍ وتأمل ، عبر شعرها المرتجف ، نجوم السماء الساكنة . حنى رأسه عليها ، ورأى وجهها وشفتيها مثقلة بالحزن ، ثم ابتدأت تهدأ قليلاً . احس بخده رطبا بدموعها ، وبين خدها وخده ، نسجت خشونة من شعرها الرطب ، حكت وجهه وجعلته يسخن . سألها في النهاية :

- «ما الامر يا هيلينا ، لمَ تبكين ؟» .

دفنت وجهها في صدره . وقالت بصوت مكتومٍ يصعب تمييزه :

- «لن تتخلى عني يا سيغموند ، اليس كذلك ؟» .

فهمهم لها بطريقةٍ هادئةٍ :

– «وكيف يمكنني ان افعل ذلك ، ولمَ افعله ؟» .

رفعت وجهها على نحو مفاجئ ، وطبعت على وجهه قبلةً عنيفةً ، واعاد عليها القول : «كيف يمكن ان اتخلى عنك ؟»

وسمعت صوته يهتاج ، وعادت القوة الى ذراعيه . ولقد كانت سعيدة بذلك .

ران صمت كثيف فوق كل شيء ، وتوقعت (هيلينا) انها على وشك ان تسمع صوت حركة النجوم . كان كل شيء ساكنا تماما في الاسفل ، ولم تكن لديها ادنى فكرة عما يدور في ذهن (سيغموند) . اضطجع وذراعاه القويتان يطوقانها . وسمعت نبضات قلبه وتخيلتها مثل اصوات الطلقات النارية المكتومة ، واحست بدهشة الخوف والاثارة نفسها مختلطة باحساس الانتصار . لقد تغير (سيغموند) مرة اخرى وانقلب مزاجه . ولم يعد يتجول في ليل الافكار ، بل اصبح مختلفا مبهما بالنسبة لها . لم تكن لديها ادنى فكرةٍ عما يفكر او يحس به . كل ما عرفته انه كان قويا ، وانه يدق بالحاح بقلبه على نهديها ، كما لو كان رجلا يبغي شيئا ما ويخشى ان يرد . انى تأتى له ان يكون عجولا ملحاحا ؟ كان ذلك امرا حارت في فهمه ، وبدا لها هاجسا غامضا مبهما . ومع ذلك ، غمرتها السعادة ، وسر قلبها ، واحست بالانتصار والتجدد . ولكنها تساءلت بحزنٍ مرة اخرى ، اين (سيغموند) الذي كان معها قبل عشر دقائق ؟ . ونبض قلبها قليلا قليلا بلهفة كي ينخلع مرة اخرى بهلع . ان هذا (السيغموند) مبهم تماما . ومرة اخرى ، عندما رفع رأسه ووجد فمها ، ملأتها شفتاه بتدفق حارٍ مثل الشراب ، دفق ملتهب حلو في كل جسدها ، رائع الى درجة كأنها لم تكن سوى لهبا نارياً ورديا هشاً تسلط عليه للحظة او اثنين . ولقد استنتجت ان ذلك سمو فائق الروعة .

اختفت اضوية البيت الريفي الصغير في الاسفل ، وتلاشت البواخر التي تشبه بقعا صفر ، ولم يبق الا ضوء الميناء في الافق ، يشرقُ على سطح مياه البحر السوداء ، مثل قطعة نجم مكسور فوق رأسيهما ، كانت النجوم بلونها الرمادي الفضي ، وفي الاسفل يمتد اسوداد الليل والبحر الذي يشبه القطيفة .

وجدت (هيلينا) نفسها تدندن بمقطوعات من الشعر ، وهي تتأمل البحر ، وعندما رنت اليه عن قربٍ ، تلألأ البحر بسبب انعكاسات النجوم بلون يشبه الغبار .

صمتٌ عميق يخيم على الماء
وبلا حراكٍ يسكنُ البحر•

• هذه الاشعار وما يليها لبثها لورنس باصلها الالماني في متن الرواية ، ومعظمها يعود للشاعر الالماني (هنريخ هاينه) الذي ولد عام ١٧٩٧ وتوفي عام ١٨٥٦ . وتمثلُ اشعاره الغنائية مثل ديوانه (كتاب الاغنية) وصفاً طبيعياً حياً مع خليط من العاطفة والسخرية . ولقد أعدت بعض اشعاره موسيقيا من قبل (شوبرت) و (شومان) . ويظهر نثره فطنة لاذعة وادراكا نفاذا لمشاكل الحياة اليومية آنذاك .

كانت مغرمةً بشذرات الشعر الالماني التي تحفظها ، ولم تكن تحس بعاطفة تجاه الشعر الفرنسي ، ولكن يبدو وكأن (غوته) و (هاينه) و (اولاند) يتحدثون لغتها :

الهواء بارد ، والظلام بهيمٌ
وبكل سكينةٍ ، ينساب نهر الراين .

ولقد احبت (هاينه) اكثر من البقية :

كأحلام الاطفال ، اراها تتلألأ
في الامواج المصطخبة
تلك الذكريات القديمة ، لتقص علي من جديد
عن لعب الاطفال الجميلة
وعن كل هدايا عيد الميلاد البراقة

وعندما اضطجعت مرة اخرى بين ذراعي (سيغموند) – الذي كان ساكنا تماما ، يحلم بما لا تعرفه – برقت قطع شعرية مثل هذه ، واختفت كومض نجم ساقط فوق الماء ، وزحف الليل خلسة عبر السماء . وعلى نقيض النهار ، لم يصدر صوتا ، ولم يعط اشارة بل مر متخفيا فوقها ، حتى استبعد القمر للتقدم ، عندها جفلت السماء ناحية المشرق ، وتجمع حشد صغير من السحب حول البوابات المفتوحة :

من اقصوصة قديمة
تومي يد بيضاء ، وتغني وتتحدث
عن بلدٍ ساحرٍ عجيب

غنت (هيلينا) هذا الشعر لنفسها ، بينما رفع القمر نفسه من بين السحب . ووجدت نفسها تردده بصوت عالٍ وبنغمٍ رتيب ومترددٍ مثلما يفعل الاطفال .

خاطبها (سيغموند) قائلاً :

– «ما الامر ؟» .

كان كلاهما مستغرقا في سكونه الخاص ، لذلك مرت لحظة او اثنتان قبل ان تعيد ترتيب نغمها الرتيب بنبرة اعلى قليلا . لم يصغ اليها ، ونسي انه قد وجه لها سؤالا ، فقالت له عندما انهت تلاوة الشعر :

– «ادر رأسك ، وانظر الى القمر» .

اعاد رأسه الى الخلف مرة اخرى بحيث سقط شحوب مضيئ على ذقنه وجبينه ، وظلال سود عميقة فوق عينيه ومناخره . ولقد ادهش ذلك (هيلينا) باحساس من الغموض والسحر ، فقالت لنفسها نشيطة وسعيدة على نحو مثير :

- «الازهار الكبيرة تذوي عطشا*» . ثم اردفت :

«تتفتح الازهار الكبيرة ببتلات** فضية وسود يا سيغموند وانت الازهار الكبيرة يا سيغموند . وجهك وجه العريس ، مثل زهرة ذات بتلة لحمية متلألئة سوداء يا سيغموند ، وهي بترعم في ارض السحر ياسيغموند . فهذه هي بلاد العجائب» ! وبينما كانت تردد عبارات النشوة الهامسة هذه ، راحت تقبله على نحره في الظل ، وعلى خديه المتألقين على نحو باهت ، تمدد ساكنا ، وقلبه ينبض مهموما ، لقد كان خائفا تقريبا من النشوة الغريبة التي صبتها عليه . وفي الوقت نفسه ، همست له بعبارات حادة ، متقطعة الانفاس بالالمانية والانكليزية وهي تمسه بفمها وخديها وجبينها .

«وتصدح اغاني الحب* . . . ليس الليلة يا سيغموند . الكل ساكنون ، الرتم والنجوم والبحر والاشجار ، كل الاشياء تقبلك يا سيغموند ، البحر يضع فمه على الارض ، والرتم والاشجار ملتحمان معا ، والجميع يتأملون القمر ، ويرفعون وجوههم جميعا ليقبلونه يا عزيزي ، ولكنهم لا يمتلكونك ، وكل شيْ يتجمع فيك يا عزيزي ، كل الحب المدهش فيك ، اكثر مما فيهم جميعا ، يا سيغموند - يا سيغموند !»

احس بالدموع تتساقط عليه وهو مضطجع وقلبه يخفق بنبضات ثقيلة بطيئة من نشوة حبها . ومن ثم ، انحنت وانكبت عليه ، منهمكة ، ملتصقة به ، مرتفعة ومنخفضة بفعل حركة تنفسه الجميلة القوية ، متأرجحة بهذا الشكل على قوته ، ثم غطست في اغماءة هادئة .

عندما عادت الى وعيها ، تنهدت بعمق ، واحست بانفاس حياته الرقيقة في داخلها ، فقالت تخاطب نفسها ، وقد اتسعت عيناها من المتعة :

- « لقد كنت ما وراء الحياة . واقتربت كثيرا من الموت» .

واضطجعت مبهورة دهشة تفكر في انها قد عادت الى سعادة رائعة هادئة .

وفجأة ادركت انها لا بد قد ابتدأت تثقل حياة (سيغموند) فلقد طال الزمن بين ارتفاع نفس واخر . ذاب قلبها في رثاء حزين . فاستندت على يديها وقبلته . قبلة مؤلمة طويلة ، كما لو انها تصهر روحها في روحه الى الابد . ثم نهضت وتنهدت . وتنهدت مرة ثانية بعمق . وشبكت يديها على رأسها وتأملت القمر . وهمس قلبها كما لو انه يتنهد هو الاخر :

- «لا اكثر . لا اكثر» .

نظرت الى (سيغموند) الذي كان مستغرقاً في تنفسٍ ثقيل . واستقر ساكناً على ظهرهِ محملقاً فيها . بينما وقفت ساكنة الى جانبه تتأمله . شعر بالذهول وهو نصف واعٍ . ومع

* بالالمانية في الاصل

** البتلة : ورقة من اوراق التويج .

ذلك ، وبينما اضطجع ينظرُ اليها عاجزا ، كان بعض من وعيه الآخر يهمهم في داخله :
- «حواء يا أمنا» !

اطلت بحنانٍ من فوقه ، ومن دون ان تمسه ، بدت وكأنها تشفق عليه مثل ام . كان حنانها ولطفها يجعلانها مختلفة عن (هيلينته) الصغيرة . هذه المرأة طويلة وشاحبة ومنحنية بقوة عاطفتها ، وبدت ازليةً وليست كائناً بشرياً هشاً بل تجسيد للامومة العظيمة في النساء . وهمهم حالماً مثل طفلٍ يدمدم بلا وعي في نومه :
- «انا طفلها ايضاً» .

لم يشعر بعينيها بهذا القدر من قبل في الظلام عندما استغرق في ظلالها العميقة فقط . انها لم تدخل من قبل مطلقاًبهذه الطريقة فتجمع روحه الرجولية الكئيبة في حضن رعايتها ، ثم قالت بلطف عندما ادركت انه قد استعاد وعيه :
- «هل نذهب» ؟

نهض بصعوبة وهو يستجمع قوته .



١

الفصـــل الثاني عشر

بذل (سيغموند) جهداً هائلاً ليبقى مسيطراً على جسدهِ . وعندما نهض ، بدا منحدرُ التل والرتم ، وكأنهما يتراجعان الى غموضٍ مُظَلَلٍ من حوله . وكانت ثمة اكداسٌ معتمة عديمة المعنى بدت كبيرة جداً على مسافةٍ منهما .

وهمهم ذاهلاً مع نفسهِ :

- «لا استطيع الامساك بها» .

احسَّ انه منفصلٌ عن الارض وعن كل الاشياء الحبيبة الصلبة الحميمة ، كما لو ان هذه الاشياء قد ذابت بعيداً عنه ، وتركته مريضاً ، اعزلاً ووحيداً في مكانٍ ما على حافة فراغ هائل . اراد ان يضطجع مرةً اخرى كي يحرر نفسه من الجهد المقرفِ الذي يبذله في تثبيت جسدهِ والسيطرة عليه . آهٍ لو استطاع ان يضطجع مرة ثانية بسكونٍ ، لما احتاج عندها ان يصارع من اجل ان يُنشّطَ مادةَ جسمهِ المرهقة ، وبالتالي ، فلن يشعر بانه مريض وخارج نفسه على هذا النحو .

ولكن (هيلينا) كانت تتحدث معه ، وتخبره بانهما سيريان ممر القمر ، وانهما يجب ان ينزلا التل . احسَّ بذراعها يلتفُ حول خصرهِ بقوة ومتعةٍ ، فهنالك كان مستنده الدافئ ومستقره . واحسَّ (سيغموند) بتدفقٍ حميمٍ من التوقِ المشفق نحوها ، وهي تمشي طافية الاقدام الى جانبهِ ، محتضنة اياه بسعادةٍ غامرةٍ وغير واعية كلياً .

ولقد سحبته شفقته عليها اقرب الى الحياة .

كان يرتجفُ قليلاً بين الفينة والاخرى ، بينما كانا يتقدمان متمايلين وهما يهبطان التل . واطبق

فكيّه بقوةٍ كي يكتم ارتجافه . ولم يكن ذلكَ في اطرافهِ ، ولا حتى على سطحِ جسدهِ ، لان (هيلينا) لم تلحظ ذلك . ومع ذلك ، فلقد ارتجف متألماً تقريباً في داخلهِ ، وسأل نفسه مدهوشاً :

- «ما الأمر ؟» .

كانت افكاره تتكونَ من تلكَ العباراتِ المنفصلة التي كان يقولها شفاهاً لنفسه وبين فترة واخرى ، كان واعياً فقط باحساسٍ مرضي لا يطاق ، مثل رجلٍ يشعرُ انه قد أُخرج لتوهِ من تحت مخدرٍ ، على الرغم من احساسه على نحو غامضٍ بضجةٍ صاخبة من الحيوية في داخلهِ ، مثل تلكَ التي يسمعها المرء من خلية نحلٍ مغلقةٍ .

تأرجحا بسرعةٍ منحدرين من التل ، وكان (سيغموند) لا يزال يرتجفُ ، ولكن ليس بشكلٍ غير مسيطرٍ عليه . وصلا الى مَرْقىً كان عليهما ان يتسلقاه ، وعندما خطا فوقه احتاجَ الى جهدٍ ارادي مركزٍ كي يثّبت قدمه على المنحدر . كان الجهد هائلاً بحيث انه اصبح واعياً به ، وقال لنفسه :

- «يالله ! مالامر ياترى» ؟ .

حاول أن يفحص نفسه . احصى كل اعضاء جسدهِ ، عقله ، قلبه ، كبده . لم يكن ثمة الم . وليس هناك من عطبٍ في اي منها ، لقد كان متأكداً من ذلك . وبدد بحثه المعتم نفسه الى عبارةٍ منفصلة اخرى ، فردد مع نفسه«انا لا اعاني من شيء» . ثم استمر هائماً ، مستعيداً الاحساس بالمرض المرهق الذي يتبع في بعض الاحيان الافراط في الشرب ، ومفكراً في الاوقات التي سقط فيها مريضاً ، وهمس لنفسه :

- «ولكني لست كذلك . لاني لا اشعر بالارتجاف ، وانا متأكدٌ من ان يدي ثابتة» .

وقفت (هيلينا) ساكنة كي تستدل على الطريق . مدَّ يده الى امامه ، فكانت ساكنةً مثل زهرة ميتةٍ في ذلك الليل الصامت . وقالت له (هيلينا) :

- «نعم ، اعتقد ان هذا هو الطريق الصحيح» .

وابتدأ المشي ثانيةً كما لو انهما مبتهجين .

وقال (سيغموند) لنفسه :

- «ان الامر يبدو مهلكاً بالتأكيد» . وتذكر بطريقةٍ واضحةٍ عندما أُصيبَ بالخناق وهو طفل ، حيث أُجهدتْ نفسه في المٍ فظيع ، حتى احسَّ – وهنا اختار الكلمة الفرنسية – بالاحتضار . ولكن امه اكتشفت ذلك فصرخت بصوتٍ عالٍ مما جعله يصارع على نحو مفاجئٍ بكل روحه كي يتخلص من معاناتهِ . وهمهم مع نفسه :

- «إنَّ الامر مثل ذلك بالتأكيد . انه لمهلكٌ بالتأكيد . ياترى ما كنهه» ؟ .

ومن ثم ، استعرض ماحدث له خلال الساعة الاخيرة ، ولكن (هيلينا) قاطعته قائلةً :

- «اعتقد اننا اضعنا الطريق» .

فاجابها لا مبالياً :

«ضعنا ! وماذا يهم» ؟

وسحبته (هيلينا) اليها في نوع من الانتصار فاضاف قائلاً :

- «ولكن الم نأتِ من هذا الطريق» ؟

كان صوتها رناناً ممتلئاً بعاطفةٍ محتبسةٍ عندما ردت :

- «لا ، انظر ، اننا لم نسلك بالتأكيد هذا الممر العاري الذي يعلو وينخفض» .

- «حسنٌ اذن ، يجب علينا ان نستمر نحو الشرق باتجاه نبع القمر الجميل قدر استطاعتنا» . قال (سيغموند) وهو ينظرُ الى التلال الممتدة امامه حيث كان القمر يتصارع بشجاعةٍ كي يحرر نفسه من حزمةٍ من السحب التي كانت تُطبق عليه مثل ذئابٍ على غزالٍ ابيض . وبينما كان يتأمل القمر احسَّ بشعورٍ من الرفقة . اما (هيلينا) التي لم تفهم ذلك ، فلقد تركته وحيداً ، اذ كان القمرُ عندها اقرب اليه .

استمر (سيغموند) باستعراض الساعات الاخيرة . كان سعيداً على نحو مدهشٍ ، فلقد امتلأ العالم بسحرٍ جديدٍ ، جليل مهيب مدهشٌ احسَّ بهِ للمرة الاولى ، ولقد ظلَّ لساعات طوالٍ يتجولَ في عالم بدائي رائعٍ آخر ، قائلاً لنفسهِ :

- «اعتقد اني قد عشتُ حياةً ممتلئةً . اذ يبدو وكأني استضفتُ النجوم والقمر وكل شيءٍ آخر . امّا الان وقد انصرف الجميع ، فلقد اصبح بيتي مهجوراً !» . لذلك فلقد تصارع مع نفسه كي يُميّز حالة الاشراق والمرض الذي تنتابه واستعرض ساعات حبه مع (هيلينا) ، وخاطب نفسه قائلاً :

- «بالتأكيد ، لقد تجرعت الحياة حارةً جداً ، ولقد اضرَّ ذلك كوبي ، إنَّ روحي لتنزف على ما يبدو - فانا نصفٌ هنا ونصف اختفى ، وهذا هو السبب الذي يجعلني افهم الاشجار والليل بهذهِ الطريقة المؤلمة» .

ومن ثَم ، وصل الى ساعة نشوة (هيلينا) عليه ، ولقد ملأه ذلك بطريقةٍ ما ، بحزنٍ حنون . كان فَرَحاً مركزاً في قطرةٍ واحدةٍ لاذعةٍ ، لذلك فإنَّ ما كان يُفترضُ به شراباً منشطاً تحول الى سم زعاف مُرّ ، ولكن وعيه ، الذي كان نشيطاً على نحو استثنائي ، اصبح متبلداً الآن . واحسَّ بالدم يتدفقُ بعنفٍ على امتدادِ اطرافه مرة اخرى ويسكنُ مخه ، فيكنسُ في طريقةِ مرضه ويشفيه . وهمهم مع نفسه للمرة الاخيرة :

- «افترضُ ان عيش حياة ممتلئة يقتل المرء بطريقةٍ او أُخرى .» .

ثم نسيَ (سيغموند) بعد ذلك كل شيْ . فتح عينيه فرأى الليل يلفه ، ولقد هرب القمرَ من حزمة السحاب ، وها هو يشع خلف غلالة رقيقةٍ كانت تتلألأ باشعتهِ ، مزخرفةٍ بهالةٍ براقة كبيرة جداً ، بل اكبر هالة رآها (سيغموند) على الاطلاق . وعندما اصبح الممر الصغير بمواجهةِ القمر تماماً . بدا وكأن (سيغموند) ، و (هيلينا) سيجتازان قوساً من الطراز المغربي كبيراً يشبه حدوة الحصان بينما تنفرجُ الهالة البيضاء الكبيرة امامها استمرا في المشي ، ميممين وجهيهما شطر القمر ، مبتسمين بدهشة ونشوة واهنة ، حتى انعطفَ الممر الصغير مرة اخرى معانداً ، فاصبحا يتمشيان باتجاه الشمال . شاهدت (هيلينا) ثلاثة اكواخٍ تجثم تحت التلِ وبين الاشجار كي تُخفي نفسها من سحر ضوء القمر ، فقالت منتصرةً :

– «اننا لم نسلك هذا الطريق من قبل مطلقاً» .

ولقد ادهشتها فكرة ضياعها .

نظر (سيغموند) من حوله الى التلال الرمادية الملطخة ببريقٍ معتم منخفضٍ من ضباب القمر . ولم يستطع حتى ذلك الوقت ان يدرك بانه كان يمشي عبر ممرٍ في جزيرة (وايت) اذ بدا ما يحيطُ بهِ وكانه يعود الى حالةٍ ما وراء التجربة الاعتيادية ، مكانٌ ما في قصص المغامرات العاطفية . او بين التلال حيث تضطجع (برونهايلد)* نائمةٌ في هالتها النارية البراقة الكبيرة . فكيف يمكنُ انه وهيلينا ، وهما طفلان من لندن ، يتجولان بحثاً عن بيتهما في جزيرة منعزلة ؟ تنهد ونظر مرة اخرى الى قمم التلال ، حيث كان ضوء القمر يتركزُ في اثير ضبابي هش لكنه قوي في الوقت نفسه . مذكراً اياه بالطريقةِ التي لا بد تصلب بها (المَن) من ضباب ضوء القمر الابيض في الصحاري العربية .

قالت (هيلينا) :

– «اننا قد نكون في طريقنا الى (نيوبورت) . فالمسافة هي عشرة اميال» .

ضحكت غير مهتمة على الاطلاق بوجهة سيرهما ، سعيدة بهذه الرحلة المدهشة ! فها هي وسيغموند وحيدان في وحشة الليل المتلألئة خلف النهارات المسكونه والليالي ! . نظر (سيغموند) اليها . انه لا يشاركها بهجتها باي حال من الاحوال . الا انه يتعاطف معها . استمر في المشي وحيداً مستغرقاً في جديته العميقة التي لم تكن شاعرةً بها ، ومع ذلك ، وعندما لاحظ تخليها عنه . سحبها اقرب اليه . فرق قلبه بشوق واقٍ نحوها . واصبح مهموماً بمسؤوليته تجاهها .

تنفست الحقول عطراً كما لو انها عادت الى الحياة مع قدوم الليل . وابتدأت تتحدث

---

* برونهايلد : البطلة الاسطورية للعديد من القصص الخرافية وخصوصاً الاسكندنافية القديمة مثل (آيدا) في قصة (مغامرات فولسينكا) وقصص آخرى .

بشوقٍ ذكي الرائحة ، وتجمعت المزارعُ لتنام مع بعضها ، وسحبت الظلال المظلمة فوقها لكي تختبأ من الليل الابيض الغريب . كانت الاكواخ مقفلة ومظلمة . وتجولت (هيلينا) بانتصار خلال الارض الليلية الساحرة ، باحثة بخفةٍ عن الارواح ، مراقبةً الاكواخ التي كانا يقتربان منها ، مصغيةً ، باحثةً عن احلام اولئك الذين ينامون داخلها في الغرف المظلمة ، وتخيلت انها تستطيع رؤية وجوه الاحلام الهشة وهي تطلُّ من الشبابيك ، وتوهمت انهم يسترقون النظر بتهيبٍ الى الحديقة ، ورأت الاحلام تركضُ بين الارانب على سفح التلِ المتلألئ . ضحكت (هيلينا) لنفسها ، مسرورة بولعها ، باحلامها الصغيرة العنيدة ، عابثةً بيدين وقدمين واهنتين بين قطعان الماشية الكبيرة الراقدة بوقار . كانت هذه هي المرة الاولى ، قالت لنفسها ، التي تكون فيها لوحدها بين الاحلام المتشحة باللونِ الرمادي والجنّيات ذات الاذرع البيض . تخيلت نفسها نائمة في غرفتها ، بينما كانت احلامها تنزلق مع شعاع القمر ، وتخيلت (سيغموند) نائماً في غرفته بينما كانت احلامه غامقة العيون ، عيونها زرق عميقة جداً ، ممتلئة بالشوق الليلي ، تتجول باحثة في العشب الرمادي عن احلامها .

وهكذا نسجت اوهامها بينما كانت تمشي . وكانت مسرورةً لم يذكرها الاّ تعبها الشديد من انها قد ابتعدت كثيراً ولمسافة بعيدةٍ . كان ذراع (سيغموند) يلتف من حولها ليسندها ، واسترخت عليه . عبرا مَرْقىً ، وميزا على يسار الطريقِ مقبرة الكنيسة الكاثوليكية . أشرق القمر الذي قشرته الايام وصغّرته بسكينٍ قاسيةٍ حسود على الصخور البيض في ارض المقبرة ، وكان المسيح المنحوت فوق صليبه معلقاً في السماء الرمادية الفضية . رفعت (هيلينا) رأسها الى الاعلى مجهدةً ثم انحنت على مشهد المأساة ، وكذلك نظر (سيغموند) واحنى رأسه .

– «ثلاثون عاماً من الحب الجاد ، حياةً امتدت لثلاث سنواتٍ مثل نشوة الحب ، وقد انتهى كل شيء . كان عظيماً جداً ومدهشاً ، اما انا فضئيل وسوفُ اموتُ منسياً ، ولكننا متشابهين : الحبُّ والنشوة القصيرة والنهاية . ولكن حبي وردةٌ واحدة . اما حبه فكل الجمال الابيضُ .» .

احسَّ (سيغموند) بقلبه مُثقلاً جداً ، حزيناً ومذنباً في حضرة المسيح ، ومع ذلك فلقد استقى راحة من شعورهِ بان الحياة تعامله بالطريقةِ التي عاملت بها المسيح على الرغم من وضاعة وحقارة مصاعبة عندما تقارن بمأساة المسيح . خطا (سيغموند) بخفةٍ الى ظل ايكة الصنوبر وفكر مع نفسه :

– «دعني استكنِ تحت غطاء ، دعني اختفِ تحته ، فذلك مناسبٌ لي ، الظلام الكثيف البهيم . فانا ضئيلٌ وتافهٌ . ومأساتي صغيرة تافهة» .

تقلصت (هيلينا) في الظلام . فلقد ازعجها الامر تقريباً ، والصمتُ مثل حفرةٍ عميقةٍ

ارتدت باتجاه (سيغموند) ، فجرها اقرب اليه منحنياً فوقها بينما كانا يتمشيان محاولاً طمأنتها . كان قلبه مثقلاً بشوقٍ يقترب من الحزن ، من اجل (هيلينته) الصغيرة الشجاعة .

همس لها .

- «هل انت متأكدة من انه الطريق الصحيح ؟» .

فردت هامسةً واثقة من جوابها :

- «نعم ، متأكدة تماماً» .

وفي الحال خرجا تحت ضوء القمر الضبابي وأبتدآآ يتعثران منحدرين من سفح التل . كان كلاهما تعباً جداً ، ووجد كلاهما ان من الصعب الاستمرار بيسرٍ واطمئنان في هذا الطريق الحاد الهابط نحو الاسفل وسرعان ما كانا يزحفان بحذرٍ عبر المرعى وحقل الدجاج . كان قلب (هيلينا) قد ابتدأ ينبض عندما تخيلت اية ضوضاء بهيجةٍ ستصدرها الدجاجات ان هما اوقظوها ، كانت ضجرة من اية فوضى او تساؤل في هذا الليل ، لذلك فلقد تسللت بهدوء حتى وصلا الى الطريق العام ، ليس بعيداً عن بيتهما .



الفصل الثالث عشر

في الصباح ، اتكأ (سيغموند) بعد الاستحمام على السور البحري مستغرقاً في نوعٍ من احلام اليقظة ، كان الوقت متأخراً يقترب من الساعة التاسعة . ومع ذلك ، فلقد كان يتسكع حالماً متأملاً الماء الفيروزي الازرق وضباب الصباح الابيض وظلال البواخر الشُقر الصغيرة التي تجر متمهلةً امامه . وفي الخليج ثمة سفينتان حربيتان مثل وحشين بليدين يضطجعان بسذاجةٍ وفضول اشبه بأسدي بحرٍ ضالين .

كان (سيغموند) يحملقُ في البحر بطريقةٍ نصف بليدةٍ عندما سمع صوتاً بجانبه يقولُ .

– «اتعرفُ من اين جاءت هذه ياسيدي ؟» .

عندما استدار رأى رجلاً هزيلاً اشقر في الخامسة والثلاثين من عمرهِ واقفاً بجانبه يبتسم بوهن لمرأى السفن الحربية ، فرد (سيغموند) قائلاً :

– «اتعني سفن الحرب ؟ . هنالك العديدُ منها في (سبتهيد) .» .

القى الثاني نظرة عابرة على وجهه وقال :

– «انها تبدو نشازاً ، الا تعتقد ذلك ، ؟ لقد تركنا البحر فارغاً ومشرقاً . وعندما عدنا ثانيةً شاهدنا هذه الاشياء تحملق فينا !» .

ضحك (سيغموند) وقال مازحاً :

– «أملُ انكَ لست فوضوياً ؟» .

ضحكَ الآخرُ وردَّ قائلاً :

– «عدميٌّ ربما ، ولكني مغرمٌ جداً بالقيصر ، هذا اذا كان الرثاءُ قريباً من الحب . لا ،

ولكن لا يمكنكَ الاستدارة من دون ان تجد شرطياً او آخر عند مرفقك . انظر اليهم ، تجارةُ حديدٍ كريهةٍ ! ، احدهم مستعدٌ دائماً ان يضع يده على كتفك» .

القت عينا المتحدث الزرقاوان الرماديتان ، الذي كان يضحكُ متهكماً باستمرار ، نظرةً على السفن الحربية ثم اضاءتا على عيني (سيغموند) الزرقاوين الغامقتين . احسَّ الاخيرُ بقلبه يرتفع في حركة متشنجةٍ ، فهذا الغريبُ يتجه بسرعةٍ نحو نوعٍ من الحميمية المزعجة . ولقد دفع شيءٌ ما (سيغموند) الى القول :

– «افترضُ اننا في رعاية الله» .

قلص الغريبُ عينيه قليلاً بينما كان يحملقُ بعمقٍ في المتحدث ثم تشدق قائلاً بفضول :

– «آه ! .» ثم تجولت عيناه فوق شعر (سيغموند) المبلل وجبينه الابيض ونحره العاري ، ثم عادتا بعد ذلك مرةً أخرى الى عيني محدثه وسأله في النهاية :

– «هل ابحر القيصر عبر هذا الطريق ؟» .

اجاب (سيغموند) الذي انزعج من نظرة الثاني المخترقة ، ولانه لم يكن يتوقعُ سؤالاً متبذلاً مثل هذا :

– «لا اعرف !» .

وردَّ الرجل :

– «اتوقع ان تخبرنا الصحف عن ذلك» .

فقال (سيغموند) :

– «بالتأكيد» .

– «الم تره هذا الصباح ؟» .

– «لا . منذ السبت» .

اتسعت عينا الرجل الزرقاوان الناعمتان ونظر بفضولٍ الى (سيغموند) :

– «هل تقضي عطلتك وحيداً ؟» .

– «لا» .

ولم يعجب (سيغموند) ذلك ، فحملق في البحر منزعجاً .

– «انا اعيشُ هنا ، في الوقت الحاضر على الاقل ، واسمي هامسن» .

سأله (سيغموند) :

– «الست واحداً من عازفي الكمان الاوائل في (السافوي) قبل خمسة عشر عاماً ؟» .

ثرثرا قليلاً بشأن الموسيقى ، وظهر انهما يعرف أحدهما الآخر وكانا صديقين حميمين تقريباً ، ولكنهما افترقا واصبحا غريبين منذئذٍ ، ولقد برر (هامسن) حديثه مع (سيغموند)

قائلاً :

- «رأيتك وانفك مسطحٌ على زجاج الشباك كما هو وضع انفي تماماً ، فتخيلت اننا متناسبان كي نتعارف ثانيةً» .

نظر (سيغموند) الى الرجل بدهشةٍ .

«ماقصدته هو انك كنت تحملقُ في الفراغ بشكلٍ جاد . إنَّ من المحزن ان تحملق خارج يوم جميلٍ مثل هذا بهذه الطريقة . الا تعتقد ذلك ؟» .

فسأله (سيغموند) :

- «أتعني احملقُ ما وراءه ؟» .

فاجاب الآخرُ بضحكةٍ ذكية :

- «بالضبط . اني أسمّي يوماً مثل هذا بالغرفة الزرقاء ، انه أقلُ الاماكنِ عرضة لتيارات الهواء في بيت الحياة المشوش المعرض لتيارات» .

نظر (سيغموند) اليه بانتباه شديد . إنَّ (هامسن) هذا على ما يبدو يعبر عن شيٍ ما في سويداء قلبه .

وشرح الرجل :

- «ما اعنيه ، هو ان بعد كل شيْ ، فإنَّ كتلة الحياة العظيمة ستنتهي في وقت ما ، وان ما نسميه نحن بالموت يزحف خلال غلاف النهار الازرق وخلال نسيجنا الابيض ، ونحن لا نستطيع ايقافه ما إنْ نبتدأ بالنزيف» .

فسأله (سيغموند) :

- «وما الذي تعنيه بالنزيف ؟» .

- «الله اعلم ، اني ارجم بالغيب ، ولكنك ما ان تضجر من البيت قليلاً حتى تلصق انفك بزجاج الشباك وتحملقُ في الظلام مثلما كنتَ تفعل» .

وردَّ (سيغموند) :

- «ولكن اذا استخدمت مصطلحاتك ، فانا لست تعباً من البيت اذا كنت تعني به الحياة» . فقال الغريب وهو يرجع رأسه الى الخلف بابتسامةٍ برّاقة وقد اتسعت عيناه :» .

- «الحمد لله ، لقد التقيت شاعراً لا يخافُ ان يسرق جيبه او روحه او عقله» فقال (سيغموند) بهدوء تام ، بينما ثمة خوف شديدٍ ودَهَش يعارض احدهما الآخر في قلبه :

- «لا اعرف ما تعنيه ياسيدي» .

- «انك لست تعباً من البيت ، بل من غرفتك ا...

فردَّ (سيغموند) وقد بدت على وجهه علامات

– «غداً سأطرد من هذه الغرفة الزرقاء ؟» .

فنظر اليه الآخر بجديةٍ وهتف :

– «يا آلهي ! ، هل تتذكر قديس فلوبير الذي نام عارياً على ابرص ؟ لم أكن استطيع فعل ذلك» .

وارتجف (سيغموند) وقال :

– «ولا انا» .

– «ولكن عليك ان تفعل شيئاً من هذا او ما يقارب .» .

نظر (سيغموند) الى الآخر بعينين خائفتين مرتعبتين وقال له مستاءً :

– «ماذا بشأنك ؟» .

– «لقد تهربت ، هربت من ابرصي ، وانا الآن آكل قلبي ، واحملقُ من الشباكِ في الظلام» .

فقال (سيغموند) :

– «ولكن اليس بامكانكَ ان تفعل شيئاً ؟» .

ضحكَ الرجل الآخر بمتعةٍ وهو يرجع رأسه الى الخلف ويكشف عن اسنانه ، وقال بتهكم رقيقٍ في نبرته :

– «لن اسألك عن نواياك ، فمثلما تعرفُ اني رجلٌ مشغولٌ جداً ، اكسب خمسمائة باوند في السنة بعرق جبيني ، ولكن هذا لا ينفع ، فاذا كنت قد الفت حب الحياة الممتلئة» ، فانك لن تستطيع التخلي عن ذلك ، واقصدُ بذلك التجربة الروحية الحية ، انها تعيش معنا في المغامرة القديمة والاثارة الجسدية» .

نظر (سيغموند) الى الرجل الآخر بعينين حائرتين مرتبكتين وقال له :

– «حسنٌ ، وماذا بعدئذٍ ؟» .

– «ماذا بعدئذٍ ؟ . إنَّ التوق الى الحياة الممتلئة مهلك تقريباً ، مثله مثل أي توق آخر ، اذ انك ستصبح عندها متوقداً ، تغذي هيبك الاعتيادى بالاوكسجين فيفترس نسيجك . الا ترى ان السيدات العاشقات الروحانيات شبه شفافات دائماً ؟» .

ضحك (سيغموند) قائلاً :

– «على الاقل انا معتمٌ تماماً» .

القى الآخر نظرةً على جسمه الناضج المرتخي ونحره الوافي وقال له :

– «ليس تماماً ، فأنت على ما اعتقدُ امرؤ على وشك ان ينطفئ هيبه . عندما تفتقدُ المحفِّز» .

نظر اليه (سيغموند) مرة ثانية مجفلاً ، بينما استمر الرجل في حديثه .

– «ليس لديك خزينٌ كثير ، فانت مثل شجرةٍ تظل تزهرُ حتى تقتل نفسها . ستظل تركضُ حتى تكبو ، وعندها لن تنهض مرة اخرى ، اذ ليس لديك عقل محايد يسيطر عليك ويقتصد» .

قال (سيغموند) ضاحكاً بسخريةٍ تقريباً ، ولم يعجبه الامر :

– «انك تخبرني بصراحةٍ تامة عمن اكون او لا اكون» .

فاجاب (هامسن) :

– «اوه ، هذا ما اعتقده فقط . اننا متشابهان بقدرٍ كبير كما ترى ، ولقد سلكنا الطريق ذاته انت تزوجت وانا لم افعل ، ولكن النساء فعلنَ بي ما اردن» .

وردَّ (سيغموند) :

– «ولكن ذلك ليس صحيحاً تماماً في حالتي» .

فحملق (هامسن) فيه وقال :

– «قل امرأة واحدة ، هذا يكفي» .

حَدَّقَ (سيغموند) متأملاً البحر بينما استمر (هامسن) قائلاً :

– «ان افضل انواع النساء – واكثرهن امتاعاً – هُنَّ الاسوء بالنسبة لنا . اذ انهن يهدفن بحكم الغريزةِ الى كبت الفظاظة والحيوانية فينا ، ومن ثم ، فإنَهنَّ حساسات اكثر من الاعتيادي . – منقيات اكثر قليلاً من الجنس البشري – . اما نحن ، الاكثر فظاظة من اللازم فنصبحُ صنائعهنَ . إنَّ الحياة متجذرةً فيهن مثلما الكهرباء في الارض ، ونَحن نأخذ منهن حياتهن المبهمة فنحولها الى ضوء او دفء او قوة لهن . ان المرأة العادية لوحدها قوة كامنة هائلة ، نوع من البطارية اذا احببت ان تسميها ، تشحنُ من مصدر الحياة ، وفينا تصبح قوتها واضحة .

إنَّ المرأة لا تستطيعُ العيش من غيرنا ولكنها تدمرنا ، ان اولئك النسوة الكتومات المثيرات لا يردننا نحن ، بل يردن أزاهير الروح اللاتي يستطعن أن يجنينها . اما نحن ، باعتبارنا رجالاً أسوياء ، فنحن نحطُّ من قدرهن بطريقة او اخرى . ومن حبهن لنا ، لذلك فإنهنَّ يحطمن الانسان السوي فينا . هذا ما نحن عليه تقريباً سأله (سيغموند) مقلّلاً من شأنه :

– «انك صريح قليلاً ، اليس كذلك ؟» .

لم يكن (سيغموند) يخالف صديقه الرأي ، ولكنه لم يخبره ايضاً ان مثل هذه العبارات تظل اعتباطيةً . وضحك (هامسن) قائلاً :

– «ان ذلك يعتمدِ على امتلائي . فاني استطيع ان افتح السماء الزرقاء بنظرةٍ وارجع

ابواب النهار الى الخلف وانظر – والله يعرف ما أرى . وفي أحد هذه الايام سأتسللُ عبر الباب . اوه . انا سليم العقل تماماً ولكنني اكافح ما وراء نفسي فقط» .

فقال (سيغموند) :

«الا تعتقدُ ان من الخطل ان يصبح المرءُ هكذا ؟» .

– «اني اعتقد كذلك . مثلما يعتقدُ اي امرءٍ اخر ، ولكن الناس يستفيدون من امثالي في النهاية . وعندما يفهمون موسيقاي . ستكون تلك تثقيفاً لهم ، فغرض الجنس البشري هو ان يجعل الحياة مفهومة» .

تأمل (سيغموند) ذلك قليلاً وقال ببطء :

– «انك تجعلني اشعر كما لو اني مطلق الاسار وبعيداً جداً عن نفسي» .

ابتسم الشاب . ثم نظر باتجاه الجدار ، حيث كانت يداه تستقران بيضاوين هشتين مظهرتين عروقاً زرق وقال :

– «يصعب ان اصدقَّ انهما يداي . اذا نهضتا وانكرتاني فيجبُ الا أتفاجأ بذلك ، ولكن اليستا جميلتين» ؟

نظر بابتسامة باهتة الى (سيغموند) .

نقل (سيغموند) بصره من يدي الغريب الى يديه اللتين تستقران مقوستين على سور البحر كما لو انهما نائمتان . كانتا صغيرتين بالنسبة لرجلٍ في مثل قوامه ، ولكن وهما مضطجعتان دافئتان في الشمس بدتا ممتلئتين بالحياة بشكل خاص . وعلى نحو غريزي وبدقة من حُبٍّ الذات اغلق يديه فوق ابهاميه .

قال (هامسن) بهدوءٍ وبمرارة غريبة :

– «اني لَدهِشٌ من انها لا تستطيعُ الاحساس بذلك ، ودَهِشٌ لانها لا تهتمُ بك ، فأنت ممتلئٌ وجميل الجسد . فلماذا تعملُ على تدميرك عندما تكون قد احببتك بهذهِ القوة» ؟

نظر (سيغموند) اليه بعينٍ ممتلئة بالرهبة . بينما ضحك الرجلُ الهش الناعم فجأةً بعينيه الحيتين الممتلئتين وقال :

«يا لهن من حمقاوات اولئك النسوة . امّا ان يدمرن بلوراتهن . او انها تدور فيعتم لونها وتقفزُ بعيداً عن ايديهن . انظر الي لقد تنازلت الى ادنى حدٍ . ولكن رقبتك غليظة مشحونة بالحياة . انها ساق ممتلئة بالحياة تستطيع ان تقف بمفردها . انا متأسف جداً» .

توقف عن الكلام في الحال . كان اليأس المرُّ في نبرته هو صوت الاحساس الثقيل نفسه الذي استشعره (سيغموند) على نحو مبهم خلال الاسابيع القليلة . واحسَّ (سيغموند) بطعم الموت . فضحك محاولاً نسيان الامر بينما قال (هلمسن) باسف :

– اتمنى لو اني لم استطرد على هذا النحو في الحديث ، واتمنى ان اكون طبيعياً . يالحرارة الجو ! ، يجب ان ترتدي قبعة فالدنيا حارة حقاً» . ثم فتح قميصه الصوفي ، فقال (سيغموند) :

– «انا احب الحرارة» .

– «وانا كذلك» .

وفي الحال ، صفَّفَ الشاب شعره الطويل على جبينه ثم انحنى مبتسماً بطريقته الحية وتوجه ماشياً بمتعة الى القرية .

وقف (سيغموند) مثل المشدوه للحظة . وبدا الامر له مجرد حلم مزعج ، ثم تنهد بعمقٍ كي يحرر نفسه من الالم ، ومضى يبحث عن (هيلينا) .



الفصل الرابع عشر

في حديقة اشجار الورد السامقة وازهار (قرة العين) ، كانت (هيلينا) تترقبه مرة اخرى . كان الوقت قد تجاوز الساعة التاسعة . وابتدأ صبرها ينفد . ولكنها مع ذلك . وجدت متعة هائلة في كُتيِّب شعري اشترته من شارع (سانت مارتن) ببنسين .

ضربت الأنثى طائراً اسودَ متأخراً اشعثاً بجناحيها
بينما كانت تطير . عبر الفرجة المعتمة في الغابة .

هذا ماقرأته . واصدرت صوتاً فَرِحاً فضولياً . وذكرت لنفسها أنَّها تجدُ هذه الاشعار رائعةً جداً . ولكنها ظلّت تراقبُ الطريق بانتظار (سيغموند) .

ثم التقطت المقصَّ في ابهامها
لن يدخل بعد الان عشي
فهمهمت لنفسها :

- «هم ! لا اعرفُ حقاً إنْ كنتُ سأحُبُ ذلكَ ام لا» .

قرأت بعد ذلك المقطوعة مرة اخرى قبل ان تلتفت الى الطريق .

«لقد تأخر كثيراً . ان من السخف ان أُفكر انه ربما يكون قد غرق . ولكن اذا كان يغتسل في قاع البحر . فان شعره سيتناثر وفق الماء» ! .

وتوقف قلبها ساكناً عندما تخيلت هذا .

ولكن اي هراء هذا ! اني أُحُبُّ هذه الاشعار كثيراً . وسأنشدها وانا اتمشى على الممر

الجانبي حيث سأصغي الى طنينِ النحلِ وأُمسكَ برفيف اجنحةِ الفراشات المبثوث بين الكلمات . ان هذه لطريقة مناسبةٌ جداً لقراءة هذا الشعر» .

وهكذا تمشت على مهلٍ باتجاه البوابة وهي ترفعُ عينيها بين لحظة واخرى . كان (سيغموند) عندها قادماً والمنشفةُ معلقةٌ على كتفه ، ونحره عارٍ ووجهه مُتلألئ . وقفت في الظل مبرقش الالوانِ ، فخاطبها (سيغموند) قائلاً :

- «لقد تركتكِ تنتظرين» .

ولكنها لن تعترف بنفاد صبرها فردت قائلةً :

- «لقد كنت اقرأُ كما ترى» .

فرد قائلاً :

- «وانا كنتُ اثرثر» .

فهتفت بانزعاجٍ خفيفٍ :

- «تثرثر ؟ هل عثرت على صديقٍ هنا» ؟

- «انه احد زملائي . كان صديقاً حميماً ايام كنتُ اعزفُ في (سافوي) ، ولكنه جعلني اشعر بالاغماء الآن . فهو يعاني من ازدواج الشخصية» .

نظرت اليه (هيلينا) برشاقةٍ وفضولٍ وقالت له :

«بايةِ طريقةٍ» ؟

- «لقد اظهر كل المخبأ في البئر . إنَّ ما قاله يبدو هراءً الآن . فالبحر يشبه نبات (مكحلة الحقول) وثمة سفينتان حربيتان تتلكآن في الخليج . وبامكانكِ سماع اصوات الرجال على ظهر السفينة بوضوح . هل وضعتِ خطة لقضاء النهار ؟» .

دخلا المنزل لتناول الفطور . وراقبته وهو يمدُّ يده لاناء السلاطة الملونة بالقرمزي والاخضر . وقالت بنبرةٍ هشةٍ :

«كانت السيدة (كيرتس) رؤوفةً بي هذا الصباح . اوه . رؤوفة جداً» .

تقلص (سيغموند) الذي كان في مزاجٍ سعيد دافئ وسألها :

- «ماذا . هل ذكرت لك شيئاً ما بخصوص ليلة امس» ؟

ولكن (هيلينا) استمرت بالنبرةِ المتهكمة الحميمة نفسها التي اظهرت انها كانت تحاول تخليص نفسها من احتقارها لذاتها .

كانت قلقة جداً بشأني . خائفة من ان حدثاً سيئاً قد وقع لي» .

فرد (سيغموند) ساخراً ايضاً :

- «الأننا لم نرجع حتى الساعة الحادية عشرة» ؟

- «يجب الاّ افعل ذلك مرة اخرى . اوه ، يجب الا افعل ذلك مرة اخرى حقاً» ! .

فسألها :

- «اخوفاً من اقلاق راحة السيدة العجوز» ؟

فاجابته :

- «انت تعرفُ يا عزيزي ان الامر يزعجني كثيراً . . ولكني لو كنت امك ، ماكنت اعرف كيف اشعر عندئذٍ» .

فردَّ (سيغموند) :

- «إنَّ المرءَ عندما يستأجرُ غرفةً لا يشترطُ في العادة وجود زوجة اب توقظُ ضميره» .

ضحكا معاً مُحوّلين الموضوع الى نكتةٍ ، ولكن كليهما حساسٌ جداً ، فتلوى (سيغموند) داخل نفسه باحتقارٍ ، وتحدثت (هيلينا) كما لو ان اسنانها كانت مطبقةً وقالت :

- «انا لا اهتم البتةَ ، فللمرأةِ العجوز المسكينة افكارها ولي افكاري» .

اطال (سيغموند) التفكير قليلاً ثم هتف بمرارةٍ :

- «اعرفُ اني جبانٌ اخلاقياً» .

فاجابته : «هراء» ! ! ثم اضافت بانفعالٍ واهنٍ :

«كما لو انك تشعرَ بحاجتك الى التبرير» .

فضحك بمرارةٍ وقال لها :

- «دعيني اخبركِ : ان أمراً صغيراً مثل هذا . يبقى ملتفاً بشدةٍ حول شيءٍ ما في داخلي . يذكرني لساعات ، عن فكرة كل شخص آخر عني» .

ضحكت (هيلينا) بحزنٍ وقالت له :

- «كنتُ اظن انك متأكد من اننا على صواب» .

جفل مرة اخرى وقال :

- «انا كذلك في داخلي ، ولكن في عيون الناس . . .»

فقالت له بقسوةٍ :

- اذا كنت تشعر كذلك في قرارة نفسك . افلا يكفيك ذلك» ؟

رفع رأسه وادار ببطءٍ منديل المائدةِ وسألها :

- «وما هي نفسي» ؟

فردت بضحكة مُرة :

- «لا شيءَ على وجه التحديد» .

خيّم الصمتُ بينهما ، ثم نهضت بعد ذلك واتجهت بشوقٍ نحوه . وشبكت ذراعيها حول

عنقه وخاطبته قائلةً :

- «هذا يومنا الرائقُ الاخير ياعزيزي» .

اكتسحته موجة حب كنست كل شيْ فاحتضنها بين ذراعيه . . .

قالت (هيلينا) بينما كان يستعدان للخروج .

- «سيكون يوماً حاراً» .

فاجابها :

- «لقد احسستُ ان الشمس كانت تبخرُ في شعري عندما وصلت» .

- «سارتدي قبعةً ، ومن الافضل ان تفعل الشيْ نفسه» .

فقال لها :

«لا ، لقد اخبرتكُ اني اريدُ ان انقع في الشمس ، واعتقد اني سأحصلُ على بغيتي الآن» .

لم تتجادل معه او تجبره ، ففي مثل هذه الامور كان ناضجاً بدرجةٍ كافيةٍ كي يقرر بنفسه .

كانا صامتين الى حدٍ ما ذلك الصباح ، واحسَّ كلٌّ منهما بانطفاء بريق يومهما المتبقي .

قالت له :

- «اعتقدُ ياعزيزي اننا يجبُ ان نجد الطريق الصغير الذي اضعناه ليلة امس» .

فاجابها :

«كنا محظوظين لاننا لم نجده ، فانت لا يمكن ان تفوزي بجولةٍ مثل تلك مرتين في حياتكِ على الرغم من السيدات العجائز» .

نظرت اليه بابتسامةٍ ساحرة ، سعيدة لسماع كلماته . .

ابتدآ المسير معاً . كان (سيغموند) حاسر الرأس ، يرتدي بنطلوناً صوفياً وقميصاً واسعاً من الخيش . ولكنه بدا مثلما كان - لندنياً يتمتع بعطلته . كان له مظهر الرجل النبيل وسلوكه الخجل وملابسه جيدة الفصال . كان ذا انحناءةٍ بسيطةٍ ، انحناءةكتفين قويين ، وعندما يمشي ، كان يبدو وكأنه لا يرى ما امامه .

اما (هيلينا) فانها تنحدر من العامة . لم يكن لها مظهر سيدة نبيلة ، ولم تكن انيقة او قوية الشخصية . ولا يستطيع المرء ان يخمن فيماذا كانت عاملة او ذات دخلٍ مستقلٍ ، ولكن الشيْ الواضح الوحيد بشأنها انها كانت مثقفةً .

كانت قصيرة القامة بعض الشيْ ، ولها بنية قوية ، لذلك كانت تبدو اكثر امتلاءً من (سيغموند) . ومالم تكن تنظر بشكل محددٍ الى شيْ ما ، فانها كانت تبدو منطوية داخل نفسها باستمرار .

كانت ترتدي ثوباً من قماش ابيض رقيق ، يرتفع خصره الى ما تحت نهديها مباشرة ،

والتنورة مستقيمة وملتصقة ، وعلى رأسها قبعة كبيرة بسيطة من القش المحروق . ومن خلال كمي ثوبها المفتوحين كان بامكانها الاحساس بالشمس وهي تلفحها بشدةٍ .

وقالت له :

- «كنتُ اتمنى لو انك ارتديت قبعة يا (سيغموند)» .

فضحك وقال لها :

- «ولماذا ؟ ان شعري يشبه القلنسوة» .

ارجع شعره الى الخلف بيده ، فتلألأ ضوء الشمس على جبينهِ .

على الممرات العليا ، كان النسيم العليلُ يطاردُ الفراشات بحيويةٍ ، ويسوق الغيوم الصغيرة المتناثرة الخائبة خارج السماء . وقف العاشقان بعض الوقت ، يراقبان المزارعين اسفل التل وهم يغسلون اغنامهم في ذلك الصباح المشرق . كانت ثمة ضوضاء متقطعة تنبعث من ثغاء قطيع الحيوانات المحجوز في زاوية الساحة ، بينما يمسكَ رجلان ذوا اذرعةٍ حمر بالاغنام ويغطسانها في حوضٍ كبيرٍ ينتصبُ وسط الساحة ، ويقوم رجلٌ ثالث بسكب سائل اصفر متسخ فوق اجسامها ، بينما كانت ارجلها البيض تُتلألأ ، وهي ترفسُ بهذا الاتجاه او ذلك تخلصاً من الصبغ الاصفر . ويغطس الرجال ذووالقمصان الزرق ويتصارعون معها . ويتناثر الماء ويعلو صراخ يُسمع من مسافة بعيدةٍ . بينما تقف زوجة المزارع واطفاله مستعدين لتقديم العون اذا كان ذلك ضرورياً . ضحكت (هيلينا) بمتعةٍ وقالت :

- «تلك طريقة بدائية طريفة . انها اكثر بدائية من اساليب (ثيوقراط)*» .

فضحك مضيفاً :

- «للحظة جعلتني اتمنى لو اني كنت مزارعاً . اعتقدُ ان كل رجلٍ يتملكهُ هوىً للزراعةِ يسكن في دمه . انه لامر رائع ان تكون خالي البال ، والا ترى ابعد من أرنبة انفك ، وان تمتلك ماشيتك وارضك» .

فسألته (هيلينا) ساخرةً :

- «هل هذا صحيح» ؟ .

فردَّ عليها :

- «اذا ما اكتسبت وجهاً قانياً واصبحت اغطُّ في النوم حالما اجلسُ مرتاحاً ، فاني سأُحب ذلك» .

فاجابته :

---

* ثيوقراط : شاعر اغريقي عاش بين القرن الثالث والثاني قبل الميلاد . مؤلف (الانشاد الرعوية) وهو اول من كتب الشعر الرعوي .

- «يُسليني سماع انك تود ان تصير غبياً» .
- «امنيتي ان امتلك عقلاً بسيطاً بطيْ الحركة واعيش حياةً مفعمة» .

وسألته متهكمة :

- «هكذا ؟ !» .

فقال لها :

- «سأتنازل عن كل شيْ مقابل ان اكون كذلك» .

فقالت له ساخرةً :

- «ذلك يعني الا تكون نفسك» .

ضحك من دون حماسةٍ وقال لها وهو يحملقُ في المشهد الرعوي امامه :

- «الا يبدون بعيدين جداً ؟ انهم ابعد من (ثيوقراط) ، وان اسفل التل يبدو ابعد من صقلية . واكثر من عشرين قرناً عنا . اتمنى لو انه لم يكن» .

فصرخت بنفاد صبر فضولي :

- «ولماذا تتمنى ذلك» ؟

اكتفى (سيغموند) بالضحك .

اجتازا التل حيث تتناثرُ شجيرات غامقة اللون ، واصبحا مقابل الطريق الذي يمرُّ عبر نباتات (الرتم) مباشرة . وصرخت (هيلينا) :

- «هذا هو الطريق ! ، كيف اضعناه» ؟ !

فاجابها وهو يصفر بموسيقى الطير من (سيغفريد)* ومن ثمَّ بقِطَعٍ من (تريستان)* .

- «إعزي ذلك الى الجنيات» .

ثم لم يتحدثا بعد ذلك كثيراً .

كانت (هيلينا) تعبةً . وعندما وصلا الى تجويف اخضر عارٍ قرب حافة الجرف ، قالت له :

- «سيكون هذا بيتنا اليوم» .

فقال لها (سيغموند) :

- «مرحباً بكِ في بيتكِ» .

ارتمى على السفح العالي الذي يهبُّ عليه النسيم متأملاً البحر . بينما جلست (هيلينا) الى جانبه . كانت ساكنةً تماماً . وابتدأت الريح تتمهل شيئاً فشيئاً ، وعلى الرغم من انهما كانا

سيغفريد : بطل اسطورة المانية وتريستان بطل اسطورة من القرون الوسطى وقد حولت بعض هذه الاساطير الى مقطوعات موسيقية . لحنها رتشارد فاغنر .

يصيخان السمع بانتباه ، الاّ انهما لم يسمعا غير صوت تنفسٍ مبهم ضعيف جداً صادر من الماء في الاسفل . لم يكن ثمة عناق او همس أجش بين الامواج . اضطجع (سيغموند) متوسداً يديه ، متأملا البحر المتألق ، ولكي تضع الصفحة التي تقرأها في الظل ، اسندت (هيلينا) كتابها على جسمه وابتدأت القراءة .

استغرق النسيم و (سيغموند) نائمين في الحال ، بينما كانت الشمس تسكبُ اشعاعها بالحاح مزعج . كانت تلسع (هيلينا) ساحبة اياها ببطء من كتابها الى حالةٍ من تشوش الفكر . اغلقت عينيها متعبة ، متمنيةً الظل ، وعلى نحو مبهم احست بالتعاطف مع آدم في قصة (ادم يطرد خارجاً) ، وتتبعت ذاكرتها مرة اخرى الصراع الغامض بين الاثنين وهما يطردان خارج جنة عدن الى العراء الموحشِ فاحست بالاسف لاجلهما . وبينما كانت تتصور ادم وقد هَدَّه التعب ، التفتت الى (سيغموند) الذي كانت الشمس تلسعه على وجهه وجبينه المتلألئ . وكانت يداه اللتان تمتدان على العشب ممتلئتان بالدم ، وعروق رسغية قرمزية اللون منتفخة بالحرارة .

ومع ذلك استمر في النوم متنفساً بحركة لهاث خفيف . تأثرت (هيلينا) بعمقٍ وارادت ان تقبله بينما كان يضطجع مهملاً ومهجوراً في عهدة الارض والسماء .

ارادت ان تقبله وتذرف بعض الدموع . ولكنها لم تفعل أياً منهما ، وبدلاً من ذلك ، غيرت وضعها كي تظلل رأسه . وبحذرٍ وضعت يدها على شعر رأسه فوجدته حاراً ، مثلما تضع يدك تحت دجاجةٍ حاضنةٍ وتتحسسُ صدرها المُرّيش الحار . ثم همست لنفسها :

– «ستسبب له المرض» .

ثم انحنت عليه كيما تستنشق الهواء الحار . نظرت الى حيث كانت الشمسُ تحرق جبينه . احست انها حزينة جداً وعديمة الحيلة عندما رأت جبينه يلتهب من حرق الشمس .

استدارت متعبة عنه ، باحثة عن السلوى في الطبيعة من حولها ، ولكن البحر كان يتلألأ على نحو لا يطاق مثل حراشف تنين . وغفت بيوت (فريش وتر) مثلما تغفو القطعان ساكنة في الوادي الاجوف ، بينما انسحب ظل من الحرارةِ والنومِ على (فارينكفورد) الخضراء الوسنانة على السفح . وفي الخليج ، تحت التل ، كان البحر حاراً ومضطرباً ، واصاب (هيلينا) الغثيان من الشمس ومن تألق الماء المضطرب ونقلت لنفسها كلاماً لم تعرف مصدره .

– «ولن يكون هناكَ بحرٌ بعد الآن . لن يكون هناك بحر ، لن يكون هناك اي شيء» .

فكرت مذهولةً وهي تجلسُ وسط ألقّ الشمس المضطرب العنيف . احست كما لو ان كل بريق وهمها واملها قد احترق في هذا الفرن الهائل تاركاً (هيلينا) مثل قطعة ثقيلة من الخبث فيها عروق من المعدن . حاولت ان تتخيل نفسها وهي تستعيد تصرفاتها القديمة وطريقة حياتها

السابقة فهتفت :

– «هذا مستحيل ! هذا مستحيل ! ، ماذا سأكون عندما ينتهي كل هذا ؟ . لن اخرج ابداً من هذا الاّ مثل معدن سيصب في قالب آخر . لن يعود (سيغموند) نفسه اخرى ، ولن تكون هناك الحياة نفسها ، ما الذي ستؤول اليه ، وماذا سيحدث ؟» افاقت من تأملاتها الشبيهة بالهلوسة هذه في فرن الشمس . عندما استيقظ (سيغموند) فتح عينيه واخذ نَفَساً عميقاً ثم نظر مبتسماً الى (هيلينا) وقال لها :

– «ان الحال ليستحق النوم حتى يستيقظ المرء هكذا . لقد كنت احلم ببلورة ثلج هائلة» .

ابتسمت (هيلينا) . كان على ما يبدو غير واعٍ بما يدبره القدر ، بل كان سعيداً وقوياً .

ابتسمت له في تنازلٍ تقريباً وقالت :

– «اود ان أحققّ حلمك . ان هذا فظيع ! .»

توجها صوب حافة الجرف لكي يستنشقا تيار الهواء البارد الصاعد من الماء . تشربت العذوبة المسافرة بشغفٍ في وجهها ، ومدت ذراعيها المسفوعين بالشمس نحو الامام كي يستشعرا عذوبة الهواء . وقال (سيغموند) بخفةٍ :

– «انها شمسٌ رائعة حقاً ، أشعُر كما لو اني اكتفيت من الحرارة» .

احسّت (هيلينا) بخيبةِ امل امرءٍ يضيع أسفه سُدىً ، بينما كانت تهتم بمتعة الآخر قليلاً . وفي هذه المرةِ ، وعندما «فشل سيغموند في أنْ يتبعها» كما عبرت عن الامر ، احسّت ان عليها ان تتبعه ، فقالت له مبتسمةً :

– «يبدو انك قد اخذت كفايتك من هذه الرحلة ، حتى مني» .

فردَّ (سيغموند) وسناناً :

– «نعم ! . اعتقد كذلك ، اعتقد ان ذلك مكتملٌ تقريباً . ما رأيك انت ؟» .

ضحكت (هيلينا) بينما استمرَّ في حديثه :

«لا اريد شيئاً اكثر او مختلفاً ، واعتقُد ان هذهِ ذروة المتعة المهذبة» .

فرددت القول بعده :

– «ذروة المتعة المهذبة» .

ولكنه تشدق بكسلٍ قائلاً :

– «لقد كنتُ حتى الآن امسح خبزتي على قطعة الجبن ، امّا الآن فلقد حصلتُ على قطعة الجبن كلها ، وهي أنتِ ياعزيزتي» .

فضحكت بمرارة تقريباً وقالت :

– «أحسُّ باني قد أكلت بالتأكيد» .

رأته يضطجع في استرخاء ملكي ، عيناه ساذجتان كعيني الطفل ، وكيانه مهمل كلياً . وعلى الرغم من انها كانت سعيدةً ان تراه مرتاحاً الاّ انها احسّت بالوحدة ، ولانها كانت فاترة الهمة ، منهكة بالشمس ، مثقلة بتوقع قدر وشيك الحدوث ، فلقد شعرت بشوقٍ عنيف لعطفه ولرفقته . وبدلاً من حصولها على ذلك ، كان عليها ان تتملق سعادته كيما لا تذبل ورقةٌ من زهرته ، او تفسد دقيقةً واحدةً من ساعته المكتملة .

من اعلى نقطةٍ على الجرف حيث كانا يقفان ، كان بامكانهما رؤية الممر يتلوى نحو الاسفل باتجاه الشاطئ ، ويتسع كلما اقترب منهما . وعند المنعطف ، اقترب ببطء منهما كرسي اسود لرجل عاجز يتدحرج بصمتٍ على العشب القصير اليابس . كان العاجز شاباً محطماً الى درجة ان روحه كانت تتلوى في وجهه الشاحب الحاد ، كما لو ان ليس ثمّة دفق من الحياة يكفي الجسد المهشم ليخضر برعم الروح الجميل . ادار عينيهِ الغارقتين بالالم تجاه البحر ، الذي كانت فحواه مثل بقية الاشياء ، شبه مبهمةٍ بالنسبة له ، نظر (سيغموند) اليه ثم اشاح بوجههِ سريعاً قبل ان تسقط عيناه عليه . نظرت (هيلينا) بانتباه لثانيتين اثنتين ، وفكرت بالعشبة البحرية الممزقة المرتجفة المندفعة فوق المد وخاطبت نفسها :

– «مَدُّ الحياة» .

طغى الم العاجز على كآبتها ، وكان القلق يداخل روحها . فقالت بهدوء لسيغموند : «تعال !» .

لم تعد مُمتعِضةً من اكتمال سعادتهِ التي جعلته في غنىً عنها واضافت مخاطبة نفسها : «سوف نتخلى للعاجز المسكين عن بيتنا الاخضر الصغير بهدوء» . هبطا الى الاسفل باتجاه الخليج . كانت (هيلينا) تطيل التأملِ في حالتها على طريقتها الخاصة ، وتمتمت لنفسها :

– «إنَّ روح الضباب تُنزل ستارةً من حولنا – انها كريمة جداً ، ستارة ذهبية ثقيلة أحياناً وغلالة رقيقة ممزقة في احيان أخر . أُريد ان تُنزل روح الضباب الستارة مرة اخرى . لا اريد ان اطيل التفكير في ما يحدثُ في الخارج فانا خائفة من الخارج ، وخائفة من ان تقطع الستارة الى مزق ، اريد ان اكون في عالمنا الرائع داخل ستارة الضباب الذهبية الثقيلة» .

وكما لو كان جواباً او احتجاجاً على افكارها ، قال لها (سيغموند) .

– «اتبغين شيئاً افضل من هذا ياعزيزتي ؟ . هل سنأتي العام المقبل هنا ونمكث لشهر كامل ؟ .»

فاجابته قائلة :

– «اذا كان هنالك عام مقبل» .

لم يرد عليها (سيغموند) .

وتساءلت مع نفسها فيما اذا كان صادقاً في كلامهِ ام انه كان يسخُر من القدر ايضاً ومن ثم ، تمشيا ببطءٍ تحت الشمس المحرقة متوجهين نحو بيتهما ، وقالت محدثةً نفسها :

– «ستكون نهاية لهذا ، ولكن ماذا سيحدث يا ترى عندما نخرج من ستارة الضباب . لا يهم ، ليحدث المقدر ، منذ البداية تحدد المقدر ، ومن البداية تحددت كل المصاعب على نحو تدريجي وبتعاقب غير مألوف . ومن الترابطات الاولى تلك تمَّ نسج توافقات مدهشة مع حياتنا . حقاً لقد كانت النتيجة مدهشة ، وهي مدهشة الآن .

ان القدر فنان اعظم من ان تحبطه النكسات . وانا متأكدة ان قائد الفرقة الموسيقية فنان اعظم من ان يسمح بالاصوات النشاز» .



الفصـــل الخامس عشر

مرَّ الاصيلُ المتوهج ناعساً ، وترك (سيغموند) و (هيلينا) النهار يستنشق ثملاً ساعاته مثل العطر ، بينما اضطجعا متقاربين على الشاطئ . اغفى (سيغموند) اغفاءة خفيفةً متقطعة ممتلئة بالاحلام والمعاناة : لا شيٌ محدد ، بل كانت احلاماً باهتة الالوان . امّا (هيلينا) ، فلقد احتفظت كالعادة بوعيها اكثر صفاءً ، وراقبت طفو السفن البعيدة وتجوال الاطفال القريبين عبر المد . وتموجت قطارات لا نهاية لها من الافكار ، مثل امواج صغيرة اندفعت نحو الامام وتحطمت على شاطئ نعاسها . ولكن كل موجةٍ من افكارها ، وان كانت تعدو برشاقةٍ ، الاّ انها كانت مخضبة بومضات نحاسية اللون ، كما لو انها صادرة عن غروب متوهج . احسّت (هيلينا) ان الشمس تتقدم عليها وعلى (سيغموند) . كانت الساعة مختلطةً جداً ، مشوشةً بالحزنِ او القلق او حتى التوقع الغريب . كانت على وعي أنَّ الشمس كانت تدرر نحو الاسفل ، شابكةً اياها و (سيغموند) في اثرها ، مثل قائد عربةٍ سقط منها ، وهكذا مرت الساعات .

بعد وقت الشاي ، توجها شرقاً نحو التلال . كان (سيغموند) مفعماً بالحيوية واصابت (هيلينا) عدوى مزاجه . كانا من النادر ان يتحدثا حول الفترة التي سبقت تعارفهما . اذ كانت (هيلينا) تعرف القليل جدا او لا شيئ البتة عن حياة (سيغموند) قبل الثلاثين ، بينما لم يعرف اي شيٌ يتعلق بطفولتها ، اذ انها بطريقةٍ ما ، لم تكن تشجعه على اكتشاف النفس . اما اليوم ، فان حاجة العشاق المؤلمة للتجلي قد سيطرت عليهما تماماً ، فقال لها :

– «ياله من امرٍ مضحك ، لقد كنت مغرماً جداً ببياترس عندما تزوجتها . كانت قد عادت

لتوها من مصر. وكان والدها ضابطاً في الجيش، رجلٌ وسيم جداً، واعتقد انه كان لعوباً نوعاً ما. ولقد كانت (بياترس) تنحدر من عائلةٍ ممتازة حقاً، ولكن (فيتز هربرت) العجوز انفق كل نقودهِ واجهز على كل شيْ تقريباً. لقد كان عاراً على بقية العائلة لذلك اسقطوه من بينهم تماماً.»

«ولقد جاء ليقيم في (بيكام) عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، وكنتُ قد تركت المدرسة تواً، وتوجب عليَّ ان انخرط في مهنة والدي. ولقد ارسلت السيدة (فيتز هربرت) بطاقات زيارة وسرعان ما تعارفنا. وكانت (بياترس) قد قضت فترةً طيبة في مدرسة راهبات فرنسية على الرغم من انها كانت قد تنقلت لفترة قصيرة مع الجيش، ولقد افادتها تلك الفترة كثيراً. اتذكر اني كنت اعتقد انها ارفع مني إجتماعياً بعدة اميال، وهي كانت كذلك. كما انها لم تكن قبيحة، وكان الرجال يحبونها جميعاً. اراهنُ انها ستتزوج ثانيةً على الرغم من الاطفال.

في البداية ابتدأت اطوف من حولها. اتذكر انه كان لي شارب حريري صغير، وكان الجميع يقولون اني ابدو أكبر من سن السادسة عشرة. وفي ذلك الوقت كنتُ مولعاً بالكمان، وكانت (بياترس) تعزفُ على نحو رائع، ومن ثم، سافر (فيتز هربرت) في رحلةٍ الى مكان ما خارج البلاد، وهكذا فلقد امضت (بياترس) وامها نصف الوقت تقريباً في بيتنا، وكانت الام عاجزةً.

«اتذكر اني كدت اقف على راسي تقريباً في احد الايام، اذ بينما كنت اهم بدخول غرفة التدخين في المعهد الموسيقي، عندما سمعت (بياترس) وشقيقتي يتحدثن عن الرجال الوسيمين، اذ قالت اختي الصغرى عندها:

– «اعتقد ان بيرترام سيكون رجلاً وسيماً».

واضافت اختي الاخرى:

–«ان له عينين جميلتين».

فهتفت (بياترس):

– «وانفاً وذقناً جميلين حقاً، ولكن ياليته كان اكثر امتلاءً فهو مثل طاحونة الهواء، كله اطراف»!.

فردت اختي الكبرى:

– «سيمتلأ لاحقاً. تذكري انه لم يبلغ سن السابعة عشرة بعد».

وقالت (بياترس):

– «آه، انه لطيف ومدلل».

وقالت اختي الكبرى .

- «اعتقد انه مدلل اكثر من اللازم قياساً الى عمره» .

فتدخلت اختي الصغيرة منفعلةً :

- «ولكنه فتى رائع على اية حال . انظري قوة ركبته» :

وهتفت (بياترس) :

- «اه ، نعم ، نعم» .

اصطنعت ضجة عند الباب ، ومن ثمَّ دخلت وهتفت بينما كنت اندفع الى الغرفة الصغيرة .

- «مرحباً ، هل من أحدٍ هنا ؟» .

- «نظرت الى (بياترس) مباشرة وبادلتني النظرة . كنا كما لو اننا قد اقمنا تحالفاً في تلك النظرة . كنت النصف الآخر من وعيها وكانت هي كذلك . ها ! ها ! كان ثمة الكثير من ورد النرجس الابيض ، وزهور صغيرة بيضاء اللون من نوع المكحلة الياقوتية الروماني في الغرفة . ان بامكاني تخيلها الآن ، نجوم بيض كبيرة ، وشبكات وورود صغيرة على حاجز اخضر ، واستطيع استعادة رائحة العطر الطازج الحميم في الهواء الدافئ ونظرة (بياترس) . . . . وعينيها الواسعتين الغامقتين» .

ياله من امرٍ مضحك ، ولكن (بياترس) كما لوانها ميتة الآن ، بل اكثر موتاً من (دانتي) ، وانا لم اعد ذلك المغفل الصغير اطلاقاً» .

«كنتُ رومانسياً جداً ، وعاطفياً على نحوٍ سخيف ، وكنتُ امثلُ روح الشرق ايضاً ، ولقد اشتكت (بياترس) من ان لا احد يهتم بها اطلاقاً ، فلقد كان (فيتز هربرت) على سفر باستمرار ، والام عاجزة متبرمة ، كنت في السابعة عشرة ، اكسب نصف باوند في الاسبوع ، وهي في الثامنة عشرة ومفلسة تماماً عندما هربنا معاً الى (برايتن) وتزوجنا . يالوالدي المسكين ! ، لقد تحمل الصدمة بشجاعة ، فلقد كنا عبئاً مرعباً على كاهله كما تعرفين» .

- «هذا هو الحب ، ياترى كيف سينتهي كل شيئ» .

ضحكت (هيلينا) ولم يستطع اكتشاف مرارة روحها الشديدة .

تجولا بصمتٍ بعض الوقت . كان يفكر بالماضي قبل لقائه بهيلينا ، وبذلك تركها وحيدةً مع نفسها ، وانتابتها فكرة ان الحب الذي اختارته ليكون شيئاً رائعاً ومتفرداً في حياة الانسان مثل الولادة والمراهقة والموت ، اكتشفت انه امر زائل بعد كل شيْ ، ولا يشكلُ الآ مجرد مرحلة ، وكانت تلك ساعة صحوتها من اوهامها .

واكمل (سيغموند) حديثه :

– «لقد اكتشفت باني كنت اتهرب دائماً ، اذ حالما انحشر في زاوية ضيقة كنت اهرب الى والدي» .

فقالت له :

– «اعتقد ان زواجك كان زاوية ضيقة لم تستطع الهروب منها واللجوء الى اي شخص آخر» .

فاجابها ببساطة :

– «ومع ذلك فانا هنا» .

خضب الدم وجهها ونحرها .

– «وكان من الممكن تسوية الامر على نحو افضل ، ولكن عندما يتعلق الامر بالتقليل من دور (بياترس) وتمشية امور العائلة على الضد من رغبتها ، فلقد كنت اتهرب دائماً . اني نوع من الجبناء الاخلاقيين» .

ولقد ازعجها حديثه الى درجة انها كانت تود القول له :

– «وهو كذلك» ولكنها بدلاً من ذلك استعرضت تأريخها . كان يتكون من نزاعاتٍ تافهة في وسط وضيع ، ومن ثم انتهت احلامها واوهامها بسيغموند . وقالت ونبرة الاشمئزاز تصر من صوتها :

– «يمكنني القول باني طوال عمري كنت اتخيل بان الحياة الحقيقية هي خارج نفسي دائماً : جنيات سمراوات صغيراتٍ يركضن ، وجنيات يختلسن النظر ويتطلعن الى ما وراء المكان القبيح الذي كنت اعيش فيه . كنتُ ابدو وقد طوقتني ظروف مبتذلة ، ولكني كنت قادرةً على القاء نظرة على العالم الخارجي بين الحين والآخر لأرى الواقع» . فقال (سيغموند) لها :

– «يصعبُ فهمكِ ، كما انك تحتقرين الاشياء المألوفة» .

ابتسمت له مدركةً انه لم يفهمها . لقد انهكتها الحرارة ، وامتلأ جسدها بالضجر والفزع مما جعلها تصرُّ على اسنانها ، ولم تكن على ما يرام في الجسد او الروح .

تجمع شفقٌ صامت دافئٌ فوق التلال ، وابتدأ يرتفع مظلماً من البحر . ورفرف قدر ذو اجنحة عريضة فوقها تماماً . ووضعها قدر رمادي مسود مثل غراب الجيف تحت ظله . ولكن (سيغموند) لم يلاحظ ذلك ولم يفهم . كان يمشي الى جانبها ، وهو يصفرُ لنفسه ، ولقد زاد ذلك من كآبتها .

كانا وحيدين على التلال الناعمة الممتدة نحو الشرق . وتأملت (هيلينا) النهار وهو يذوب من السماء تاركاً هيكل الليل الثابت . كان دورها الآن لتعاني الم الوحدة الذي يلي لحظات

الحياة الممتلئة .

تلاشي تورد الغروب عندما خمدت الجمرات متحولة الى رمادٍ سميك . وفي داخلها غطس التوهج المتورد واختفى . كانت الارض كومةً ميتةً باردةً متشحةً بالكآبة والسماء مظلمة مجللة برمادٍ متكتل . وكانت (هيلينا) ذاتها كتلة من الرماد الناعم .

ارتجفت قليلاً من الخوف ، وبدت ملامح الاشياء في عينيها شاحبة باهتةً ، ولانها من النوع الاخلاقي اكثر من كونها فنانةً ، وتنحدر من عائلة محافظةٍ ، فلقد ابتدأت تؤنب نفسها . لقد ارتكبت خطأ من اخرى . وعادت بها الذاكرة القهقرى ، وادركت انها لم تمس شيئاً الاّ والحقت الاذى به . كانت لها قوة تدميرية ، تجرحُ كل من تحتضنه ، وترددت اصوات واهنة من وعيها ، وكانت الظلال ممتلئة بالشكوى ضدها . واقرّتْ بها جميعاً ، فهي قوة مؤذية تجر القدر الى نتائج وضيعة حقيرة .

تحولت الحياة والآمال الى مجرد رمادٍ في فمها . ارتجفت باشمئزاز ، وصر اليأس بين اسنانها ، وادركت ان هذا الفزع اسوء بكثير من اية حياة وحيدة مخيفةٍ عاشتها من قبل . واحسّت انها لن تطيق اكثر من ذلك .

كان (سيغموند) في الجوار ، وان بامكانه المساعدة بالتأكيد ، فهو قادرٌ على أن يضرم النار فيها من جديد . ولكنه كان يبتعد نحو الامام ، يصفر بلا مبالاة لحن اغنية الربيع من موسيقى (الجولة) . نظرت اليه ، وارتجفت مرتعبة مرة اخرى ، هل هذا هو (سيغموند) حقاً ؟ . هذا الرجل العريض الكتفين المحدودب اللامبالى . هل هذا هو (سيغموند) الذي كان يبدو وكأنه ينشر الفرح من حوله ؟ . سيغموند الذي كان مجيئة يغير طقس روحها ؟ هل هذا هو (سيغموند) الذي تحمل لمسته الحميمة البركة لها ؟ . سيغموند الذي كان وجهه شاشةً لآلهٍ مار . تأملته مرة اخرى . كان شعاعه قد اختفى وزالت هالته . رأته رجلاً محدودباً ، تجاوز زهو الشباب ، يمشي وهو يصفر بطريقة بليدةٍ . وبدا في النهاية نوعاً من الحيوانات التي ترتدي الملابس مثل بقية الرجال .

عانت الم التحرر من الوهم . هل هذا هو (سيغموند) الحقيقي ، وان الذي في ذهنها هو مجرد انعكاس لروحها ؟ ! سَحَبَت نَفساً محرقاً . هل هذا هو الطين الحقيقي ، وان الآخر . حبيبها ، لم يكن الاّ تنفس روحها عليه . كان ثمة فراغ مرعب يمتد امامها .

وهتفت بيأس :

— «سيغموند» .

استدار بحدةٍ عند سماعه صوتها . وعندما رأى وجهها شاحباً منقبضاً في الشفق امتلأ بالرعب . رفعت ذراعيها خرساء اليه ، وراقبته بيأس ، وبهدوء اخذها بين ذراعيه مستفهماً

بصوتٍ قلق .

– «ما الامر ياعزيزتي ، اثمة شيْ يزعجكِ ؟» .

لم يعن صوته شيئاً بالنسبة لها ، بل كان صوتاً غبياً ، احسّت بذراعيه تطوقانها وشعرت بوجهها ينضغط على قماش سترته ، وعلى نبض قلبه . ماكلُّ هذا ؟ . ان هذا ليس تطميناً او حبّاً فهو لا يستطيع فهمها او مدَّ يد العون اليها ، بل ها هو يقيدها ويؤلمها . انها لا تريدُ عناقه القاسي . احست بالوحدة وهي مقيدة على هذا النحو بين ذراعيه . اذا لم يكن باستطاعته انقاذها من نفسها ، فإنَّ من الافضل ان يتركها حرةً كي يستنشق قلبها الهواء النقي . صدتها النبضة السريعة ، نبضة قلبه ، سويداء قلب الحيوان الذي في داخله ، والتي ترهبها وتكرهها ولقد صارعت كي تهرب ، فتوسل اليها :

– «ما الامر؟ . الا تخبرينني ما بك ؟» .

ابتدات تبكي بنشجاتٍ متوحشة جافة شاعرةً كما لو انها ستفقد عقلها . حاول ان يحدق في وجهها ، ولقد كرهته لحظتئذٍ . وطوال الوقت كان يحتضنها بقوةٍ ، وطوال الوقت كانت مسجونة في عناق هذا الكائن الاعمى القاسي ، الذي كان قلبه يفضح نفسه في نبضات ونبضات ونبضات .

– «اسمعتِ شيئاً ضدنا ؟ هل فعلت انا اي شيْ ؟ . هل قلت شيئاً ما ؟ اخبريني في كل الاحوال ، اخبريني يا (هيلينا) .» .

كان نشيجها مثل خشخشة اوراق جافة ، واهتاجت محاولة التحرر منه . فان ظلت رهينة ذلك السجن لفترة اطول ، فانها ستختنق وتجن ، كان قماش سترته يحك وجهها ، وكلما تصارعت معه ، كانت تستطيع رؤية بُنية نحرة القوية ، تدافعت معه وصارعته مرعوبة لكي تتحرر وصرخت به :

– «دعني اذهب ، دعني اذهب ، دعني اذهب» ! .

امسك بها في حيرة ورعب ، فوضعت يديها على صدره ودفعته بعيداً عنها ، كان وجهها الذي يتغاضى عنه متشنجاً جداً بفعل معاناتها ، ودفعته بعيداً عنها بقوةٍهائلة .

توقف قلبه ساكناً من الدهشة . وتخلصت منه وجثت تنشجُ بمرارةٍ تحت وطأة اضطرابها . وتكومت في كومة مرتجفة صغيرة . لم يعد (سيغموند) يتحمل ذلك ، فذهب ليركع على ركبة واحدة الى جانبها ، محاولاً ان يأخذ يدها في يده ويتوسل اليها .

– «اخبريني فقط ما الامر يا (هيلينا) . اخبريني على الاقل . قولي لي ما الامر ، اوه ، ولكن هذا امر فظيع ! » .

استدارت متشنجة بعيداً عنه ، هزت جسدها كما لو انها الى جانب نفسها . وفي النهاية

غطت اذنيها بيديها كي لا تسمع توسلاته التي لا مبرر لها .

بعد ان رآها على هذا الحال ، تخلى (سيغموند) عنها ، وركع ساكناً تماماً على ركبة واحدة الى جانبها ، محملقاً في الغسق المتأخر . كان نشيج (هيلينا) الجاف يمزق الصمت الكثيف . بقي صامتاً مذهولاً من هذا التغير الغريب . وبعد ان انتظر لفترة من الزمن ، وضع يده على يدها فجفلت متشنجة مبتعدة عنه .

نهض قائلاً لنفسه «هذا يكفي ! .» وذهب خلف التل الصغير وتأمل الليل . كان كل شيْ من حوله عارياً . ولقد اراد ان يختفي ، وان يخبأ نفسه في العراء ، لم تكن هناك حتى شجيرة يستطيع ان يجد تحتها ظلاً .

تمدد مستوياً على الارض ، ضاغطاً وجهه على التربة الخشنة ، محاولاً ان يختفي ، وهو مذهولٌ تماماً والموت يحتّلُ روحه .

تمدد ساكناً ، منضغطاً على الارض ، وحبس انفاسه لوقت طويلٍ قبل ان يطلقها . ومن ثمَّ حبسها مرة اخرى . كان من الصعب عليه ، ان يوافق حتى ولو بالتنفس ، على خداع نفسه . كان وعيه مظلماً تماماً .

نشجت (هيلينا) وصارعت انتعاش الحياة في داخلها مرة اخرى . وبعد فترةٍ طويلةٍ ، تمددت ساكنة متعبة ولكنها متحررة . وكانت على وشك ان تستغرق في النوم تقريباً ، ولكنها ابتدأت تشعر بالبرد وبوخز حشرات الارض على وجهها . اثمة شخص قادم باتجاهها ؟ .

هبط الظلام عندما نهضت في النهاية . لم يكن (سيغموند) في الجوار . رتبت هندامها ، وطفقت تبحث عنه وهي خائفة تقريباً . رأته مثل ظل سميكٍ على الارض ، عندها انتابها الهم ، وصعب عليها ان تخفي دموعها . وقفت في اسىً ابكم تتأمله ، وفجأة احسّت ان ثمة شخصاً قد مرَّ بهما وهو ينظر بفضولٍ اليهما . فخاطبته برقةٍ ، منحنية تداعب شعره :

— «يا عزيزي» .

ابتدأ ينازع نفسه كي يستجيب . كان يفضل في تلك اللحظة ان يموت بدلاً من ان يواجه اي انسان . كانت روحه عارية تماماً . وظلت تتوسل اليه :

— «ياعزيزي ان احدهم يراقبنا» .

رفع نفسه من مخبأه قليلاً . ولكنه ابقى وجهه بعيداً عنها ، ثم تمشيا معاً .

قالت له برقةٍ :

— «اغفر لي ياعزيزي» .

فاجابها :

— «لا . لست انتِ» .

تمشيا معاً حتى اصبح الليل لها لوحدهما . عندها استدارث اليه وقالت في نبرةٍ من الاسى العنيف والتوسل :

– «سيغموند» !

احتضنها بين ذراعيه ولكنه لم يقبلها على الرغم من انها رفعت وجهها اليه . وضع فه على نحرها ، تحت اذنها ، حيث قدمتها اليه ، ووقف ينظر خلال شعرها مبهورا مفتوناً .

كان البحرُ يدخن بالظلام تحت السماء نصف المضاءةَ ، والنجوم تشتعلُ محترقةً واحدة بعد اخرى . نظر (سيغموند) اولاً الى واحدةٍ ثم نقل بصره الى اخرى اكثر عتمة من سابقتها وهي تتلألأ في الظلام فوق البحر . وقف ساكناً تماماً وهو يتأملها ، وبالتدريج ، ابتدأ يتذكر كيف كانت شموع الجوقة في الكنيسة ترتجف وهي تنتصبُ صامتةً محترقةً ممزقةً الظلام نقطة بعد أخرى بقطراتٍ صفرٍ من اللهب ، عندما يمسها مساعد الكاهن الواحدة تلو الاخرى برقةٍ بعصاه . كان الليل متسربلاً بالتقوى ، ثم بطقوسه المعتادة . ولقد مرت طقوس الليل والنهار في نوع من العبادة الغريبة .

وجد (سيغموند) نفسه في دير ، وتأمل الليل الشبيه بالصحن ، حيث تهبط السماء على الاقواس الشبيهة بالبحر ، ورأى النجوم وهي تضطرم ناراً . لقد كانت جميعها مقدسةً . بغض النظر عمن يكون الرب . ولقد كانت (هيلينا) الخبز المر ومادة الاحتفال التي مسّها بشفتيه كجزءٍ من الطقوس .

كانت (هيلينا) بين ذراعيه . انها لرفيقة طيبة ، ولكن روحه كانت وحيدة تماماً . كان من الممكن ان تحضنه ، فيختبأ على صدرها الانثوي من القدر ، وتنقذه من البحث عن المجهول ، ولكنه في هذه الليلة لم يُرِد الراحة . فإذا كان «طفلاً يصرخ في الليل» فإنه صراخ لا تستطيع امرأة اسكاته . كان في الخارج يبحث عن الشجاعة والايمان لروحه ، وهو في وحدته يجب ان يبحث عن الخلاص في الليل ، ثم فكر مع نفسه وخاطبها :

«لقد تقرر مصيري على نحو دقيق ، بل حتى اللعنة تم تخيلها لي . لقد بلغت هذا الحد ، اما الآن فيجب ان اكتسب الوضوح والشجاعة كما اتبع ماهو مرسوم فانا لا اريد ان ارتق او أرقّع حتى لعنتي» .

ولكنه كان يحتاج الى معرفة الصواب والتسلسل المناسب لافعاله . احسَّ ، وقد ابتدأ في الظلام ، بانه يعرف طريقه على الرغم من انه لا يستطيع رؤيته . فانحنى باذعان . كانت النجوم ، على مايبدوَ ، تتأرجح برقة دلالة على الاستسلام .



الفصل السادس عشر

عندما شعرت (هيلينا) انه منصرفٌ عنها ، انتابها الذعرُ مخافة أن تفقده . كانت بين ذراعيه ولكن روحه اهملتها ، وكان ذلك اكثر مما تطيقه كبرياؤها . ومع ذلك ، لم تتجرأ على ازعاجهِ فلقد كانت خائفةً . وبمرارةٍندمت على استسلامها للبكاء قبل فترة قصيرةٍ . لماذا لم تتحمل الامر وتتظاهر ؟ لماذا فضحت نفسها على هذا النحو ؟ . ربما تكون قد فقدته الآن الى الابد . كان القلق يأكلها .

وفي النهاية سحبت نفسها منه قليلاً ، واعطته فمها ليقبلهُ ، وبينما كان يقبلها بهدوءٍ قبلة حزينةً ، ضغطته الى صدرها . كان عليها ان تستعيدهُ بغض النظر عما ستفقده ، فوضعت يدها برقةٍ على جبينه وسألته :

- «بم تفكر» ؟ .

فاجابها :

- «انا ؟ لا ادري . اعتقدُ اني لا افكرُ في أمرٍ محددٍ» .

انتظرت لفترةٍ وهي ملتصقة بهِ ، ومن ثم سألتهُ وهي تجدُ صعوبة في الحديثِ معه :

- «هل كنت قاسية جداً ياعزيزي» ؟ .

كان امراً غريباً أن يسمع صوتها حزيناً ذليلاً لذلك سحبها بالقرب منه . وردَّ قائلاً :

- «اعتقدُ انه كان امراً مؤسفاً ، ولكني اتصورُ ان لا احد منا يمكنُ ان يسيطر على نفسهِ» .

حررت نشجة صغيرةً ثم ضغطت وجهها على صدرهِ ، متمنيةً ان تكون قد ساعدته . ومن ثمَّ ، وباحساسٍ من الحب العذري ، ضغطت راسه على كتفها ، وغطت شعره بيديها ، وقبلته برقةٍ مرتين على مؤخرة عنقهِ ؛ قبلات مطمئنة عاشقة ، وراحت طوال الوقت تلاطفه

وتداعبه بيسر حتى تحول الى طفلٍ بين يديها .
بقيا واقفين ورأسه على كتفها بعض الوقت ، حتى رفع نفسه في النهاية كي يضع شفتيه على شفتيها في قبلةٍ طويلةٍ شافيةٍ مجددةٍ ، قبلاتٌ طويلة شاحبة لما بعد المعاناة .
كان احدهم قادماً عبر الممر ، فحررت (هيلينا) نفسها منه واستدارت بسرعةٍ جانباً قائلةً له :
- «أننزلُ الى الماء ؟» .
فاجابها ماداً يده اليها :
- «إنْ اردتِ ذلك» .
وهكذا نزلا ، وقد تشابكت ايديهما ، على حافة الجرفِ باتجاه الساحل .
جلسا في ظل الجزيرة المرتفعةِ في مواجهة الماء المضطرب . ومن حولها ، كانت الرمالُ والحصى رمادية اللون ممتدةً على طوال خط المدّ الشاحبِ الطويل الذي كان البحرُ خلفه يبدو مسّوداً مزخرفاً بالنجوم المنعكسةِ ، والسماء القطيفيةِ العميقة تتألف بالنجوم البراقة .
ولأن القمر لم يرتفع بعد ، اقترحت (هيلينا) ان يضطجعا على بقعة من الرمل قرب قاعدة الجرف بانتظار قدومه . وهكذا تمددا ملتصقين ببعضهما بصمت . كانا معاً يتأملان نجمة واطئة كبيرة تتدلى على نحوٍ مستقيمٍ امامهما ، ساكبةً بريقها في نُهيرٍ صغيرٍ من الضوء يصبُ في البحر قرب اقدامهما تقريباً . كان ممراً مضيئاً رقيقاً وصافياً يرتجفُ في بريقهِ ولكنه واضحٌ على سطح الماء . راقبته (هيلينا) بمتعةٍ بينما كان (سيغموند) يتأمل النجوم التي بدت له مثل مشكاةٍ معلقة عند باب احدهم تضيءُ له بيته . وتخيل نفسه يقتفي اثر النجوم . ياترى ما الذي وراء الباب ؟ .
سمعا صوت باخرةٍ تجتاز الخليج . كان الماء يبدو مزدحماً في الليل برحلات ذهابٍ وإياب موحشة مظلمة .
كان (سيغموند) يفكر ساعتئذٍ ثم سألها :
- «ما الامر ؟» .
انحنت فوقه ووضعت رأسه في حضنها واحاطت وجهه بين راحتيها واجابته بنبرة واطئة ، حزينةٍ ، حكيمة ومجربةٍ جداً :
- «لا يمكنك ان تفهم ياعزيزي . ولكن هناك هذا الظلام الرمادي الذي تتسربُ خلاله اصوات الارواح التي لمستها . . .» .
تقلص قلبه وانقبض فجأة ، واعترفت عندئذٍ انها ساعدت في ايذاء (بياترس) واطفاله وانكمش حول نفسه خجلاً .
- « . . . صرخات الارواح ضدي . وانا لا استطيعُ اسكاتها كما لا يمكنني الفرار منها

خارج الظلام . لقد اردتك ، رأيتك في الامام ، تصفر باغنية الربيع ، ولكني لم استطع العثور عليك ، اذ لم تكن انت ، ولم استطع العثور عليك» .

ثم قبلت عينيه وحاجبيه فقال لها :

– «لا ، لا استطيع فهم ما تعنين . وستظلين نفسك دائماً ، وحتى لو افكر ان اكرهك ولكنك ستبقين نفسك» .

اصدرت صوت مواء ممتلئ بالحب ، وحركت فمها على وجههِ وهي ممتلئة برثاء حنون مثلما تفعل ام مع طفلها الذي آذى نفسه ، وهمهمت بنبرة اعترافٍ حزينةٍ واطئة :

– «انكَ تضيعني احياناً» .

ضحك ضحكة قصيرة وكرر قولها :

– «أضيعكِ ! . اتعنين فقدان افتتاني بك ام تمسكي بكِ وانتِ ؟ . . .»

لم تدعه يكملُ الجملة بل اصدرت نفس الضوضاء المهمهة الحزينة ووعدتهُ قائلةً :

– «لن اكون كذلك ابداً بعد الآن» . .

فاجابها .

– «عظيم ما دمتِ قد قررتِ ذلك» .

احتضنته حول الصدرِ ولاطفته وهي مشدوهة بالشفقة عليه وهمست قائلةً – «ينبغي الاّ تكون قاسياً» .

فقال لها :

– «اربعة ايام تكفي ، اذ اني سأصبح امرء لا يطاق خلال اسبوعين . أنا لست مبتدأ» .

فردت عليه بحدةٍ .

– «ليس الامرُ كذلك يا (سيغموند)» .

فاعاد القول :

– «اني استسلم دائماً ، ومن ثم ما حدث الليلة ! .»

فصرخت في حنقٍ :

– «الليلة ! ، الليلة ! ، كنت حمقاء هذه الليلة !» .

وسألها :

– «وانا ؟» .

وصرخت به .

– «وانتِ ، ماذا بشأنك انت ؟» .

ومنْ ثم تملكها الحزنُ فتفجعت قائلةً :

– «لقد تملكتني مشاعر حمقاء صغيرة» .

– «وانا لا أطيق فرض اي شيءٌ خوفاً من أن أوذي احداً ، ولذلك فانا دائماً من يُدفع في هذا الطريق او ذاك مثل احمق» .

فقالت له :

– «انت لا تعرف كيف تؤذيني بحديثك على هذا النحو» .

قبلها وقال لها بعد لحظة :

– «انك لست مثل الآخرين . (انتم يا (لاشكس) عشيرة أخرى)» ، لقد فكرت فيكِ عندما قرأنا هذه الجملة» .

– «اتفضل ان اكون مثل الاخرين او الا اكون مثلهم يا (سيغموند) ؟» .

فرد عليها :

– «لا أفضل الامرين . انكِ أنتِ» .

خيم الصمتُ لفترة من الزمن ، كانت الحركة الوحيدة في ذلك الليل هي قفزات ضوء النجوم الواهن على سطح الماء . ومرَّ آخر شخصٍ بظله الاسود بينهما وبين البحر . كان (سيغموند) يفكرُ بمرارةٍ . اذ يبدو انها كانت تدفعه للغوص اعمق فاعمق في الحياة ، في حين كان لديه احساسٌ باليأس وتفضيل الموت . وعادت الى ذاكرته مقاطع الشعر الالماني الذي انشدته معه . والذي أحبّت فيه تصويره للحب الحر العنيف : –

«يمشي الموت بجانبنا مرئياً . ويتوغلُ اكثر فأكثر في حياتنا» .

إن المكان الذي سيبحث عنه الآن ، مثل ارنب بري يجري هابطاً نحو الاسفلِ ، هو بيته ، ولقد بدا له ان من المستحيل ان يعيده الغد الى (بياترس) فقال لها :

– «في مثل هذا الوقت مساء غدٍ . . .» .

فتوسلت اليه :

– «سيغموند !» .

وضحك في وجهها قائلاً :

– «ولم لا ؟» .

وناشدته متوسلةً :

– «لا تفعل ذلك ياعزيزي» .

– «حسنٌ . لن افعله» .

بالالمانية في الاصل .

بالالمانية في الاصل .

كان الماء يرتطم بباخرة كبيرة تجتاز الخليج وينكسر في موجاتٍ ناتئةٍ بارزةٍ ، وتجولت نفحة هواء ساخنة مقتربة ومبتعدة عنهما بين الحين والآخر .

وسألته (هيلينا) :

– «الن تتعب عندما تعود الى البيت ؟

وردد الكلمة بعدها مستفهماً :

– «أتعـــب ؟» .

فذكرته بنبرةٍ مليئةٍ بالرثاء :

– «انت تعرفُ كيف كان حالك عندما قدمت الى هنا» .

ضحك عند سماعه ذلك وقال :

– «اوه ، لقد ولى ذلك» .

ربتت على خدهِ بايقاعٍ آلي بطيءٍ وسألته مترددةً .

– «وهل سيعتريك الحزنُ ؟» .

واعاد بعدها :

– «الحزن !» .

– «ولكنك ستعيدُ حياتك القديمة ، وربما ستكون اسعد ، عندما تعود» .

فقال لها :

– «افترضُ ان الحياة القديمة هي التي ستستعيدني» .

رانَ صمتٌ بينهما ثم قالت له :

– «اعتقُد ياعزيزي اني ارتكبُت خطأ» .

فاجابها بنبرةٍ حادةٍ وهو يضغطُ رأسه الى الخلف كي ينظرُ اليها للمرة الاولى :

– «يجبُ ان اعيدك الى (بياترس) والاطفال غداً ، مثلما انت عليه الآن . .» .

وهتف بها عندما عضته الحقيقة وقد انتصب جالساً على نحو مفاجيءٍ :

– «لا تفكري في الغد ، اهدئي يا (هيلينا)» .

فسألته خائفةً :

– «لماذا ؟» .

فاعاد الكلمة بعدها :

– «لماذا !» .

بقي جالساً منحنياً الى الامام على الرملِ وهو يحملق بهيلينا ، فنظرت إليه فزعةً ، واخافتها اللحظة وافقدتها شجاعتها .

وبحركةٍ انفعاليةٍ وضعت يدها على يده التي كانت تضغطُ على الرمل بشدةٍ بينما كان محنياً الى الامام ، وفي الحال استرخى من تشنجه وابتسم لها واضبح لطيفاً ودوداً .

اسلمت «هيلينا» نفسها لذراعيهِ مثل طفل مهجور حيث استلقت شبه باكية وبينما كان يداعبُ جبينها باصابعهِ ، وحبات من الرملِ تسقط من راحته على خدها ، كانت تبكي بنشيجٍ جافٍ مثل طفلٍ يهربُ من مبضع الطبيب ويختبأ في صدر الام ، رافضاً ان يمسه أحدُ .

ولكنها تعرف ان غداً قادمَ شاءت ام أبت ، فإنكمشت على صدرهِ ، متوحشةً من رُعب الفراق والايام التي تليه . ان عليهما ان يتجرعا بعد غدٍ في كوبين منفصلين . وامتلأت برعبٍ مبهمٍ خوفاً مما يحدث . لقد اختفى الاحساس بتوحدهما ووحدة قدريهما .

كان (سيغموند) ايضاً خائفاً من رعب الفراق ، ولكنه على معرفة اكثر تحديداً بالخطوة اللاحقة من (هيلينا) . كان قلبه متأكداً من الفاجعة التي ستحل به بشكل مباشر ، فانكمش قليلاً ، وحاول بحركة عنيفة ان يجد مهرباً من اليوم القادم ونتائجه . ولم يكن يريدُ الذهاب . اي شيئ الاّ العودة .

في ذروة احساسها بالخوف ارتفع القمر في كبد السماء ، وابتدأ (سيغموند) يرى حافته المتوردة وراء البحر ، فتوقف فجأة صراعه مع نفسه ، وراقب مفتوناً الفرن الذهبي البيضوي الناري وهو يرتفعُ في السماء مبدداً نفسه ، وانثال سائلٌ ذهبي وانسكب على الامواج النائية حيث نفضته في قطراتٍ متوردةٍ ، وارتفع الكوب الذهبي المحمر الى الاعلى ، بارزاً امامه كبير الحجم جداً ، ومع ذلك لم ينكشف كله ، وببطءٍ . انفصل القرن الذهبي من الظلام في مؤخرة الامواج . كان القمرُ هائلاً ومرعباً . فمتى يا ترى توضعُ النفحةُ على مائدة البحر؟» .

ارتفع القمُر في النهاية امامه ، مكتملاً وهادئاً ، ثم تناول الليل كوب شرابهِ من الذهب الناري ، رافعاً اياه في حركة مهيبة نحو الاعلى ، تاركاً السائل الذهبي الرائع ينثالُ الى الاسفل فوق ماء البحر .

راقب (سيغموند) فيضان الذهب المضطرب . والذهب الشاحب وهو ينتشر كلما رفع الليل البلورة الشاحبة ، وهو يسكب اكثر فأكثر من الكوب الابيض حتى بدا القمر في النهاية هشاً وفارغاً .

عندئذٍ اهتزّ الضوء الابيض الذي لم يُستنفد بعد في الليل البهيم على قاع البحر . وتساءل (سيغموند) مع نفسه عن الكيفية التي سُيجمع بها ، وهمهم قائلاً :

– «ساجمعه داخل نفسي» .

وكانت النجوم والاجراف وبضع شجيراتٍ تراقب ايضاً . ثم فكر مع نفسهِ :

«اذا كنت قد سكبت حياتي ، فإنّ عيون الارض والسموات الغريبة ستجمعها مرة أخرى» .

وعندما استدار الى (هيلينا) ، وجد وجهها ابيض مشرقاً مثل القمر الفارغ .



الفصـــــل السابع عشرـــــ

استغرق (سيغموند) في النوم عند طلوع الفجر ، وطوال اربع ساعاتٍ حتى السابعةِ ، احتفنهُ رحم النوم وغذاه مرةً أخرى . وخاطب نفسه «لكن الاروع من كل هذا هو أن تستيقظ» ، وكان عندها ضوء الشمس البراق يطلُّ عبر الشباك ، وشروق الشمس الاخضر اللامع يتسربُ عبر الاوراق المتسلقةِ ، داعياً اياه للخروج الى الهواء الطلق .

كان الصبحُ جميلاً للغاية ، وقد تأملَّ (سيغموند) برقةٍ فائقةٍ بحيث ان عينية الزرقاوين ارتجفتا شفقةً بنفسهِ . والقت عليه وردة ابرة الراعي القرمزية نظرة عابرةً عندما مرَّ بها ، ولقد كان بمقدورهِ ان يرى وسط ذلك البساط القرمزي عيون الازهار الكئيبة وهي تعرض عليه الحب ، مثلما يرى المرء عيني جندي تحت خوذته وهما تجفلان . نظرت اليه كل الاشياء بعيونٍ يملؤها الجوى ، عارضةً عليه ، مخلوعة الفؤاد ، قليلاً من الحب .

وخاطب (سيْغموند) زهرة شيخ الربيع التي كانت تفغر فاها وزهرة الشيخ المكتئبة الخرقاء «انهم لطفاءٌ جداً» ، ورفرفت ثلاث فراشاتٍ صاعداتٍ هابطات في قفزاتٍ صغيرة مضطربةٍ من حوله ، ومدَّ (سيغموند) يده غريزياً الى الامام كي يلمسها . وقال لنفسه مهمهاً . «يا للمتسولين الصغار المهملين ! .» .

عندما وصل قمة الجرف ، كان الصباح هناك انيق المظهرِ يندفعُ نحو الامام بضوضاء وشروق حريريين كي يلتقي به . . لقد اختفت السفُن الحربية ، وكان البحر أزرق محملاً بسلةٍ مملوءة بالماس ، والسماء ممتلئة بجوىً ضبابي يشبه الحب . لم يميز (سيغموند) من قبل اطلاقاً العاطفة التي تربطه بالاشياء الأخرى ، فنحن لا نعرف قيمة الاشياء المألوفة ولا ندركُ صعوبة الاستغناء

عنها حتى نفارقها فنحطم قلوبنا . وكان كل شيء يردد : «لقد كنا جميعاً سعداء معاً .»

نظر (سيغموند) في عيونِ الصباح ضاحكاً وخاطبَ نفسه قائلاً :

«الدنيا رائعة جداً بغض النظر عما سيحدث» .

هبط الى الشاطئ وقد اكتست عيناه الزرقاوان بزرقة اشد من معاناة الليلةِ الماضية ، وابتسم بكبرياء الحب لنفسه . وخلع ملابسه قرب صخرة المذبح المعتادة ، وقال لنفسه يخاطبها :

«كم يبدو كل شيءٍ مألوفاً . فلقد تدورت خطوط هذه الصخرة كما تلائمُ روحي» . تلمسَ انحدار الصخرة الابيض الناعم بلطفٍ وباصابع مستكشفةٍ . بالطريقة التي يلمسُ فيها خدَّ (هيلينا) أو اطفاله . ولقد وجدَ متعةً هائلةً في تآلفه مع الاشياء ، وشبكت ريح ناعمة جداً وخجول . مثل فتاة . ذراعيها حوله ، وبدت وكأنها تسندُ خدها على صدرهِ فوضع كفيه تحت ذراعيه حيث كانت الريح تلاطفه ، واتسعت عيناه بمتعةٍ دَهَشِيةٍ وقال لنفسهِ :

«انهم لا يجدون فيَّ عيباً .» واضاف بينما كان يخوضُ في الماء الذي يصلُ الى ارتفاع حوضه . مِتجولاً فيه كما يسمع الاحتجاج المتظاهر بالغضب : «اعتقد انهم عرضة للخطأ مثلي . لذلك فأنهم لا يصدرون احكاماً» . ثم احتضن البحربين ذراعيهِ وسبح بهدوءٍ شديد ، فرفعه الماء الى الاعلى . محتضناً اياه . واتجه نحو صخور اللسان الارضي البيضاء التي كانت تنتصبُ امامه مثل بواباتٍ محصنةٍ جميلةٍ . متلألئة الى درجة انه توقع ان يجد طيور الحمام وهي تهدل فتبدو مثل العيون البيض داخل الكوى ، وان يرى طواويس بيضاً ذات اقدام خضر تهبط الدكات متعقبةً بريق الفضة .

وقال لنفسه وهو يسبح :

« إنَّ هيلينا على صواب» .

ولم يكن يسبحُ بالمعنى الدقيق . بل كان يتحركُ على صدر الموجةِ واضاف : «انها على صواب . فكل شيءٍ مسحور . لقد استحوذ عليَّ سحرها في النهاية . دعنا نَر كيف يبدو» .

عقد العزم على أن يزور خليجه الصغير مرة اخرى ، فسبح بحذرٍ حولَ الدكات التي كانت ظلالها الشاحبة عبر سطح الماء الزمردي تبدو مجرد وهم . لمسها (سيغموند) بقدمهِ ، فكانت صلبة وباردة وخطرة . سبح بعنايةٍ فائقةٍ بينما كان يتوجه نحو القوس الصخري ، حيث كانت ظلال اللسان الارضي تُكسب الماء برودةً . وهنالك تحت الماء ، عند قواعد الجدران الغاطسة . كان ثمة حشد من حوريات البحرِ ذوات خصلات شعر غامقة اللون وحوريات شابات ذوات شعر ناعم اخضر حي . يحاولن التسلق خارجاتٍ من الظلام الى النور ، وشعرهن يدورُ منثوراً . وكان (سيغموند) شبه خائف من محاولاتهن المسحورة .

ولكن المد حمله برقةٍ خلال البوابةِ العالية الى الشرفةً . ولقد كان فرحاً لاندفاعهِ الكاسح هذا . كانت جدران القوس البيضاء اللون اللحمية الملمس الممتلئة منقطة باضواء خضرٍ تتراقصُ داخلةً خارجة فيما بينها . حُمِلَ (سيغموند) بمركبةٍ خفيفةً تحت الجدران المزخرفةِ بالحلي ، وانحرف المدُّ ورماه ، بينما كان يسبح قرب الصخرة البيضاء المقوسة ، واصطدم مرفقه بالصخرة فتألم جداً . حبس انفاسه محاولاً استعادة المرح والسحر ، ولم يستطع تصديق ان ذلك الجانب الجميل الناعم من الصخرة الذي يشبه خاصرته بتموجات عضلاتها ، يمكن ان يؤلمه على هذا النمو . ترك الماء يحمله كي يستطيع الخروج الى حصى الشاطئ ، حيث قرفص على كتلةٍ صخرية دافئة واستدار كي يتفحص ذراعه .

كان الجلد قد خدش ولكن ليس بدرجةٍ سيئةٍ . كانت مجردُ قطع قرمزية ممزقةٍ ، بعد دقيقةٍ من ذلك . وقال راثياً نفسه :

«لا . من المستحيل ان تلحق الاذى بي . اعتقدُ اني كنت مهملاً» .

ومع ذلك ، فلقد تغير مزاج الصباح كله . جلس على الكتلة الصخرية يتأمل البحر . ومرحت السماء اللازورديه مع البحر . وهما يتبدلان الحديث بمتعةٍ ، وتهامس لسانا الارض الممتدان في الخليج معاً ، كانت كل حصى البحر ودمالج الشاطئ تلهو معاً . وخاطب (سيغموند) نفسه :

«بالتأكيد انهم لم يَروني . ولا يهتمون مثقال ذرة بي ، اني احمق حتى اتخيل نفسي واحداً منهم» . ولقد ناقض هذا الحنان الذي احاطوه به في الصباح عندما كان يقفُ على الجرف فاضاف . «لقد كنت مخطئاً . وكان ذلكَ وهماً» .

تطلع الى الخارج بأسىً مرة أخرى . كانت الالسن الارضية . مثل جيرانٍ مطلين من شبابيك متقابلةٍ في شارعٍ معلق . يتحدث بعضهم مع بعض . والصخورُ البيض هائمة في البحر متبوعة من كثبٍ بصخورٍ بيضٍ أخر . كان الجميع مشغولين وسعداء ، وكل واحد منهم مشغول بنفسه وبرفاقه الاخرين . بينما كان (سيغموند) وحيداً من دون رفيق .

«سيستمرون على هذا النحو وسيكونون سعداء مثلما هم الآن ، وحتى (هيلينا) ستضحك» . وفكر (سيغموند) في عبث الموت :

«لم نعد نتوقُ للموسيقى والضحك .
او للحبِ او الرغبة او البغضاء .
لم تَعد لنا حصةً فيها .
بعد أن اجتزنا البوابة .»

وسأل نفسه متمرداً :

«لِمَ أطردُ خارج اللعبة ؟» .

قطب حاجبيه واجاب نفسه :

«اوه يا آلهي . المحاجة القديمة !» .

ولكن فكرةً ازاحته من الصورة . وكانت تجربة مرةً جداً بالنسبة اليه .

«يجب أن اختفي مثل نفحة من مدخنة باخرة» .

تفحص نفسه واطرافه وجسمه باعتزازٍ وكبرياء ولقد كان جميلاً في عينيه .

«لا شيءَ مثلي قد اختفى مثل نفحة دخان ذابت في شروق الشمس» .

ومرة اخرى . تأمل (سيغموند) البحر . فكان يتألق كما لو انه يمزح ،

وهمس لنفسهِ وهو يضطجع على الرمل الدافئ :

«انا لا شيئ . انا لا أعدُّ . انا غير محسوس .» .

صرَّ على اسنانه بالم . ولم تكن هناك دموع . ولم يكن هناك ارتياح ، وهزةُ لهاث متشنج بينما كان يتمددُ على الرملِ . وطوالِ الوقتِ كان يتجادل مع نفسه ويرددً :

«حسنٌ . اذا كنت لا شيئ وانا ميت . فانا لا شيئ وانا حي» . ولكن المثل الشائع :

«كلب حي خيرً من أسدٍ ميتٍ» تبادر الى ذهنه كي يرد عليه .

كان يبدو ان من العار ان تموت . فذلك يعني أن تُهمل حتى من قبل اكثر مخلوقات الارض حقارةً . ولقد كان ذلك بالتأكيد خزياً عظيماً .

امّا (هيلينا) . فلقد كانت ساعتئذٍ تستحم في ساحل البحر نفسه . ولم تكن سبّاحة ماهرةً . الاّ ان متعتها الفائقة كانت تنحصرُ في استكشافها كل الكنوز الصغيرة ، فلقد كان العالم في عينيها صندوق عجائب كبيراً . يُخفي لعباً جميلة لا تُعدُّ ولا تحصى ، في كل واحدٍ من شقوقه ليفاجئها . ثم استحمت بعد ذلك في العديدِ من البرك الصخرية الدافئة ، جربتها الواحدة تلو الاخرى . ثم اضطجعت على الرملِ . حيث كانت اذرع المحيط البارد ترفعها وتَكتمُ انفاسها مثل عشيقٍ شرير .

«البحرُ هم ثقيل مثل سيغموند» . قالت لنفسها وهي تنهض لاهثةً ، محاولةً تحرير منخاريها من الماء . لقد كان ذلك صحيحاً . فلقد ملأها البحر . عندما كان يندفع فوقها ، بنفس الرعب الهائل الذي يسيطرُ عليها عندما يصبح (سيغموند) صامتاً وغامضاً ابان المد في عاطفته .

تجولت عائدةً الى بركتها الصغيرة . كانت البرك براقة واليفةً لا تندفعُ فوقها في لعبة الرعب التي مارسها البحر . انحنت فوقها لتراقب بتلات شقائق النعمان اللحمية وهي تتقلصُ عند لمس ظلها . ثم ابتدأت تضحكُ عندما اكتشفت ان الشقائق مرعوبة من دون سبب . كان المدَّ الجاري يقطر بين الصخور . يُوّسع ويُعَمقّ بركها الصغيرة . وتراجعت (هيلينا) نحو كهفٍ كبيرٍ

حول المنعطف ، حيث كان الماء يقرقرُ تحت طحلب الفوقس الحويصلي بين الصخور الكبيرة ، وكان الهواء بارداً ورطباً ، وتابعت طريقها عبر المنعطف المظلم من دون داعٍ ، وكانت ترتجف من ملمس اعشاب البحر الخشن تحت قدميها العاريتين . وتسرب الماء ينسابُ بين طحالب الفوقس بينما كانت تزحف على الصخور الكبيرة ، ثم يعود بخرير هادئ يبثُ الرعب فيها . على الرغم من ان ذلك لم يكن امراً كريهاً . ولقد احتاجت من اجل هذا ، الى شجاعةٍ اكثر مما كانت تستطيعُ استجماعه قبل ان تتمكن من النزول من صخرتها الى البركة التي امامها . كانت البركة مفروشة بغطاءٍ سميكٍ من الاعشاب البحرية التي كانت تنزلقُ تحت قدميها مثل الافاعي ، فتسلقت مسرعةً الى الاعلى باتجاه المنفذ .

عندما استدارت ، كان القوسُ المهدم امامها اشدَّ بريقاً من الشباك المتألق . كان من السهل عليها ان تصدق ان الجنيات المضيئات يقفن في حشدٍ في الخارج ، مهتاجاتٍ في خوفٍ رائع . وكن يرمين ملء ايديهن من الضوء في كهف التنين .

وقالت (هيلينا) وهي تتسلق ضاحكة نحو الامام .

«كم سيدهش لرؤيتي» .

وقفت تحت القوس مدهوشةً . كان البحرُ يتلألأ بنارٍ بيضاء ويتألق باللازورد مثلما يتألقُ الفحم بالاحمرارِ ، والحرارة تحت اللهب . كانت ثمة حروق بيض تتخلل وجه البحر ، بينما تتعلقُ فوقه السماء الزرقاء مزهوةً ، مثل دخان النار الآلهية الازرق . وقفت (هيلينا) ساكنةً متعبدةً . وغمرتها الدهشة عندما وقفت مقطوعة الانفاس ، عمياء تعرض نفسها طواعية للتضحية . احست انها تواجه الربَّ في بيته ، في توهجه الابيض ، فاستقرت ناره عليها مثل الروح القدس ، وانفجرت شفتاها في متعةِ اعجابٍ أنثوية .

مرت لحظةً ، ثم هرعت افكارها الى الامام مرتبكة ورددت :

«هذا رائع ، رائع جداً .»

نظرت مرةً أخرى ، فرأت الامواج مثل صفٍ من الاطفال يتسابقون يداً بيدٍ . يتبعهم ضوء الشمس ، ويمسك بهم من الخلف وهم يركضون حتى يسقطوا ، وضوء الشمس يتراقص فوقهم كلبٍ ابيض ، وقالت :

«ذلك مدهش حقاً» .

ولكن اللحظة كانت قد تلاشت ، ولم تعد ترى توهج الرب الهائل بين الامواج . وبعد فترةٍ ادارت وجهها بعيداً ، ثم وقفت تغسلُ ملابس سباحتها في البركةِ ، عندما قدم (سيغموند) نحوها وقال لها :

— «الم تعودي اذن ؟» .

فهتفت «سيغموند» ! وكانت تتأمله بعينين متألقتين ، كما لو ان من المستحيل انه التحق بها في هذا المكان النادر . كان وجهه يتوهج بحروق الشمس ، ولكن (هيلينا) لم تلاحظ ان عينيه كانتا تشعان بالتعاسة .

ردَّ مبتسماً :

– «انا هو في الحقيقة ! .»

فقالت له . وهي ما تزال تنظر اليه بدهشة متألقةٍ :

– «لم اتوقعك . كان من الاسهل ان اتوقع . .» .

وترددت في الكلام ثم استمرت قائلة وهي تنظر بلهفةٍ الى وجه (سيغموند) :

« . . . ايروس.* وهو يمشي قرب البحر . ولكنك مثله على اية حال .»

واردفت : «اليس الجو رائعاً هذا الصباح ؟ .»

تحمّل (سيغموند) نظرتها الواسعة السعيدة للحظةٍ ثم انحنى وقبلها ، وبقي يحركُ يده في البركة خجولاً وممتلئاً بالتناقض . كان وهو في نقطة الوداع المر ، يستطيع ان يرى ، خلف المتعة التي من حوله . هيكل حياته الحقيقية القبيح .

وسألته (هيلينا) بينما كانت تعصر ملابسها :

– «اليس البحر مدهشاً هذا الصباح ؟» .

اجابها :

«رائع جداً» :

ولكنه امتنع عن البوح بما في قلبه : «هذا صباحي الاخير وليس صباحكِ ، صباحي الاخير . والبحرُ مستمتعٌ بالنكتة وانتِ ممتلئة بالمتعة .» .

وردَّ قائلاً :

«نعم . الصباح مكتمل» .

وايدت (هيلينا) بحرارةٍ :

«هو كذلك هل لاحظت الامواج ؟ . انها مثل صفٍ من الاطفال يطاردهم كلب ابيض .»

ووافقها (سيغموند) :

«نعم» .

ثم سألته وهي تلمسه باطراف اصابعها عند مؤخرة عنقهِ وهو يقف الى جانبها :

«هل قضيت وقتاً ممتعاً ؟» .

---

* ايروس : اله الحب عند الاغريق يقابل كيوبيد عند الرومان .

فاجابها :

– «لقد سبحتُ الى خليجي الصغير مرة اخرى» .

هتفت مسرورةً :

– «هل فعلت ذلك ؟» ثم جلست قرب البركة التي كانت تغسلُ فيها رجليها من الرمل . ثم مدتها الى (سيغموند) كي يجففها .

قالت له :

– «انا جائعة جداً :

فاجابها موافقاً :

– «وانا كذلك» .

وردت بابتهاج :

– «احسُّ اني مستقرة هنا تماماً» .

وذكرها شيٌ ما في حالتهِ بقرب مغادرتها .

ضحك (سيغموند) عند سماعهِ ذلك . واصرت (هيلينا) قائلةً :

«يبدو زمان ابدي آخر . ذلك الذي يفصلنا عن قطار الثالثة وخمس واربعين دقيقة . اليس كذلك ؟» .

فقال لها :

– «اتمنى لو اننا لا نعود مطلقاً» .

فتنهدت (هيلينا) قائلة :

– «سيكون ذلك كثيراً على الحياة كي تمنحه . لقد حصلنا على شيٍ ما يا (سيغموند)» .

احنى رأسه ولم يجب . فاعادت الجملة :

«لقد كان شيئاً ما ياعزيزي» ؟ .

نهض (سيغموند) واحتضنها بين ذراعيه . وقال ووجهه مكتوم في ثوبها :

– «كل شيٍ» .

كان بامكانه ان يستنشق عطرها الطازج الرائع الناتج من البحر . وردد مرة اخرى :

«كل شيٍ !» .

ضغطت راسه بيديها وسألته :

«لقد احسنتُ صنعاً . اليس كذلك يا سيغموند ؟» .

كانت تشعر بمسؤوليتها عن هذه العطلة . فلقد كانت هي التي اقترحتها . وعندما انسحب اصبحت . رافضةً ان تتركه يتخلى عن كلمته . معلنةً انها سوف تدفع التكاليف ولقد وافق

عليها في النهاية . .
اجابها :
- «انت رائعة على نحو مدهش يا (هيلينا) » .
فقبلت جبينه فاضاف .
«انت كل شيئ » .
ثم ضغطت رأسه على صدرها . .

★★★

الفصل الثامن عشر

حلق (سيغموند) ذقنه وارتدى ملابسه ونزل لتناول الافطار، واحضرت السيدة (كيرتس) القهوة. كانت امرأة صغيرة هشة ذات اخلاقٍ نبيلة رقيقة، ثم قالت ولم تكن تخاطب شخصاً معيناً:

- «سيكون ماء البحر دافئاً هذا الصباح.»

وقف (سيغموند) على سجادة الموقد ويداه خلفه، يراوح بين رجلٍ وأخرى. كان يصيبه الحرج دائماً في حضرة المرأة الصغيرة اللطيفة، فهو لا يستطيعُ الشعور بالراحة امام الغرباء ولا بقدرته على عشق (هيلينا).

ردت عليها (هيلينا) موافقة:

- «نعم انه كذلك، دافئ مثل حليبٍ طازج».

فهتفت السيدة العجوز وهي تتأمل باعجابٍ تجربة (سيغموند) وحبيبته قائلةً:

- «هل شاهدتما السفن الحربية ؟»

اجابتها (هيلينا):

- «لا، لقد غادرت».

اما (سيغموند) فلقد راوح بين قدمٍ وأخرى بايقاع.

وسألت السيدة العجوز:

- «وهل ستعودان لتناول الغداء اليوم ؟».

وكانت (هيلينا) هي التي رتبت الامر.

واضافت السيدة (كيرتس) وهي تلقي نظرة على (سيغموند) الذي ابتسم لها مجبراً :
«اعتقد ان كليكما يبدو في حالة افضل الآن»
وخاطبته متعاطفةً :
«لقد كنت تبدو تعباً جداً عندما وصلت الى هنا» .
فعلقت (هيلينا) وهي تنظر اليه ايضاً :
- «لقد كان يجهدُ نفسه كثيراً في العمل» .
حنى رأسه الى الاسفل بينما كان يصفرُ من دون ان يصدر صوتاً .
ووافقت المرأة الصغيرة قائلة :
- «نعم . انكما لم تقضيا الاّ وقتاً قصيراً . ان من المؤسف انكما لا تستطيعان انتظار الألعاب النارية التي ستقام في (كوي) يوم الاثنين القادم . يقولون انها رائعة» .
رفعت (هيلينا) حاجبيها في دهشة مؤدبةٍ وسألتها :
- «الم تريها من قبل مطلقاً ؟» .
اجابت السيدة (كيرتس) :
- «لا لم يتسنَ لي ذلك قط ، ولكني آملُ ان اذهب هذه المرة» .
وقال (سيغموند) :
- «آملُ انك ستستطيعين» .
نظرت السيدة الصغيرة اليه ، واحست انها راضية تماماً بعد حصولها على كلمةٍ منه ، وقالت مبتهجةً :
- «حسنٌ ، لا بد أن البيضات قد نضجت الآن» .
ثم ذهبت وعادت مباشرة وهي تقول لهما :
- «لقد جلبت لكما بعضاً من قشدة الجزيرة وبعض الكشمش الابيض اذا كنتما ترغبان . يجب ان تتذكرا الجزيرة جيداً وتعودا اليها» .
فردت (هيلينا) ضاحكةً :
- «وكيف نستطيعُ غير ذلك؟» .
واجابها (سيغموند) مبتسماً :
- «سنفعل» .
عندما اغلق الباب عليهما في النهاية . جلس (سيغموند) شاعراً بالراحة . نظرت اليه (هيلينا) بمتعةٍ آلية فهي تصبح انانية جداً في حضرة السيدة الصغيرة الممتعة ، وقالت له بينما كانت ترفع عنقوداً من الكشمش الابيض الرائع :

– «هذا واحدٌ من الاماكن القليلة التي اشعر فيها اني في بيتي» .
فهتف (سيغموند) مبتسماً لها :
– «آه .» .
فاضافت :
– «واحدٌ من الامكنة القليلة التي يبدو كل شيءٍ فيها اليفاً ، وكل شخص ايضاً .»
وسألها بسخريةٍ رقيقةٍ
– «هل خلقت لك الكثير من الاعداء ؟»
فاجابته :
– «غرباء . يبدو اني احول كل الناس الذين اقابلهم الى غرباء» .
ضحكت مسرورة لهذه الطرفة . ونظر (سيغموند) اليها بانتباه مفكراً انها ستكون من بعده وحيدة بين غرباء .
– «هل علينا ان نذهب – ان نغادر مكان الاصدقاء هذا ؟» .
قال ذلك كما لو انه يتهكم فلقد كان خائفاً من اغرائها .
القت نظرة على الساعة الموضوعة فوق رف الموقد ثم ابتدأت العد وقالت ضاحكةً :
– «واحدة ، اثنتان ، ثلاث ، اربع ، خمس ساعاتٍ وخمس وثلاثون دقيقة . انه عمرٌ امامنا .»
ضحك (سيغموند) بينما كان يتناول من يدها عنقود الكشمش الجميل .



الفصـــل التاسع عشر

كان الهواء عذباً ودافئاً وهو يهبُّ عبر الطريق الصغير البعيد عن البحر الذي سلكاه في جولتهما الاخيرة . وعلى الجانب الآخر ، كان الطريق الابيض مثل حافةٍ معشوشبة سميكةٍ مسوجة بالبنفسج ، وتسلقت بعض الزهور الصغيرة الطائشة بفرحٍ جذع شجرة الطقسوس العجوز وهي تنظر بمكرٍ الى مضيفتها الخشنة . وتمشت (هيلينا) تراقبُ الازهار وتختلق الاوهام من حولها . وقالت تخاطبُ نفسها :

– «من أسمى هذه الازهار هواتف الجن ؟ . لا ، انها تشبه اطفالاً صغاراً متلفعين في مآزرهم . يالفرط سعادتهم ! . انهم اطفال يتلكأون على رصيف الصباح . انظر كيف يطيقون الريح المفاجئة ! وكيف يمرحون تحت شروق الشمس ! ، وعندما يتعبون فإنهم ينكمشون برقةٍ ليناموا ، وستجمعهم بعضُ الجنيات في الظلام معاً ، ولن يكونوا هنا في الصباح ، ضامرين بالين . . . لو اننا يمكنُ ان ننكمش ونتلاشى بعد انتهاء يومنا . . .» .

نظرت الى (سيغموند) الذي كان يمشي حزيناً الى جانبها وقالت له :

– «ان من الرائع الاّ تكون ثمة نكسات في الحياة» .

اجابها (سيغموند) الذي لم يستطع بالطبع فهم ما رمت اليه :

– «نعم !» .

ابتعدت عنه متجولةً بين العشب السميك بقامتها البيضاء الثابتة ، شاردة الذهن ورأسها منحنٍ الى الاسفل ، ولكنها كانت تشعرُ بالسعادة .

وسأل نفسه :

- «بماذا تفكر ياترى ؟ . انها تبدو مكتفية بذاتها ولا تحتاجني» .

قالت وهي تستدير وتنظر اليه من تحت حاجبيها مثل ساحرة مبتسمةٍ :

- «لقد كان الندى غزيراً جداً» .

واجابها :

- «يبدو انه كذلك» ومن ثم قال مخاطباً نفسه «انها لا تستطيع ترجمة نفسها الى لغة مفهومةٍ . اذ لا يمكن الاتصال بها . وهي مستعصية على الفهم ، لذلك فانها وحيدة ومخلصة لنفسها حسب . انها تريد فقط ان تستكشفني كبركة ماء بين الصخور ، وان تستحم بي ، وبعد فترة من ذهابي ستكتشف اني لست ذلك الشخص الذي لا يمكنُ الاستغناء عنه» .

قادهما الطريق الى الاعلى باتجاه التل الشرقي ، وحالما وصلا ، شاهدا على الجهة اليسرى منزلاً ريفياً احمر اللون . انيقاً ينحدر سقفه الواطئ ، الملون بلون الغسق الاحمر الى الاسفل باتجاه العشب الاخضر البارد . ولقد كان المنزلُ محاطاً ومزخرفاً بحافة من زهور بيضاء وصفراء وقرمزية الالوان تتلألأ بالندى .

كان ثمة رجل بدين يرتدي سترة من صوف (الالبكا) وقبعة بنمية ، يجلس على العشب العاري معطياً ظهره الى الشمس وهو يقرأ جريدةً . حاول الرجل من دون جدوى ان يتجنب سطوع الشمس على ما يقرأ . وفي النهاية اغلق الجريدة ونظر بغضبٍ الى البيت ، ولكن ليس الى شيءٍ محددٍ فيه ، ثم عاد فقرأ منزعجاً بضعة اسطرٍ أُخرٍ لكنه ما لبث ان نفض رأسه في قرارٍ مفاجيءٍ محملقاً في باب البيت المفتوح وصرخ :

- «إيمي ، إيمي !» .

لم يردَّ عليه احدٌ ، فرمى الصحيفة واندفع نحو الداخل . كانت سيماؤه ذات مظهرٍ غاضب ، ثم سُمِع وهو يصيح بصوتٍ جاف من غرفة الطعام ، وتبعت ذلك جلجلة أوانٍ نتجت من اصطدامه برجل المائدة في غرفة الجلوس .

قال (سيغموند) ضاحكاً :

- «ان مزاجه سيءٌ جداً» .

وردت (هيلينا) بازدراء :

- «لان الفطور متأخرٌ» .

فقال لها (سيغموند) :

- «انظري» .

اسرعت امرأتان ، احداهما سيدة عجوز ترتدي ثوباً كتانياً مقلماً بالابيض والاسود . والثانية شابة في ثوبٍ من القماش الهولندي ، وهما تحملان بعض الورود البرية باتجاه بوابة

الحديقة ، وقد استدار وجهاهما شطر البيت . كانتا مسرعتين ، ولم تتمالكا انفاسهما كي تستطيعا الكلام ، اندفعت الفتاة الى الامام ، وفتحت الباب للسيدة ذات الثوب المخطط التي اسرعت مندفعة فوق العشب ، وتبعتها الابنة التي اختفت ايضاً تحت الشرفة المظللة . سُمِعت بعد ذلك اصوات نسوية واطئة معتذرة يعلوها سباب رجلٍ مستاء ، فابتعد العاشقان كي لا يسمعا ذلك .

قال لها (سيغموند) :

- «تخيلي ان تلك هي مائدة الافطار» .

فردت (هيلينا) بنبرةٍ يشوبها الازدراء :

- «اشعرُ كما لو ان ديكاً سريع الاهتياج ودجاجات قد تشاجرت عبر طريقي» .

فقال (سيغموند) معنياً بالامر :

- «ان هذه الامور غالباً ما تحدث» .

ولم يرق له ازدراء (هيلينا) البارد . تحدثت اليه بابتهاجٍ ورقّةٍ بينما كانا يجتازان التل المنخفض كي يلتقيا تقوس الشاطئ ، وكان (سيغموند) سعيداً ايضاً ، ولكن الاحساس بالاهانة الذي لحقه البارحة من معاملتها له قد سكن داخله وجعله ينزفُ سراً مثل جرح . ولقد مزقه هذا النزيفُ الناتج من احتقار الذات حتى النهاية .

لقد رفضته (هيلينا) وسلمت نفسها الى اوهامها فقط . ولبعض الوقت اربكت (سيغموند) بما فيه الكفاية بربها ، اما البارحة فلقد كانت تصرخُ بحثاً عن عاشقها المثالي فلم تجد الاّ (سيغموند) ، ولقد كان ذلك هو الرمح الذي انغرس داخل احترامه لنفسه الممزقةِ . عندها خاطب نفسه باحتقارٍ :

- «على الاقل يجب ان يجد احدٌ ما أثر الرب فيَّ . ومن ذا الذي يستطيعُ ذلك ، اذا كنت لا اعتقدُ بوجوده داخلي» .

وفي شدة متعة ومعاناة هواه المتجسد . اتحدت الجزيرةُ امام ناظريهِ ببحرها وسمائها ، واصبحت مثل خرزة براقة ، وشعَّ جمالها كله من مصدرٍ واحدٍ . ورآه (سيغموند) عارياً ، رأى جمال كل شيءٍ عارياً في سحر الخرزة المتلألئ «ستختفي هذه الجزيرة غداً» وسيبحث عن الجمال فلا يجدُ الاّ القبح ، فما الذي يجب ان يفعله ؟ .

قالت له (هيلينا) وقد استعملت اسمه الاول القديم :

- «اتعرفُ يادومين ، تبدو متجهماً اليوم ؟» .

ضحك وهو يجيبها :

- «احسُّ بكل شيءٍ الاّ التجهم . اشعر اني اضعفُ من المعتاد .»

- «نعم . ربما انت كذلك . عندما تتحدث تكون لطيفاً على نحو مدهش ، ولكني اخافك عندما تصمت . عندها تبدو حزيناً جداً » .

ضحك لها مرة اخرى وقال .

- «او لن اكون شجاعاً ؟ . (الا تستطيعين استنشاق دخان روما وضجتها*» ، ثم استدار اليها بسرعةٍ واضاف :

- «اني اتساءلُ عما اذا قد لفظتُ ذلك بطريقة صحيحةٍ ، لقد مرت عدة سنوات منذ ان قرأت سطراً واحداً باللغة اللاتينية ، ولقد اعتقدتُ ان كل شيءٍ قد تبخر من ذاكرتي .»

فقالت له (هيلينا) بهدوء :

- «اخبرني اولاً ماذا يعني ذلك ، لاني لا استطيعُ ان أترجمَ الاّ نصف الشطر . لقد رميت كل دفاتري التي تحوي ذلك الهراء» .

فرد (سيغموند) وهو مرتبك تقريباً :

- «لماذا ؟ انها تعني دخان روما وضجتها ، ولكنه لامر مدهش يا (هيلينا)» ، وارتسمت على وجهه نظرة دَهشة غريبة مرة أخرى وقال :

- «ان من المدهش حقاً اني قد تذكرتُ ذلك » .

فقالت له مبتسمةً :

- «نعم . انك تبدو مدهوشاً» .

فاستمر قائلاً :

- «لا بد اني كنتُ في العشرين من عمري حينذاك . . .» ثم ابتدأ يعدُّ ، «لقد مرت اثنتان او ثلاث وعشرون سنةً منذ ان تعلمت ذلك ، ولقد نسيته الآن تماماً ، الله وحده يعرف كم مرَّ من الوقت على ذلك ، فانا مثلُ رجل غارق يشعر بانه قد مرَّ بهذه الذكريات قبل . . . ؟» .

وتوقف عن الكلام مبتسماً بسخريةٍ كي يلاطفها ، الا انها قالت له بنبرة تهكميةٍ تقريباً :

- «قبل ان تعود الى لندن» .

كانت غامضةً ، وفي ذلك الصباح لم تسمح لاية عاطفة عميقة ان تطفو على السطح ، كانت تنشد الراحة . لذلك قالت بنبرة هادئةٍ :

- «لا .» وبعد بضع لحظاتٍ ، وبينما كانا يتسلقان المرتفع الى حافة الجرف اضافت :

- «لا يمكنني ان ازعم باني أشمُّ رائحة دخان لندن ، فستارة الضباب لم تزل سميكةً . انظر ها هي !» .

واشارت الى الضباب الرمادي البنفسجي الثقيل المعلقُ مثل ستارةٍ مزركشةٍ على جدارٍ بين

---

* باللاتينية في الاصل .

السماء المنحدرة والبحر . وتذكرت ستارة ضباب صباح امس التي كانت سميكة وذهبية وثقيلة بحيث لم تستطع اية ريح ان تؤرجح حافتها .

اضطجعا على حشائش البرسيم الممتدة على حافة الجرف وراقبا البحر ، كان ثمة هدوء دافئ وكسول يغلقُ كل شيءْ . وفكرت (هيلينا) مع نفسها :

- «ست ساعات ونكون قد اجتزنا ستارة الضباب . لقد ابتدأ سمكها يتضاءل ، واني لأستطيع ان افتحها الآن بمجرد ان أحرك يدي من خلالها ، ولكني لن أحرك يدي !» .

كانت معاناة الليلة الماضية قد استنفدتها تماماً ، لذلك فانها رفضت ان تسمح لاية عاطفةٍ مشبوبةٍ بإثارتها هذا الصباح الى ان تصبح قويةً بما فيه الكفاية . كما ان (سيغموند) ايضاً كان تعباً ، ولكن افكاره كانت تجاهدُ مثل النمل على الرغم من نفسه وتتصارعُ باحثة عن حلٍ ما .

لقد رفضته (هيلينا) ، واحسَّ في سويداء قلبه بانه كان فاشلاً في تجربة الحب هذه ايضاً ، وبغض النظر عن الطريقة التي ناقض نفسه بها ، او اقناعه لنفسه بان من السخف التصور بانه كان عاشقاً فاشلاً لهيلينا ، الاّ ان احساساً جسدياً بالهزيمة قد تملكه تماماً ، نوع من العقدة المنغرسة في صدره مما لا يستطيع اي نقاشٍ او ظرفٍ او حتى (هيلينا) ان تدرك سببها ، لقد فشل في عشقه لهيلينا ، ليس من المدهش ان يتحول زواجه من (بياترس) الى كارثةٍ ، فقد اندفع الى الزواج عندما كان غريراً في السابعة عشرة ، ولم يكن يعرف اي شيءْ عن امرأته ، كما انها لم تكن تعرف أي شيءٍ عنه . وعندما تطورت روحه ونما فكره ، ولم تستطع (بياترس) التعاطف مع ميولهِ ، فلقد مال بالطبع بعيداً عنها ، وهكذا اصبح ، بعد عشرين عاماً ، غريباً بالنسبة لها تقريباً . ان ذلك ليس امراً مدهشاً ! .

ولكن لماذا فشل مع (هيلينا) ؟ .

طنَّ النحل بصوتٍ متقطعٍ فوق العشب المعطر الذي كان يتمايلُ من غير هدفٍ تحت حرارة الشمس ، وراقب (سيغموند) نحلةً ذهبيةً وراتنجية اللون ، وهي تغادر بتكاسلٍ وردة برسيم بيضاء . وتستدير لامباليةً باتجاه البحرِ ، مهمهمةً بصوتٍ يزداد رقةً بينما هي تتأرجح في الفضاء الممتد .

وقال لنفسه ، وهو يراقب البقعة السوداء وقد ابتلعها الظلام :

- «يا لها من حمقاء صغيرة ! .»

كان البحرُ المقوسُ مقفراً من السفن ، بينما كان الضوء يتراقصُ في دوامة على الامواج . وكل شيءٍ آخر يراقبُ ، بعيونٍ مفتونةٍ مثقلة بالحرارة ، تأرجح الضوء المتوحش .

واستمر (سيغموند) مفكراً :

«حتى لو كنتُ حراً ، فانا و (هيلينا) سنبتعدُ عن بعضنا . انها هي التي ستتركني . فهذه المرة

سأكون بطيئاً بالنسبة لها ، فهي شابة مفعمة بالحياة ، اما انا فلقد ابتدأتُ اشيخ . .»
«هل هذا سبب فشلي اذن ؟ كان المفروض ان امنحها من الحب ما يكفي لابقائها الى جانبي هذه الايام القليلة ، ولكني لست سريعاً ، فانا لا اتبعها ولا افهمها بسرعةٍ كافية ، كما اني اخاف الاكراه دائماً ، ولا استطيع ان اجبر ايما شخص لكي يتبعني»
«وهكذا وصلنا الى هذا الحال . انا خارجٌ من اعماقي ، مثل النحلة ، مبهورٌ بمنظرِ هذا الزخم من المتعة ، بهذا الفراغ الازرق ، ولكني لا اجد الآن اثراً كيما اتبعه . لقد طرت الى الحياة باكثر من طاقتي على العودة . فمتى استطيع ان ابتدأ الخطو عندما يختفي كل هذا ؟» .
ارتفعت حرارة الشمس ، وببطءٍ شديد غادرت صقور ذاكرة (سيغموند) تطاردُ فرائس افكاره ، واضطجع حاسر الرأس يراقب البحر ، والشمس تحرق اعمق فاعمق وجهه ورأسه .
وفكر (سيغموند) مشدوهاً :
«احسُّ كما لو انها تتأجج داخلي ، انها يقيناً تستهلك بعضاً مني ، ولعلها ستمرضني» .
وفي ذات الوقت ، وباصرار ، ادار وجهه وشعره الغزيرُ نحو الشمس . اما (هيلينا) فلقد تمددت في ظله ، واوقفت الحرارة كل فعاليات افكارها . وفي هذه اللحظة قالت :
– «الحرارة مزعجة يا (سيغموند) ، الا ننزلُ الى الماء ؟» .
نزلا زائغي البصر على ممر الجرف وهما مخدران بالشمس تقريباً . اختار (سيغموند) منطقةً رمليةً ساخنةً تخلو من الظلال واضطجع عليها ، فسألته (هيلينا) :
– «الا نذهب تحت الصخور ؟» .
فرد عليها :
– «انظري . . الشمسُ هناك تسقطُ على الجدران ، فتجعل المكان اشد حرارةً ويصبحُ الجو خانقاً» .
وهكذا اضطجعا تحت توهج الشمس . (هيلينا) تراقب الزبدُ وهو يتراجعُ ببطءٍ مع رذاذ ماء باردٍ ، بينما كان (سيغموند) يفكر مع نفسهِ . لقد كانت الحرارة مرعبة حقاً .
قالت له :
– «احسُّ يا (سيغموند) كما لو ان ذراعيَّ مغموستان في النار» .
اخذهما (سيغموند) من غير ان ينبس ببنة شفةٍ وخبأهما تحت سترته .
« أأنت متأكد ان ذلك لن يؤذيك ؟ الا يؤذي رأسك يا (سيغموند) ؟ . هل انت متأكدٌ من ذلك ؟» .
ضحكَ بغباء وقال لها :
– «لا ضير في ذلك»

كان يدركُ ان الشمس تحرقُ داخله وتؤذيه ، ولكنه كان يريد ذلك التخدير . وبينما كان يتأمل البحر وستاره ضباب (هيلينا) بأسىً قال لها :

«اعتقدُ ان بامكاننا البقاء معاً . . .» . ثم تهدج صوته واضافَ « . . . لو انك بقيتِ الى جانبي لفترة اطول ، فانا لم احصل عليكِ اطلاقاً» .

وادركت من رنة الفشل في صوته ان الامر متأخر جداً . كان ثمة رنين يأسٍ في هدوئه ، جعل (هيلينا) تلتصق به بتوحشٍ وهي تطلق صرخةً وحشيةً صغيرةٍ كما لو انها قد جرحت . أوشكت أن تلتصق بجانبه . انها لا يمكن ان تفقده ، ولن تستطيع الاستغناء عنه ، ولن تدعه يذهب . كانت (هيلينا) لحظتها مسعورة تماماً .

امسك بها مُطَمْئِناً ، وظلَّ صامتاً حتى عاودها الهدوء ، عندها همهم ، وشفتاه على خدها ، قائلاً :

– «كان المفروض ان اكون قادراً ، اليس كذلك يا (هيلينا) ؟» .

فصرخت به :

– «انت قادر دائماً ، ولكني أنا التي لعبت معك لعبة الاختفاء» .

فقال لها :

– «اني لم امتلككِ الاّ قليلاً .»

فهتفت به :

– «الا تستطيعُ نسيان الامر يا (سيغموند) ، الا تستطيع نسيانه ؟ ، انه مجرد ظل ؛ كذبة ولا شئ حقيقي ، الا تستطيع نسيان الامر ياعزيزي ؟» .

وسألها :

– «الا يمكنكِ الاستغناء عني ؟» .

فاجابته بنبرةٍ حاسمةٍ سريعةٍ :

– «اذ أضعتك فإني ساضيع نفسي» .

لم تكن على معرفةٍ مسبقةٍ بالبكاء . ومع ذلك ، كانت دموعها تبلل وجهه ، فامسك بها مهدئاً ، وذراعاها مختبئتأن تحت سترته ، وخاطبت (هيلينا) نفسها قائلةً :

– «لن ارحم تلك الاشباح في المرة القادمة عندما تحول بيننا ، يجب ان تذهب الى الجحيم» .

ظلت ملتصقة به ، تواقة للاحتفاظ به كيما لا يضيع منها . واحسَّ (سيغموند) بالهدوء ، فاضطجع شابكاً ذراعيه حولها ، مصغياً الى المد المتراجع . وكانت افكاره مثل نحل يطير باتجاه البحر فيضيع .

– «لو اني بقيت معها لفترة اطول لاستطعت فهمها تدريجاً ، ولو كنا الى جانب بعضنا لامكن ان ننمو معاً . لو استطعنا ان نبقى هنا لاصبحت اقوى واكثر اعتدالاً» .

كانت تلك الفكرة هي مالك الحزين الذي اصطادته صقور افكاره .

سقطت ساعةٌ اخرى مثل زهرة قفاز الثعلب من ساقها ، ولم يتبق الاّ برعمان صغيران حمراوان ، وستبدأ الساق بتكوين البذور . حَنَتْ (هيلينا) رأسها على صدر (سيغموند) وذراعاها متشابكتان تحت سترته وجسده الذي كان ممتلئاً وغاطساً بقوته العظيمة الهادئة ، و فكرت (هيلينا) متمنيةً .

– «لو ان ساعات العالم تتوقف كلها الآن وتتركنا على هذه الحالة ، وجسد (سيغموند) القوي بين ذراعي» .

ولكن الساعة استمرت تنبض في الجو الحار ، وتأشرت الدقائق بسقوط الامواج التي كانت تعود برشاقةٍ وفي ايقاعٍ هشٍ جَعَلَ الصمت لذيذاً .

وصلّى (سيغموند) قائلاً :

– «لو يمسحُ الموت الان العرق عن جسدي ، وتظلم الدنيا . . .» ولكن الامواج اشرت الدقائق بنعومة وهي تتراجع نحو الافق ، تاركة الصخور العارية كي يُقصر لونها تحت اشعة الشمس والاعشاب كي ترتجف .

وبالتدريج ، مثل ظلٍ على ميناء الساعة ، تسلط عليها الاحساس بان وقت المغامرة قد حانَ . وعلى الرغم من انهما بقيا صامتين الاّ أن كلاً منهما كان يعرفُ ما يشعرُ به الآخر وبالقدر نفسه . وتحرك الظلُّ واصبح فوقهما . كان البديلُ هو الاّ يعودا وان يتركا العقرب يدور ويذهب . ولكن (هيلينا) كانت تعرفُ انها يجب الاّ تدع الوقت يتجاوزها ، وان عليها ان تنهض قبل ان يتأخر الوقت ، وان تسافر قبل العقرب القادم ، وتمنى (سيغموند) لو انها لن تنهض . واستلقى منتظراً قلقاً . وفي النهاية نهضت على نحوٍ مفاجئ وقالت له :

– «لقد أزِفَ الموعد يا (سيغموند)» .

لم يجبها ولم ينظر باتجاهها ، بل استلقى كما تركته ومسحت وجهها بمنديلها منتظرةً ، ثم انحنت فوقه فلم ينظر اليها . رأت جبينه متورماً وملتهباً من حرارة الشمس . مسحت العرق المتلألئ برقةٍ فاغلق عينيه ، ثم مسحت خديه وفمه ، ومع ذلك لم ينظر اليها . انحنت قريباً جداً منه وهي تحسُّ بقلبها ينصهر حُزْناً عليه وهمست في أذنه :

– «لا بدَّ ان نذهب يا (سيغموند) .»

فردَّ قائلاً .

– حسنٌ» .

ولكنه لم يتحرك ايضاً .

وقفت الى جانبه . رتبت نفسها ، وحاولت ان تستنشق قليلاً من الهواء ، وكان ضوء الشمس يُعشي بصرها .

استلقى (سيغموند) في الضوء المتألق بعينين مغلقتين ، ساكناً لا يتحرك ، وجهه ملتهبٌ ولكنه جامدٌ مثل قناع .

انتظرت (هيلينا) حتى سيطر عليها رعب الاحساس بالزمن المار ، فرفعت يده التي كانت تستقُر منتفخةً بتأثير الحرارة على الرمل ، وحاولت ان تسحبه برقة ، وقالت له بنبرة حزينةٍ :

– «سنتأخر» .

تنهد ونهض متأملاً البحر . ولم تطق «هيلينا» ان تتحمل منظره وهو مشدوه ساكن القسمات . وضعت ذراعها حول رقبته ، وضغطت يده على تنورتها . كان (سيغموند) يعرف انه يزيدُ الامر عسراً عليها ، فلملم شعاث نفسه الى بعضها ، وغضَّ بصره عن البحر وقال :

– «لماذا ؟ ما الساعة الآن ؟» .

اخرج ساعته وأمسك بها ، وكانت (هيلينا) لا تزال ممسكةً بيده اليسرى وذراعها الاخرى حول رقبته ، فقال لها :

– «لا استطيع رؤية الارقام ، وكل شيْ يبدو معتماً كما لو ان الدنيا مظلمة» .

فاجابت (هيلينا) بنبرتها المميزة المؤلمة الهشة :

– «نعم ، اني أعاني من الشيْ نفسه . اعتقُد ان ذلك بسبب ضوء الشمس الساطع » .

وكرر القول مدهوشاً :

– «لا استطيع . لا استطيع رؤية إرقام الساعة . هل تستطيعين انتِ ؟» .

انحنت ونظرت الى الساعة قائلةً :

– «انها الواحدة والنصف» .

كره (سيغموند) صوتها عندما نطقت ذلك ، فلا يزال ثمة متسع من الوقتِ للحاق بالقطار . نهض متهيئاً وهو يقول :

– «اشعرُ أن بي دواراً من الحرارة ويصعب علي ان ارى ، كما ان احساساتي داخل جسدي تبدو متبلدةً .)

فردت (هيلينا) :

– «نعم ، انا خائفة من ان الشمس قد تؤذيك .»

ابتسم لها كما لو انه نائم وقال :

– «على اية حال ، لقد حصلت على ما يكفي . فاذا كان ذلك كثيراً ، فما يعني الكثير» ؟

سلكا طريقاً ملتوياً يمرُ عبر الرمال وقد غشت الشمس عيونهما :

— «اننا عائدان ، اننا عائدان !» .

ابتدأ قلب (هيلينا) يزداد وجيبه وهو ينبض بهذه الكلمات .

تسلقا الطريق المتسلق نحو قمة الجرف بعناء ، وعندما وقفا في القمة على حافة العشب ، نظرا نحو الاسفل باتجاه الساحل وعلى امتداد البحر ، وكان الشاطئ يبدو واسعاً وقد هجره البحر ، مهملاً الآ من بضع صخورٍ تقصرها الشمس ، والرمال واعشاب البحر تتنفس عطرها المؤلم تحت وهج الحرارة ، زحف البحر مبتعداً وتضاءل حجمه في البعد ، وانتصبت السماء صامتةً . راقب (سيغموند) و (هيلينا) يائسين عالمها الجميل المتوهج ، ونظر احدهما الى الاخر بتعاسةٍ . كان مزاج (سيغموند) هادئاً ونبيلاً ، وابتسم بوهن الى (هيلينا) ثم استدار رافعاً يده الى فمه ليضع قبلة للجمال الذي استمتع به وقال :

— «اديو»

ثم استدار وهو ينظر عبر (هيلينا) باتجاه اليابسة ، وقال وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة :

— «انها تذكرني بقطعة (ترافياتا) الموسيقية ، اذ ترد لازمة (اديو) في نهاية كل مقطع» .

ابتسمت له باتساع فمها تقديراً لتهكمة الساخر . لقد كان يسخر منها ، واحسَّ بوخز من تحفظها :

«اديو . . . اديو . . .»

صفر بين اسنانه ، مهمهاً بمقطوعةِ الحب الايطالية بطريقةٍ جعلت (هيلينا) تشدًّ قبضتيها وقالت وهي تبتلعُ وتستعيد صوتها كيما تتأكد من ازدرائها :

— «اعتقدُ ان سفرتنا يوم الخميس ستكون سهلةً» .

وردَّ (سيغموند) :

— «لا ادري» .

فاصرّت قائلةً :

— «لن يكون هناك الكثير من الناس .»

قالت لها بصوتٍ هادئٍ جداً :

— «اعتقد أنّ من الافضل ان تدعيني اسافر بقطار الجنوب — غرب المنطلق من (بورت سموث) بينما تسافرين أنتِ بقطار (برايتن)» .

فهتفت مدهوشةً .

— «ولكن لماذا ؟»

اجابها :
- «لاني لا أريدَ ان اجلس وابحلقُ بكِ طوالَ الطريق» .
فهتفت قائلةً :
- «ولماذا تفعل ذلك ؟» .
ضحك لها فأردفت :
- «لا ، ارجوك ، سنذهب معاً» .
واجابها موافقاً :
- «حسنٌ» .
استمرا بالتجوال صامتين متجهين نحو القرية . وعندما اقتربا من دائرة البريد الصغيرة .
قال لها :
- «اعتقُد ان من الافضل ان ارسل لهم برقية اخبرهم فيها بميعاد وصولي الليلة» .
فسألته :
- «الم ترسل اية كلمة ؟» .
ضحك لها . وعندما وصلا باب الدكان الصغير المفتوح وقف ساكناً من غير ان يدخل .
وتساءلت (هيلينا) عما يجول في خاطره ، وسألها :
- «هل افعل ؟» قاصداً هل يبرقُ الى (بياترس) ؟ . كانت طباعة غريبة بعض الشيء .
تهدج صوت (هيلينا) قائلةً :
- «اعتقدُ ذلك» .
واستدارت مبتعدةً عنه كيما تتفرج على البطاقات البريدية . المعروضة في واجهة المحل . بينما دخل (سيغموند) الى الدكان الذي كان مظلماً ومزدحماً بمناظر وزخارف صينيةٍ رخيصة ودمى . طلب نموذج برقيةٍ من السيدة الواقفة ، وهمس لنفسه بمرارةٍ وهو يتناول القلم .
«ياالهي . . .» فلقد كان لا يستطيع التوقيع بالاسم المختصر الذي تستعمله زوجته . خربش اسم عائلته كما يفعل مع غريبٍ ، وعندما راقب المرأة البدينة الودودة وهي تحصي الكلمات بعنايةٍ مشيرة باصبعها ، احسَّ بالغثيان والمرارة .
قالت السيدة :
- «كل شيءٍ على ما يرام .»
ثم اخذت البنسات الستة وادخلت النموذج في الجهاز . بينما استطردت قائلةً :
«ياله من جو رائع ، سيجعلك ذلك تندم على مغادرتنا» .
فكر (سيغموند) مع نفسه وهو يراقب قطعة الورق الرقيقة تقبع تحت يد سيدة البريد

الثقيلة :

« هذا قرار سجني يتم ارساله» .

ثم انحنى بلطفٍ للسيدة وقال لها .

«نعم ، انه لامرٌ مؤسف حقاً» .

فاجابته مبتسمةً :

«انه كذلك يا سيدي ، وداعاً» .

خرج من الدكان وهو لا زال مبتسماً وعندما ادارت (هيلينا) وجهها لتنظر اليه ، سكنت خطوط الضحك على وجهه مثل قناع . القت نظرةً على عينيه بحثاً عن علامة فلم تخبرها تقاطيع وجهه عن اي شيءٍ . كانت عيناه مبهمتين جعلتاها تشعر بالحزن وسألت نفسها :

«بماذا يفكر ياترى ؟» واعادت افكارها الكرة مرة اخرى : «ولم سألني على هذا النحو ، وكان المفروض ان يرسل برقية الى البيت» .

سألها :

– «هل رأيتِ الكثير من البطاقات البريدية ؟» .

اجابته :

– «لا شيءٌ يستحق الشراء ، ربما تريد واحدة من هذه» . وكانت تشير الى بعض البطاقات البريدية ذات الألوان الشاحبة التي كانت مناظر خيالية لخليج (الوم) صُنِعت من الرمل المبرقش . فابتسم لها (سيغموند) قائلاً :

– «هل قطروا الرمل عليها بانبوبٍ زجاجي رقيق ؟» .

فردت (هيلينا) :

– «او بفرشاةٍ» .

وقال (سيغموند) لنفسه :

– «انها لا تفهم . . . يجب الآ أخبرها عن اي شيءٍ افعله ، لا بد اني اعتقدتُ بانها ستفهم» .

وعندما كان يمشي الى جانبها ، اختلط باحساساته الاخرى استياؤه منها ، لقد كرهها تقريباً .



الفصـــل العشرون

في البداية كانا وحيدين في عربة القطار. جلسا متقابلين متجنبين النظر الى بعضهما، يحدقان عبر الشبابيكِ ويراقبان البيوت والتلال المستغرقة في النوم تحت الشمس، وكانت دكاتّ سكة الحديد بأزهارها المستنفرة الساخنة تمرُّ من امامهما متباطئة ثم ما تلبث ان تختفي بعيداً عن بصرهما. احسّا كما لو انهما قد أُقتيدا كمجرمين، فظلا يحدقان عبر الشبابيك غير قادرين على الحديث او التفكير، وكانت (هيلينا) تحاول من دون جدوى ان تكفكف دموعها، بينما كان (سيغموند) يصارع نفسه كيما يصبح قادراً على التنفس بانتظام.

عندما فُتح باب العربة في (يارموث)، كانت ثمة فوضى صاخبة ناجمة من الهرولةِ والصياح، وتمسك حشدٌ صاخب بباب العربة الذي ملأه في الحال رجل بدين يدفع حقيبةً جلدية امامه وهو يصيحُ في جماعته باللغة الالمانية قائلاً ان ثمة متسعاً من المكان للجميع. جاهدت وجوه لا تعد ولا تحصى، ساخنةً، زرق العيون كيما تحملقُ من فوق كتفيه بالفتاة المرعوبة والرجل المدهوش.

دخل ثمانية المان الى عربة الدرجة الثانية تلك، خمسة رجال وثلاث سيدات، وعندما تم ترتيب الحقائب في النهاية، إنحشر الجميع في المقاعد، وكان على الرجل الاخير في كل جانبٍ من المقاعد ان ينزل بعنايةٍ مثل حافة سكين بين جارية.

راقب (سيغموند) الرجل الذي كان يقود المجموعة، وهو يحشر نفسه بين زوجته البدينةِ و (هيلينا) الضئيلة. ولقد لزّت الاخيرة نفسها بجانب العربة كثيراً، بينما هبط جسد الالماني الى الاسفل للتضييق عليها، حاولت ان تضغط نفسها باتجاه شباك العربة كي تهرب من ضغط

لحمه الذي كانت تتسرب حرارته اليها ، وبينما كان الرجلُ يضغطُ في الاتجاه المعاكس قال لها مبتسماً بطريقته الالمانية الشهمة النبيلة :

- «أخشى اني أضايقكِ» .

القت (هيلينا) نظرةً خاطِفَةً عليه ، وأعجبت بعينيه الرماديتين ونبرة صوته اللطيفة ووقع كلماته المُسُرّ واجابته :

- «لا ، انك لا تضايقني» .

وقبل ان تنهي كلامها تقريباً استدارت نحو الشباك ، وبدا وكأن الرجل ظلّ متردداً للحظة ، كما لو انه يحاول ان يستفيق من هذا الصدّ قبل ان يتمكن من مخاطبة زوجته بملاحظة ساخرة بالالمانية قائلاً :

- «لقد تمَّ كل شيْ على ما يرام ، اليس كذلك ؟» .

بدأت المجموعة كلها بالثرثرة باللغة الالمانية بحيويةٍ فائقةً . قص احدهم على الاخر عن الجوانب الطريفة لهذا الامر او ذاك ، واطلقوا النكات بصوتٍ عال عن (بلي) ، وهو اسم الشهرة الذي اطلقه الالمان على امبراطورهم ، وعما سيقوله عن رحلة القيصر ، وسأل بعضهم الآخر واجابوا بعضهم الآخر بمتعةٍ هائلةٍ ، عما يتعلق بالامكنة التي سيذهبون لرؤيتها ، مظهرين معرفةً مدهشةً ، وكانوا مسرورين بكل شيْ من حولهم .

ابتدأ جار (هيلينا) البدين الذي كان من مدينة (درسدن) على ما يبدو يحكي نوادر ، كان محّدثاً من النوع الساذج الذي يتحدث بوجهه ويديه وكل اجزاء جسمه . وبين الحين والآخر كان يتماسك قليلاً في مقعده . وبعد واحدةٍ من هذه الحركات ، اصبح على وعي بوجود (هيلينا) التي احست كما لو انها تغلفت بفرنٍ ناعمٍ فحاولت أن تهرب من ضغطه . عندها انحنى قليلاً . ورفع قبعته . وابتسم لها متوسلاً قائلاً بطريقةٍ مقنعةٍ :

- «انا آسف . انا آسف لاني اضغطك» .

نظر من حولهِ بارتباك باحثاً عن مهربٍ او علاج . وعندما لم يجد شيئاً من ذلك ، استدار اليها مرة أخرى بعد ان ضغط بشدةٍ على زوجته كيما يحررُ (هيلينا) وقال :

«اغفري لي . انا متأسف» .

- «لا باس عليك» .

ردّت (هيلينا) مبتسمة على نحو مفاجئ بفتنتها النادرة . ولقد ارتاحت المجموعة بكاملها لهذه الابتسامة واكتمل مزاجها . قال لها الالماني ممتناً :

- «شكراً لكِ» .

استدارت (هيلينا) وابتدأ الحديث مرة أخرى مثل فرقعة الذرة ، وعاد القاص يحكي

نوادره من جديد ، كان الجميع ينتظرون ان يضحكوا ، وتعبت (هيلينا) بسرعة من محاولتها لتتبع القصة ، بينما لم يقم (سيغموند) باية محاولةٍ في هذا الاتجاه ، بل راقب مع الاخرين اعتذارات الالماني ، ولشدَّ ما اثرت فيه قسمات وجه حبيبته اكثر مما يستطيعُ البوح به .

كان يتلبسها في بعض الاحيان حزنٌ طفولي غريب . وفي تلك اللحظة ، اخترق قلبه احساس بعزلةٍ خفيةٍ لا يُدركُ كنهها . بدا له وكأن المفروض الاّ يعرفها مطلقاً . فلقد كانت تبدو بعيدة عنه . وثمة نوع من الجفاء بينها وبين كل الاشياء اليومية الطبيعية ، كما لو انها انحدرت من جنسٍ مجهولٍ لا يستطيعُ مطلقاً ان يفك مغاليق قصته . كانت هذه الاحاسيس تُثير اعمق مشاعر الحزن في (سيغموند) وتتركه عديم الحيلة على نحوٍ فظيع . كان الامر يبدو في بعض الاحيان كما لو انها تقدمه ضحيةً بدلاً من ان تُعلنَ من جديدٍ ولادتها الغريبة . كان ثمة شيءٌ ما فيها استعصى على فهمه ، وبالتالي ، لم يستطع الادعاء مطلقاً انه كان سيدها مثلما كانت هي سيدته .

وعندما ابتسمت واستدارات بعيداً عن الالماني خرساء قانعةٍ مثل طفل عاقلٍ يُظهرُ اسىً لا يتناسبُ مع سني عمره ، احترق نفور (سيغموند) منها ، وتوهج في داخله الم مجردٌ نابعٌ من الرثاء . كانت ضئيلة جداً ، ولقد جعلتها تصرفاتها الهادئة ، والتصاقها الطائش به في بعض الاحيان ، تبدو صغيرةً على الرغم من انها كانت قوية جداً ، ولكن (سيغموند) رآها الان صغيرة وهادئة وقانعةً ، عائشة من اجله ، هو الذي كان يجلسُ وينظر اليها . ولكن ما الذي سيحدث لها عندما يتركها ، فترجع وحيدة غريبة ، مثلما كانت ، في هذا العالم . اية اعتذارت تنفع عندما يصيبها الاذى الذي يكون قد اعماها فلا تستطيعُ رؤيةٍ ما يحدث لها . ستبقى (هيلينا) من بعدهِ . لان الموت لا يمثلُ حلاً بالنسبة لها ، وبالتالي ، فانها لن تستطيع الهرب معه على هذا النحو من بيت الغرباء هذا الذي تسميه (الحياة) . ان عليها ان تستمر وحيدةً مثل اجنبيٍ لا يستطيعُ تعلم لغة غريبةٍ . وخاطب (سيغموند) نفسه :

«ترى مالذي ستفعله عندما تطبق وحدتها عليها كالرعب ، ولن يكون لها اي شخص آخر كيما تلجأ اليه ؟ ستعود الى ذكرياتي فترة من الزمن ، وسيستغرقها ذلك بعض الوقت حتى تنمو قدراتها . ولكن مالذي يحدثُ بعدئذٍ» ؟

لم يحر (سيغموند) جواباً . حاول ان يتخيل حياتها . وانها ستستمر بعد وفاته بالطريقةِ نفسها لفترة من الزمن . ولكن ماذا بعدئذٍ؟ لم تكن لديه ادنى معرفة مسبقةٍ بالطريقة التي ستتطور حياتها بها ، وعما ستفعله عندما تصبحُ في الثامنة والثلاثين ، اي في مثل عمره . لم يكن يستطيعُ تخيل ذلك . ومع ذلك فانها لن تموت وكان متأكدا من ذلك .

ادرك (سيغموند) ، وعلى نحو مفاجيءٍ ، بانه لا يعرفُ شيئاً عن حياتها ، حياتها الداخلية

الحقيقية . كانت كتاباً مكتوباً بحروف مبهمةٍ بالنسبة له او لأي شخصٍ آخر ، ولقد أرقته مشكلتها حتى استفحلت ، فاحسَّ كما لو ان قلبه يكاد ينفجر في داخله . ولقد جرب الاحساس هذا من قبل عندما كان طفلاً بعد تفكير دام ساعة في مسألة في درس الهندسة الاقليدية . لانه كان يمتلكَ عندئذٍ قدرةً فائقة على التركيز .

احسَّ ان (هيلينا) كانت تراقبه . وعندما استدار وجد عينيها الثابتتين المستقيمتين مسمرتين عليه . فتقلص مرتبكاً امامها . ابتسمت له ، وبحركةٍ غريزيةٍ اشعرته انها تُريدُ منه ان يمسك يدها . انحنى الى الامام ، ووضع يده فوق يديها ، كانت يداها غريبتين صغيرتين ملمسهما حريري غريب ممتع وغالباً ما تكونان باردتين وتستقران ثابتتين على الدوام في راحتيه ، ولكنهما عندئذٍ تصبحانَ مفعمتان بالحياةِ وغير خاملتين . وكان يشعرُ في بعض الاحيان بارتعاش غريب في نبضه يشبه الكهرباء كثيراً عندما يمسك يدها ، واحياناً كان ذلك يبدو مؤلماً ، فيشعُر كما لو ان حياة صغيرة تتسرب خارجة من دمه ، ولكنه يطرد تلك الفكرة من ذهنه باعتبارها هراءً .

كان الالمان لا يزالون يثرثرون ويتعرقون ويمسحون وجوههم بمناديلهم ، وهم يضحكون ويتحركون داخل ملابسهم الملتصقة على جوانبهم ، ولقد تخلى (سيغموند) عن مراقبتهم بعض الوقت . فقد كان مستغرقاً تماماً . اما (هيلينا) ، وعلى الرغم من انها كانت تتعاطف مع رفاق سفرها . الاّ انها كانت منزعجةٍ الى حد يفوق قدرتها على الاحتمال ، بسبب الضوضاء وحرارة جسد جارها وجو العربة المزدحم ومشاعرها العاطفية . كان الشيْ الوحيد القادر على التخفيف عنها هو يد (سيغموند) عندما تربت عليها .

نظرت اليه بثبات جعل عينيها تبدوان ثقيلتين وجعلتاه يجفل . ارادت قوة اعصابه كي تساعدها . واستسلم لها في الحال . كان هدفه ان يعطيها من نفسه اي شيْ ارادت .



الفصل الحادي والعشرون

كانت حشود الزوارق الطويلة البيضاء تتجولُ على مبعدة من طرقات مدينة (رايد) . وكان موسم سباق الزوارق يكاد يحلُّ ، لذلك . فلقد طارت تلك المخلوقات المتكبرة بزهوٍ مع بعضها . وهاهي تنتقلُ الآن بسرعةٍ من مكانٍ الى آخر . مثل حشد من النساء الطويلات . وهي تتقافز على الامواج بخطوها الرشيق . كانت تبدو جميلة جداً في عيني (سيغموند) . ولكنها كانت نائية عن تفكيره . مثلما يبدو راقصون يجتازون الشبابيك المضاءة في عيني شخص يراقبهم من الشارع . رأى مضيق (سولنت) وعالم السحر يحلقُ فَرِحاً مثل الثلج في الخارج . بينما كان (سيغموند) في الداخلِ بمفردهِ . تعباً وخاملاً وحزيناً .

تسلق هو و (هيلينا) لفات الحبال الموضوعة في مقدم سفينتها . حتى يصلها رذاذ الماء المتناثر فيجدد نشاطها . كان البحرُ متألقاً جداً ومزدحماً . وكانت الاشرعة البيضاء منحنية قليلاً ومصطفة على الطرقات . وثمة زورقان طافيان بشراعين بلون الكهرمان يبدوان ساكنين وسط زرقة النهار المعتمة . وزوارق صغيرة ذات اعلامٍ حمرٍ وصفرٍ ترفرفُ بسرعةٍ ملونة البحر . وهناك باخرة نزهة قادمة من (كوي) تشقُّ طريقها البدين الهش وسط البواخر المبحرة . وفي الافق . كانت السفن الحربية تشكل خطاً طويلاً . تنتظم على كل واحدةٍ منها مثلثات صغيرة من الاعلام في سماء مظلمة بعيدة .

خاطب (سيغموند) نفسهُ : «يبدو ان الجميع سعداء . لكنها سعادة وهمية على مايبدو» .

كان بعيداً عن كل ذلك تماماً . واحسَّ انه منفصلٌ عن الحياة ومحكومٌ بقدره : كان الامر كذلك دائماً . فليست لنا حصة من الجمال الذي يقبع بيننا وبين اهدافنا .

راقبت (هيلينا) باسىً حاد تموجات اللون على ذلك الأصيل الازرق . وتفجعت مرة اخرى :

«يجب ان نغادره . يجب ان نتخلى عنه» كانت تمتص كل متعة جديدة بلهفةٍ شديدة ، وقالت لنفسها وهي تراقب الباخرة المحملة المتجهة الى (بورت سمث) «انا احبُ حركة سفينة الشحن ذات الشراع البني الوئيدة» .

بينما كانا وسط السفن الصغيرة في (رايد) ، لاحظ (سيغموند) و (هيلينا) زورقاً بخارياً صغيراً ، عبر طريق سفينتهما ، يتجه صوب زورقٍ رُفعت كل سارياته الطويلة النظيفةِ نحو السماء . كان الزورق المتلهف . بانفه المرفوع كما لو انه يتنفس ، يتسابقُ فوق موجةٍ مثل كلب مطارد . وكانت ثمة سيدة ترتدي ملابس بيضاء بصحبتها صبي ذو شعر غامق يرتدي قميصاً صوفياً ابيض ، ينحنيان على سور مقدمة السفينة ، ورجلٌ منكّب على بعض المكائنِ في منتصف الزورق ، بينما كان القبطان في مؤخرة السفينة يشرفُ على بعض الامور . كانت الباخرة تتقدم الى الامام ، هائلة الحجم فوق الماء ، بينما كان الزورقُ يبحرُ صوبها مباشرةً . رأت السيدةُ الخطر القادم قبل الجميع ، فمدت جسدها الى الامام ، وامسكت بذراع الصبي بشدةٍ من دون ان تصدر ايما صوت ، بل اكتفت بمراقبة الخطر القادم من الباخرة التي بدت للعيان الآن .

صرخت (هيلينا) ممسكةً بسيغموند الذي كان يراقبُ المشهد مسبقاً «انظر !» .

ابتدأ جرسُ الباخرة بالرنين . نظر الرجل الى الاعلى بوجهٍ مجفلٍ محترق . ومن ثم ، قفز الى مؤخرة السفينة . انحرف الزورق البخاري واطبق هو والسفينة معاً مثل شقي المقص . نظرت السيدة ، التي لا تزال ممسكة بالفتى ، بوجهٍ جامدٍ ، الى الازميل الجارفِ في مقدمة السفينة ، ووقف الزوجَ متصلباً محملقاً الى الامام . ولم يُسمع اي صوتٍ باستثناءِ حفيف الماء تحت مقدمة السفينة . أُغلق المقصُ واندفع الزورقُ الى الامام مثل كلبٍ متخلصاً من السفينة مسافةً باردة او اثنتين . ومن ثم ، ومثل كلبٍ ، بدا وكأن ينظرُ من حوله .

القى الرجل الموجودُ في المؤخرة نظرة رشيقة الى الخلف . كان رجلاً وسيماً ذا شعرٍ اسود وعينين غامقتين ، وله وجه رمادي مرتبٌ كما لو انه قد نُحِتَ من خشب السنديان ، نظر الى مقود زورقه ، ولم يصدر اي شخصٍ ايما صوتٍ ولا حتى الزورق الصغير الذي كان يندفعُ على سطح الماء ، بل خيم انتظارُ قلق على الجميع . توغلَ الزورقُ بعيداً عن الخطر ، واعاد الرجل بحركة سريعةٍ الشخص المسؤول عن القيادة الى موضعه مرة اخرى ، بينما اتجه الى الامام نحو السيدة . كان رجلاً وسيماً ، مختالاً بحركته جداً . امّا هي ، فلقد كانت اكثرُ كبرياءً ، وقد قابلته بلا مبالاة تقريباً .

استدارت (هيلينا) نحو (سيغموند) ، فامسك بكلتا يديها وضغطها ، بينما ظلت تنظرُ اليه بعينين ممتلئتين بالعاطفة . كانت شاحبة اللون حتى الشفاه ، ترتجفُ مثل طوافةٍ اثر باخرةٍ ، فلقد سكتت ضوضاء الحياة في داخلها على نحوٍ مفاجئٍ ، وسمع كلَّ امرءٍ للحظة صوت الموت . كان الجميعُ شاحبي الوجوه ، لاهثين . ثم حاولوا ، بكل جهدهم مرة اخرى ، ان يملأوا النهار بالضوضاء والوان الحياة من جديد .

- «والله كان ما حدث خطيراً جداً» .

وقالت امرأةٌ :

- «نعم ، لقد بتُّ خائفةً» .

ورد احدهم :

- «زورقٌ فرنسي» .

اما (هيلينا) ، فلقد كانت تنتظر صوت (سيغموند) ، ولكنه لم يكن يعرف مايقول ، فكرر مرتبكاً :

- «كان الزورق قريباً جداً» .

التصقت (هيلينا) به باحثةً في وجهه . احست باختلافه عنها ، فلقد كان ثمة شيءٌ ما في تجربته يجعله هادئاً ومختلفاً ومتخذاً مظهراً غريباً كما لو انه كان متألماً . اما هو ، فلقد كان يخاطبُ نفسه :

«آه ياآلهي ، كم يبدو هذا اليوم ممتعاً وجميلاً لهم . وما كانوا ليجفلوا اكثر لو أن الرب وضع يده فجأةً على الشمس وابتلعنا في الظل . ليس لدى ذلك الرجل ذي الاطراف البيضاء الدقيقة والشعر الغامق ادنى شكٍ في القوة الخفية التي تسند كل شيءٍ . وهاهو يتبخترُ بين زرقة البحر والسماء ، مثل نورسٍ قريب الى انثاه ، وسط اعلامٍ حمرٍ تشبه الزهور ، وبواخر تشبه الطيور الهشة ، وزوارق بخارية كأنها وحوش بطيئة الحركة» .

«اما انا فنهاري شاحب وشفاف ، واستطيعُ ان أرى الظلام عبر بتلاته ، ولكنه بالنسبة اليه يشبه زهر (جريس) طازج ، يستطيعُ ان يتلمسه بمتعةٍ مثل نحلة . ولي ، يعني الارتجاف في فراغات الفضاء نفس الظلام الذي يملأ روحي . فانا استطيعُ رؤية الموت وهو يحثُّ نفسه داخل الحياة ، والظل يسندُ الوجود . وتحترق حياتي في لهبٍ خفي . ان تألق الضوء في داخلي ، عندما احترقُ بوقود الموت ، غير كافٍ ليخفي عني المصدر والمنفذ . اذ ما الحياة غير لهبٍ يتفجر على سطح الظلام ، ليبدأ بالتلاشي في الظلام مرة اخرى ؟ ولكن الموت الذي هو بمثابة المنفذ يختلف عن الموت الذي هو المصدر ، فانا على الاقل سأغني الموت بظلٍ قوي إن لم أُغني الحياةُ» . .

قالت (هيلينا) :

- «اليست هذه المرأة رائعة؟» .

فاجابها :

- «انها ساكنة تماماً» .

قالت له :

- «لم يدرك الطفل اي شيء مما حدث» .

ضحك (سيغموند) ثم انحنى الى الامام مندفعاً باتجاهها وقال :

- «انا آسف دوماً لان الجنس البشري مدفوع بشكل حتمي باتجاه فهم اعمق واعمق للحياة» .

نظرت اليه متسائلة عن السبب الذي اوحى اليه بمثلِ هذه الملاحظة وقالت ببطء بعد لحظة :

- «اعتقد ان القبطان سيواجه موقفاً صعباً . لقد كان مهملاً جداً» .

فرد (سيغموند) وقد كره ان يسمعها تتحدثُ بادانهٍ باردةٍ :

- «كان يعنى بشيءٍ آخر آنئذ ، كان يشرف على المكائن او بعض الامور الاخرى» .

فاجابته متهكمةً تقريباً :

- «ولكن هذا ليس واجبه الاساس» .

نظر (سيغموند) اليها . بدت قاسية في حكمها ، عمياء في بعض الاحيان ، فجاشت نفسه تجاهها بالبغضاء وسألها :

- «اتعتقدين ان الرجل اراد أنْ يُغرقَ الزورق» ؟ .

فاجابته :

- «كان على وشك ان ينجح في ذلك» .

نشبت خصومةٌ بينهما ، وميز (سيغموند) في (هيلينا) العالم وهو ينصبُ محاكمةً ، فكره ذلك وفكر مع نفسه :

- «ولكن بعد كل شيء ، اعتقد انها الطريقة الوحيدة لإستمرار الحياة من خلال محاكمة الحدث وليس الشخص ، ثم اني اعاني من مرض عاطفي اسمه عيب التبرئة» .

ومع ذلك ، لم يحب (هيلينا) كحاكم ، بل فضل المرأة الاخرى في الزورق . كان من الواضح انها واحدة من اولئك النسوة اللواتي يراقبن مصدر الحياة . رآها عظيمة متجردة .

سأل (هيلينا) :

- «هل كانت المرأة تصرخ او تحضن او تقبل الفتى عندما صعدت الى السفينة» ؟

فاجابته :

- «لا أعتقد ، ولكن لماذا» ؟

فقال لها :

- «آمل انها لم تفعل ذلك» .

جلست (هيلينا) تراقب الماء وهو يتدفق من جانبي مقدمة السفينة . كانت مغرمةً ، بسيغموند كثيراً ، فلقد كان يوحي لها بافكار عديدة ويحفزها . أمّا في ذهنها ، فلم تكن له تلك العينان الغامقتان المترددتان ، بل كان سريعاً ومزهواً كالريح . ولم تستطع ، تمييز عجزه اطلاقاً .

كان (سيغموند) يستمدُ العزم من شجاعة المرأة الاخرى . فاذا كانت تمتلك كل هذه القدرة على كبح جماح عواطفها في الاّ تصرخ او تنذر الفتى ، واذا توفر لديها مثل هذا النبل الذي يمنعها ان تشتكي الى زوجها ، فإنَّ بامكانه بالتأكيد ان يحجم عن كشف مخاوفه الى (هيلينا) ومن ثم التفجع على قدره المزري .

ابحرا امام الابراج الملونة ، وامتدَّ البحر امامها شاسعاً ، واطلاّ يراقبان البحر من ناحية المشرق . تمنى (سيغموند) ان يطير ، وتاق للهرب عبر الطرق المفتوحة امامه . ومع ذلك ، كان يعرف بانه سيُحملُ الى لندن ، راقب طرق البحر وهي تنغلق امامه ، واقترب الساحل منهما . وفي الجهة اليمنى ، انتصبت البيوت القديمة العالية ، والتفَّ الساحل حولهما مثل منجلٍ كما يحصدهما نحو الميناء . وكانت هناك السفينة العجوز (فكتري) مغتبطةً باعلامها الناتئة العديدة ، وقد حصدت واستقرت في الميناء ، وأُحتفظ بها كتذكار .

وفكر (سيغموند) مع نفسه :

«ياله من شيءٍ كريه ان تظل مثل النصبِ ، عندما لم يعد هناك ما تفعله» .

راقب منصة النزول تقترب منهما ، وكانت القطارات تستعدُ هي الاخرى . وفي النهاية الثانية من القطار ، كانت هناك لندن .

كان من الصعب عليه ان يتحمل رؤية (هيلينا) امامه ساعتين أخريين ، ولسوف يكلفه قلق الوداع الطويل هذا كثيراً عندما يجلس مقابلها في القطار النابض ، وكان يأمل ان يتحرر منها .

انزلا حقائبهما ، ووقفا قرب السلالم وسط حرارة المكائن ورائحة الدهن المحترق ، منتظرين مرور الحشد كي يتسلقا ويهبطا من الباخرة الى اليابسة .

سألها (سيغموند) متردداً ، معيداً سؤال الصباح :

- «الا تدعينني اذهب بقطار الجنوب الغربي بينما تذهبين انت بقطار (برايتن)» ؟

نظرت اليه (هيلينا) عاقدة حاجبيها بشك وارتباك ، وقالت له :

– «لا ، دعنا نذهب معاً» .

تبعها (سيغموند) على السلم الحديدي الى رصيف الميناء . ولم يكن ثمة حشد ضخمٌ من المسافرين في القطار ووجدا بسهولةٍ مقصورة فارغة في الدرجة الثانية . وضع الحقائب على الرف ، وجلس في مواجهة (هيلينا) وفكر مع نفسه .

– «اتمنى لو كنت وحيداً الآن» .

اراد ان يفكر ويهيئ نفسه

اما (هيلينا) فلقد كانت تفكر في حيويةٍ ، ثم انحنت الى الامام وقالت :

– «هل اذهب الى كورنويل» ؟

من رغبتها الجياشة لان تفعل اي شئٍ من اجله ، ادرك (سيغموند) انها تضغطُ عليه بالحاح . ولم يعد بمستطاعهِ احتمال فكرة تمديد فترة قلقه فاجابها :

– «لقد وعدت (لويزا) ، اليس كذلك» ؟

فردت عليه بنبرتها المستخفة الغريبة التي تستخدمها عندما تريد ان تنقل اليه تفاهة امر لا يعنيه :

– «آه اجل» !

فقال لها :

– «اذن ، لابد ان تذهبي» .

ولكنها بادرته بمزاجٍ خشنٍ :

– «لا اريد الذهاب الى (كورنويل) مع (لويزا) و (اوليف) . ثم شددت على الاسمين» .

واضافت «بعد هذا الذي حصل .»

فرد عليها بحزن :

– «ستحرم (لويزا) من عطلتها ، ولقد وعدتها» . .

نظرت اليه (هيلينا) وادركت انه قد قرر انها يجب ان تذهب ، فسألته :

– انتظن ان وعدي مهمٌ الى هذه الدرجة ؟» . القت نظرةً غضبى على ثلاث سيداتٍ كن يترددن في الصعود عند باب المقصورة . ومع ذلك ، دخلت السيدات وجلسن في النهاية المقابلة لها من المقصورة . لم يعرف (سيغموند) فيما كان قد انزعج او تحرر من اقتحامهن المقصورة . فلو انهن بقين خارجاً ، فانه ربما سيحضن (هيلينا) بين ذراعيه لساعة اخرى . وفي ذلك الوضع ، لن يكون بامكانها ارهاقه بكلماتها . حاول ان يغض طرفه عنها ، ويشغل نفسه بالتفكير .

تحرك القطار في النهاية من المحطة . وبينما كان يجتاز (بورت سمث) تذكر (سيغموند) قدومه يوم الاحد الماضي . بدا الامر وكأنه قد حدث في زمنٍ ماضٍ سحيق . وشعر بالامتنان لانه كان جالساً في جانب المقصورة المعاكس للمكان الذي احتله قبل خمسة ايام .

كان الاصيل ، تحت السماء الصافية ، ينضج متحولاً الى مساء بالتدريج . واكتست المداخنُ وجدران بيوت (بورت سمث) بالمظهر المشع الذي يغيُّر منظر نهاية النهار في المدينة .

وظهر تورد غني من الضوء على سطوح الطابوق والاحجار .

وخاطب (سيغموند) نفسه قائلاً :

«سأستمر سعيداً بهذه الامسية والى الابد . وسأفتقد كل ذلك» .

ولكن ما إنْ تحرك القطار في ظلام محطة المدينة حتى ابتدأ (سيغموند) يفكر مرة اخرى .

«ستكون (بياترس) متكبرة وصامتة مثل الفولاذ عندما اصل الى البيت . وشكراً لله لانها لن تفوه بكلمة واحدة ، ولن افوه انا ايضاً . فذلك سيسهل المهمة . ولن تكون هناك مشاجرات . . .» .

«ولكننا لن نستطيع الاستمرار معاً بعد كل الذي حدث . لماذا ابحث عن المبررات التي لصالحها او ضدها ؟ اننا لا نستطيع العيش معاً . ستذهب الى البيت الريفي الذي كنت قد حدثتها عنه مسبقاً ، وسأخصص لها كل ما استطيع توفيره من نقود ، ومن البقية الباقية استطيع ان اؤجر لي غرفة صغيرة في لندن» .

ولكن عندما اكون حراً ، لن يكون بمقدوري العيش بمفردي ، وسأحتاج الى (هيلينا) وسأشتاق الى الاطفال ، واذا امتلكت احدهما فسوف اضجر من تفكيري بالثاني» .

«انَّ هذا العبء على عقلي لن يخف ، و(هيلينا) تقول انها لن تأتي الي مطلقاً ، ولكنها ستأتي في النهاية شفقة علي ، اعرف انها ستفعل ذلك» .

«ولكن ماذا بعد ذلك ؟ . ستكون (بياتريس) مع الاطفال في الريف ، ولن اتمكن من الاعتناء بالاطفال . و(بياتريس) مسرفة ، وسرعان ما ستجد نفسها في مشاكل لا نهاية لها . وسيكون ذلك خزياً وعاراً عليَّ . وستظل مجروحة مني ، ويكون اسمي على لسانها شيئاً مخزياً . فضلاً عن انها ستمضي في الحديث بكل طاقتها ، ولن تبذل ادنى جهد لفهم الامر وستقول «هو الذي جلب لنا كل هذا ، دعه يرى نتيجة افعاله» . وستسير الامور من سيئ الى اسوأ ، وسيكون الامر أكال عار لي .

ولن احصل من (هيلينا) الاّ على المذلة ، فعندما تكون نائمة ، لن استطيع حتى النظر اليها . انها لمخلوق غريب نافر ، ولكني يجب ان اكون مسؤولاً عنها ، فهي تؤمن بي ، كما لو اني امتلك قوة الرب ، فما انا فاعل بنفسي ؟» .

. انحنى (سيغموند) ، واسند رأسه على الشباك ، يراقب الريف وهو يندفع امامه بسرعة فائقة ، ولكنه لم ير اي شيءٌ . لقد فكر على نحو خيالي فحطمه خياله . تصور (بياتريس) في الريف . وتخيل الصباح وضجة الافطار في ساعة متأخرة ، والاطفال الاكبر سناً وهم يندفعون من دون طعام ، تعساء مشعثين والاطفال الصغار يراقبون مرتبكين استعداداتها السريعة المهملة للمدرسة . وتصور (بياتريس) في المساء قلقة نزقة ، قوائم ديونها متأخرة الدفع ، والاعمال غير منجزة ، تهذر بانفعال متفجعة على قسوة زوجها الذي اورثها مثل هذا العبءْ بينما يمتع نفسه في مكان آخر .

كان ذلك التفكير منهكاً لقواه ولم يعد يطيقه ، فتحول (سيغموند) للتفكير في حياته الخاصة في المدينة . سيذهب الى (امريكا) ، فلقد تم توقيع الاتفاقية مع مدير المسرح ، ولكن (امريكا) لن تكون الاّ مجرد غلق مؤقت للفم والعينين ، فسيظل ينتظر العودة ، الى (هيلينا) وسوف تنتظره . كأن ذلك قدراً لا مردَّ له ، ومن ثم سيبدأ من جديد ، ولكن يبتدأ بماذا ؟ فهو لن يحصل على ما يكفي من النقود كيما يعيل (هيلينا) حتى اذا تمكن من اعالة نفسه ، وستكون لقاءاتهما متباعدة وسرية . آه ، ان ذلك امر لا يطاق .

وقال لنفسه «آه لو كنت غنياً ، لكان كل شيءْ واضحاً ، اذ سأعطي لكل واحد من اطفالي ولبياتريس ما يكفي ، وسنفترق ، ولكني الآن في حدود الاربعين ، ولست عبقرياً ، ولن اكون غنياً اطلاقاً . . .» .

دارت افكاره في حلقة مفرغة مثل ثور يدور فوق الدريس . يدرس الحبوب ، فيتطاير التبن تدريجاً ، وتتجمع حبوب القمح ، صغيرة وصلبة على الارض . وبينما كان يجلس مفكراً ، انحنت (هيلينا) عليه ، ووضعت يدها على ركبته وقالت له بصوت اجش من الالم :

– «اذا كنتُ قد صعبت الامور عليك ، فارجو ان تسامحني» .

جفل عند سماعه ذلك . وكان ذلك واحداً من تباريح الالم القاسية التي يمنحها الحب فتملأ العيون بالدم . تصلب (سيغموند) ثم ابتسم ببطء بينما كان ينظر الى شفتيها الحزينتين الطفوليتين وعينيها الكبيرتين الممتلئتين بالالم وقال :

– «اسامحك ؟ . اسامحك على خمسة ايام من السعادة المكتملة ، السعادة الحقيقية الوحيدة التي عرفتها في حياتي» .

شدت (هيلينا) اصبعها على ركبتيه . احسّت نفسها تُلسع بمتعة مؤلمة ، ولكن واحدة من السيدات كانت تنظر اليها بفضول ، فاستقامت في جلستها ، واستدارت تراقب موجات القمح وهي تتأرجح في صفوف طويلة عبر امتداد بصرها .

ادار (سيغموند) الذي كان يرتجف ايضاً ، وجهه الى الشباك ، حيث ساعد دوران ساحل

البحر العريض حركة افكاره . لقد قاطعته (هيلينا) ، وظللت افكاره عن صيدها ، بحيث انها اصطدمت هنا وهناك ، وانقّضت بتوحش على ضحايا صغيرة مسكينة عديمة الفائدة . وكانت النتيجة اجوبة عرقلت الوصول الى قناعات نهائية . هتف (سيغموند) لنفسه :

– «ترى ماالذي ستفعله ؟ ماذا ستفعل عندما اختني من الحياة ؟ وما الذي سيؤول اليه حالها ؟ ليس ثمة هدف محدد في حياتها الآن . ولن يكون عندها اي غرض . اهنالك فائدة من ذهابي اذا تركتها خلفي ؟ اية عقدة صعبة الحل هذه ، وما الذي ستفعله ؟» .

كان هذا سؤال اثارته هي من قبل ، سؤال لن يستطيع الاجابة عنه مطلقاً ، وهو ليس بالشخص الذي يجيب عنه بالتأكيد .

شقا طريقهما عبر ممرات التلال الجنوبية . وبينما كان (سيغموند) ينظر الى الخلف ، رأى المنحدر الشمالي للتلال وهو ينساب بنعومة ويهبط متحولاً الى مرج واسع عريض يعانق جسد الارض ، فأمتلأ (سيغموند) عندها بحب مفاجئ للارض . كانت التلال العظيمة عارية مثل النهود ، تمتدُّ برقة باتجاهه ، وكذا كانت الارض كريمة دائماً ، وهي تحبنا وترعانا مثل مربية . كانت التلال كبيرة الحجم ، لكنها رقيقة وبسيطة . نظر (سيغموند) الى الحقل ، وفكر مع نفسه :

– «يالهم من محظوظين اولئك المزارعون . يعيشون بهدوء ولا يسمعون سوى دوي القطار المبهم الذي يحمله الآن الى البيت» .

كانت حقول القمح ، بأتجاه (اورين ديل) ، حمراء مثقلة بلون ذهبي . كانت الوقت مساء ، وقد تلاشى اخضرار الاشجار تاركاً اشكالاً معتمة ، تنتصب متكبرة بأتجاه الافق ؛ ولكن القمح الاحمر كان يصاغ في غروب الشمس حاراً ورائعاً . وبينما كان يستنشق رائحة القمح الناضج ، تأمل (سيغموند) ذلك بحبور ، وفتح عينيه لاشعاعه القوي ، وللحظة نَسيَ كل شيْ ، وسط الحقول الذهبية الحمراء وهي تصاغ في دكان صياغة الغروب . . ومثل الشرر ، كانت زهور الخشخاش تهب على امتداد سكة الحديد ، مثل قطار قرمزي اللون . راقب (سيغموند) المروج وهي تمر بأنتظار حقل القمح القادم . وعندما جاء ، كان المشهد يبدو مثل رفع معدن اصفر حار من ظلام الارض المعشوشبة .

استعادت (هيلينا) الطمأنينة بهبوط المساء فوق مدينة (سكس) ، وتنفست رائحة الارض بين الحين والآخر بينما كانت تراقب السماء ، كان غروب الشمس يبدو فخماً ، فلقد حارب النهار ذا العيون الزرق والاطراف الطويلة وانتصر . وهاهو يتسلق منتصراً على محرقته . وباذرعه البيض المرفوعة ، امسك باللهيب الذي كان يقفز مثل الدم حول قدميه . ومات النهار بنبل ، هكذا فكرت مع نفسها .

ورفعت سحابة ذهبية كاسها تشجيعاً لها ، وتبعت القطار . فقالت (هيلينا) وهي تراقبها بلهفة :

- «هذه السحابة لنا بالتأكيد» .

وتداخلت اشجار معتمة بينها وبين السحابة ، بينما كانت تنتظر مشدوهة حتى بزغت السحابة غير منقوصة من خلف الاشجار ، فهتفت مرة اخرى :

- «انا متأكدة انها لنا» .

وتسربت فرحة في عينيها ، وكانت السحابة لاتزال تتبع القطار . انحنت الى الامام بأتجاه (سيغموند) ودلته على السحابة . كانت متلهفة ان تمنحه قليلاً من ايمانها .

«لقد تبعتنا من مسافة بعيدة . الا تبدو لك وكأنها تسافر معنا ؟ انها اليد الذهبية ، وهي بشير الفأل الحسن» .

استمرت تقصُّ عليه اسطورة (الوين) . اصغى (سيغموند) اليها مبتسماً ، وقد اضفى غروب الشمس وسامة على وجهه . وكانت (هيلينا) سعيدة تقريباً .

قال (سيغموند) لنفسه : «لقد كنت على صواب ، انا مصيب في استنتاجي بأن (هيلينا) ستدبر امورها من بعدي . انا على صواب وهذه هي اليد التي تؤكد ذلك» .

تحول المطر الثقيل الى زخات مزن متقطعة ، تتأرجح ككلب رمادي في الافق بأتجاه الشمال . كان (سيغموند) يفكر بطريقة آلية طوال الوقت ، وكانت نفسه كلها تنبض بايقاع رتيب . احسّ ان ثمة قدراً معيناً من الهيبة في رحلته هذه ، ولكن ما آلمه هو اتجاهها المُلحّ نحو الكارثة . كان خائفاً . وتوجب عليه ان يستجمع كل شجاعته كيما يجلس هادئاً . ولقد اطمأن حيناً من الوقت . واعتقد بأنه يتجه نحو النهاية الصحيحة ، وجال بصره عبر الريف والسماء سائلاً كل شيئ من حوله :

- «هل انا على صواب ، هل انا على صواب ؟» .

لم يكن يهتم بما يحدث له اذا احسّ بأنه على صواب . ولكن ما الذي يقصده بالصواب ؟ لم يزعج نفسه بالتفكير في ذلك . ولكن السؤال بقي معلقاً . ولقد إطمأن لفترة من الزمن ، ولكن الكآبة هبطت عليه مرة اخرى عندما تبلدت افكاره ، واستسلم لايقاع القطار الذي كان يَسِمَهُ اعمق فاعمق .

هبطت الشمس نحو المغيب . وعلى الافق الغربي ثمة تدفق لبريق يشبه نافورة ضوء تتفقع . والنجوم مثل بقع من زبد النهار ، ملتصقة بالسقف الازرق ، ومعلقة مثل العناكب فوق الرؤوس ، بينما كان مضيفو الجو الذهبي يسكبون العسل من المنحلة عبر الباب الغربي الواطئ . وسرعان ما فرغت المنحلة ، واصبحت كقبعة مجوفة بنفسجية اللون ، بينما تناثرت على الارض

هنا وهناك قرى تشبه رفيف اجنحة برّاق . وفي الاعلى ، ابتدأت النجوم ، الشبيهة بالعناكب المضيئة بالركض ، وفكر (سيغموند) مع نفسه متعباً :

- «اذا ماتت نحلة واحدة من بين حشد النحل ، فماذا يهم ، طالما ان الخلية بخير؟ فمن انا قياساً بالليل الذهبي وهمهمة النهار ولونه؟ . انا لاشيءْ . وانا مجرد حصاة مقارنة بهذه الحشود المهمهمة الخارجة من الخلية الى سهول الليل السوداء التي لا يعرف ، الا الله وحده ، ماذا تجني . وسيزدحم النهار باللون الذهبي مرة اخرى ، وستغطي الالوان جناح كل فراشة ، وتعلو الهمهمة في كل حركة . ان الذهب واللون والرائحة الزكية وهمهمة الحياة اشياء موجودة حتى لو لم يكن هناك نحل . وما يحدث هو اننا لا نرى التلون الا على اجنحة النحل ، ولكن التلون موجود بوجود النحل او من دونه . لان التلون وهمهمة الحياة موجودان دائماً ، ولانهما هما اللذان خلقاني . فانا لست ضائعاً ، وعلى الاقل انا لا اهتم بالامر ، فاذا انطفأ الشرر ، فجوهر النار يكمن في الظلام . الى جانب اني قد احترقت متوهجاً ، وانشأت خلية نحل رائعة في مكان ما ، واني لاتساءل اين ؟ فنحن لا نستطيع ان نشير الى ذلك المكان مطلقاً . ولكن ماذا يهم ذلك ؟» .

كانا قد دخلا التلال الشمالية ، وهما يتجهان عبر (دوركينك) صوب (ليذرهيد) ، وانتصبت مدينة (بوكسل هل) مظلمة في حلاوة الغسق . تذكرت (هيلينا) انها قد جاءت الى هنا مع (سيغموند) اثناء جولتهما الاولى معاً ، وهي تودُّ ان تأتي الى هنا مرة اخرى . شاهدت اعشاش النجوم على النهر الصغير المرتبك وهي تركض بين الضفتين العاليتين . تذكر (سيغموند) ان هذه المنطقة مغطاة بأزاهير الشارون ونباتات سانت جون الذهبية الكبيرة التي تشبه الحرير الرائع . راقبها (سيغموند) وكان بأمكانه ان يميز الازهار المتفتحة الرقيقة التي اهملتها النجوم . وفي النهاية اصبح لديه ما يقوله الى (هيلينا) فسألها :

- «اتتذكرين ورود الشارون على امتداد هذا الطريق ؟» .

فردت (هيلينا) سعيدة لانه تحدث بهذا التألق :

- «اتذكر ، أليست جميلة ؟» .

وبعد بضع لحظات من مراقبة الزهور اضافت :

- «اتعرف اني لم اجمع اياً منها . اعتقد اني اود ان افعل ذلك . اريد ان احسَّ بها ، فلاشك ان لها رائحة البرتقال» .

ابتسم لها من دون ان يجيب ، فنظرت اليه مبتسمة بتوهج ، وسألته مخلوعة الفؤاد :

- «هل سننزل الى هنا في الصباح ونجمع بعضاً منها ؟ اتودُّ ذلك ؟» .

تجهم وجه (سيغموند) وقطب جبينه . هاهو الالم يستعيد نشاطه مرة اخرى ، واجابها

بنبل :

- «لا . اعتقد ان من الافضل الاّ نفعل ذلك» .

وللمرة الاولى تقريباً لم يقدم لها تفسيراً لاعتذاره .

استدارت (هيلينا) نحو الشباك . وظلت تراقب دوران اضوية المدن خرساء حتى وصلا قرب (سوتن) . عندها نهضت وثبتت قبعتها . ثم جمعت قفازها وسلتها . كانت . على الرغم من نفسها . غاضبة قليلاً . وعندما اصبحت مستعدة لمغادرة القطار . جلست تنتظر المحطة القادمة . وكان (سيغموند) يعرف انها منزعجة ، ومرة اخرى ، وللمرة الاولى ، قال لنفسه :

- «لابد ان يكون الامر كذلك» .

نظرت اليه . وعندما رأته حزيناً رقّت في الحال . وقالت بشك :

«على الاقل سأراك في المحطة» .

فسألها :

- «في واترلو ؟»

اجابته بنبرتها المعدنية :

«لا . في ومبلدن»

حاول ان يرد :

«ولكن. . . .»

لكنها قاطعته بنبرة مقنعة هادئة :

- «سيكون ذلك افضل لكلينا . افضل كثيراً من قطع لندن من محطة (فكتوريا) حتى (واترلو)» .

اجابها موافقاً : «حسن جداً» .

اخرج جدول مغادرة القطارات الصغير من جيبه كيما يختار لها قطاراً وقال :

«ستكونين في (ومبلدن) الساعة العاشرة وخمس دقائق ، وتأخذين قطار العاشرة واربعين دقيقة . ثم تغادرين (واترلو) الساعة الحادية عشرة والنصف» .

فاجابته :

«حسن جداً» .

صرت فرامل الوقوف . وانتظرا في قلق مضنٍ وقوف القطار . وفكر (سيغموند) مع نفسه :

«يا ليتها تذهب الآن . انها دقيقة لا تطاق» .

وعندما نهضت تحول كل شيء امام عينيه الى غشاوة حمراء . وقفت (هيلينا) امامه ،

وضغطت على يده . ثم نهض كيما يناولها حقيبتها . وعندما اتكأ على اطار الشباك ليودعها وهي واقفة على المنصة تنظر اليه . اصبح من الصعب عليه ان يتنفس . قال لنفسه وهو ينظر الى ابواب العربة المفتوحة :

- «كم سيطول ذلك ؟» .

كره بشدة تلك السيدة التي لم تستطع الحصول على حمال لينقل لها حقائبها . وكان بأمكانه عندئذ ان يقتلها وان يقتل الحارس الكسول . وفي النهاية . اطبقت الابواب واطلقت الصافرة وابتدأ القطار بحركة غير محسوسة فقال (سيغموند) مخاطباً نفسه :

- «لقد فقدتها» .

وعندما نظرت اليه . كان وجهها شاحباً وكئيباً . قالت له وداعاً ثم ادارت وجهها .

عندما عاد (سيغموند) الى مقعده . احسَّ بالتحرر ولكنه كان مريضاً وجسده يرتجف . ان البشر يكونون سعداء جداً عندما يتخلصون من اللحظات المشحونة .

ولكن لماذا استدارت بهذه الطريقة ؟

وما الذي ستفعله ؟



الفصـــل الثاني والعشرون

توجه (سيغموند) نحو محطة (فكتوريا) . ولم يكن يستعجل الوصول الى (ومبلدن) . كانت لندن دافئة ومنهكة بعد قيظ النهار . ولكن هذا الفتور الغريب لم يسبب له ازعاجاً على الاطلاق . واختار ان يتمشى من محطة (فكتوريا) الى محطة (واترلو) .

كانت الشوارع . مثل فولاذ البنادق اللامع . تتلألأ ببريق ذهبي . وسيارات الاجرة . مثل قطط متوحشة . تتدافع مسرعة فوق الارض البراقة . وسرعان ما تختفي في الافق . كما لو انها تزدري العربات البطيئة الاخرى . سمع تأرجح العربات الممتع . وازيز الباصات وهي تندفع بسرعة على الطريق . وكانت قلوبها على ما يبدو . تنبض مرتعشة حين تقترب متنهدة من الرصيف . وتتوقف هناك لاهثة . هائلة الحجم . عصبية . خرقاء . كانت سرعة الباصات المتهورة المتخبطة تُفرح (سيغموند) دائماً . وكان يسره فرار السيارات هذا . واي شيء آخر يُشغل تفكيره . كان جذلاً لان (هيلينا) لم تكن معه . فلقد كان من الممكن ان تزعجها الشوارع بضوضائها الصاخبة . إنَّ بأمكانها أنْ تقف لفترة طويلة كما تراقب الارانب وهي تقفز وتعرج في العراء اثناء الليل . ولكن جري سيارات الاجرة واندفاع الباصات الهائلة سيكونان مؤلمين لها . وستصفها بأنها «نشاز» . وكانت ستقول بأنها «بعد الاشجار والبحر . تَحبُّ تألق الشوارع فهي تشبه سبيكة رائعة من الذهب المسكوب على الارض . فتبدو الشوارع مثل شوارع الذهب الخالص في السماء . لكن هذه الضوضاء الصاخبة لا يمكن ان يوجد ما يشبهها في ارض العجائب» .

لم يحفل (سيغموند) بالضوضاء . فلقد كان دويها يطرد همومه الخاصة . وظلَّ يتأمل سحر

الطريق البراق الذي كانت الظلال تتسابق عليه ، مسقطة نفسها بعيداً عنه في ظلام الليل . ثم راقب المارة . جنود بأحزمة قرمزية يتجولون مرحين في المقدمة . كانت ثمة متعة غريبة في حركتهم . وحيوية مرنة في مشيتهم . ذكرّت (سيغموند) بالتأرجح الهش والتذبذب الناعم لضوء شمعة متوازن . وهناك نسوة يتجولن فرحات على امتداد الطريق . وبين الحين والآخر ، كانت احداهن تحملق فيه اثناء اجتيازها له . وكان ، على الرغم من نفسه ، يبتسم لها . لم يكن يعرف سبب ذلك . وكانت النسوة ينظرن اليه بأعجاب لانه كان متورد الوجه ، الى جانب ان منظره كان يدلُّ على الاهمال والذهول الناتجين من اليأس . وكانت عيونهنَّ تقول له «انك وسيم . انك محبوب !» . وكان (سيغموند) يبتسم رداً على ذلك .

عندما اتسع الشارع في (وست منستر) ، لاحظ ان سماء المدينة كانت ذات لون قرمزي غامق جميل . وان الاضواء في الساحات العامة ، تصدر بخاراً من ضوء ذهبي رمادي اللون . وخاطب (سيغموند) نفسه قائلاً :

– «انها ليلة مدهشة . لا تتكرر مرتين في السنة» .

اتجه الى الامام ، صوب حاجز سكة الحديد ، واحساس بالمتعة يملأ قلبه . كان هذا العالم الذهبي والرمادي والقرمزي ، وهذا الدفئ الملتهب المتأرجح الذي يبعثه الجند ، وتألق النسوة الرشيقات كالاضواء البراقة . كان كل ذلك اكتشافاً جديداً بالنسبة اليه .

وعندما استند على حاجز السكة الحديد لم تختف دهشته ، بل ازدادت . كانت القطارات تطوف بكبرياء ، واحداً بعد آخر ، فوق الجسر ، وهي تطير ، مثل نحلات كبيرات محترقات ، في صف لا نهاية له بأتجاه الخلية ، متجاوزات اولئك اللواتي كن يتسكعن حالمات على الطريق . بينما في الاسفل ، وعلى سطح الماء المضطرب الاسود ، كانت الاضواء مثل افاع ذهبية تبرق وتتلوى الى الامام والخلف ، وقال (سيغمبوند) لنفسه :

«انها مدهشة جداً ، هنا وقرب البحر ، الليل رائع وغريب ، وبغض النظر عمّا سيحدث ، فإن العالم رائع» .

وهكذا ، استمر ماشياً وسط معجزة الحركة الهائلة في ليل المدينة ، واندفاع الماء الى البحر ، وحركة النجوم البطيئة ، وطوفان السيارات المضاءة الرشيقة وهي تندفع عبر الجسر المظلم ، مثل جيش من الملائكة يقف في صف واحد اثناء واحدة من حملات الله ، والهمهمة السريعة لسيارات الاجرة وظلال الناس الراقصة .

استمر (سيغموند) ببطء مثل طلقة بطيئة تتجه نحو قلب الحياة . لم يفقد احساسه بالدهشة ، لا في القطار ولا في اثناء ما كان يتجه نحو البيت في الظلام البهيم .

عندما اغلق الباب خلفه ، وعلق قبعته ، قطب وجهه ، ولم يعد يفكر في اي شيْ على نحو

محدد ، ولكن تقطيبته عنت له ، فخاطب نفسه :

«هذه بداية الجحيم» .

اتجه صوب غرفة الطعام حيث مصدر الضوء والهمس القلق . وكانت الساعة تعلن ، بصوتها المستنكر الرقيق ، تمام العاشرة مساءً . فتح (سيغموند) باب الغرفة ، وكانت (بياترس) تخيط بعض الملابس ، غير انها لم ترفع رأسها . امّا (فرانك) ، الذي كان صبياً طويلاً ونحيلاً في الثامنة عشرة ، فلقد كان منحنياً على كتاب ولم يرفع بصره . ودفعت (فيرا) اصابعها في شعرها ، واستمرت تقرأ في المجلة الموضوعة على المائدة امامها . نظر (سيغموند) اليهم جميعاً ، ولكنهم لم يظهروا اية علامة تدل على انهم قد احسّوا بدخوله . كان هناك فقط ، ذلك الانشداد المصطنع لناس يخفون تأثرهم . حملق في ما حوله ليرى اين يجب ان يذهب . كان كرسيه ، المصنوع من الخيزران ، لايزال قرب الموقد ، وظلّ نعلاه مستقرين تحت الخزانة الجانبية كما تركها . جلس (سيغموند) في الكرسي الذي كان يصرُّ ، وابتدأ يشعر انه مريض ومتعب ، وقال :

– «لابدَّ ان الاطفال في الفراش» ؟

استمرت زوجته تخيط ، كما لو انها لم تسمعه ، في حين قلبت ابنته ، بجلبة ، صفحة من المجلة واستمرت تقرأ ، كما لو انها كانت مهتمة ومستمتعة بقراءتها ولم يقاطعها احد . انتظر (سيغموند) ونعله يتدلى من يده ، منقّلاً بصره من واحد لآخر . وردَّ (فرانك) في النهاية من دون ان يرفع عينيه عن كتابه :

– «لقد ذهبوا للنوم قبل ساعتين» .

كانت نبرته مزدرية ، وفي صوته نوع من الصرير الذي لم يصل بعد الى اكتمال صوت الرجل .

وضع (سيغموند) نعليه وابتدأ يفتح شريط الحذاء الآخر ، وكان اخراج القيطان من الثقوب يصدر جلبة عالية غير مبررة ، ولقد ازعج ذلك زوجته . اخذت نفساً عميقاً كما تتحدث ، ولكنها احجمت عن ذلك ، شاعرة على نحو مفاجيٍ بأزدراء ابنتها يكبحها . استقر (سيغموند) وذراعاه فوق ركبتيه ، وجلس منحنياً الى الامام ، ينظر الى الموقد العاري الذي تحول الى مزبلة ممتلئة بالاوراق وقشور الموز والبرتقال .

سألته (بياترس) :

– «اتريد عشاءً ؟» .

اجفلته الخشونة المفاجئة في صوتها ، ومنعته من النظر اليها ، كانت تدير وجهها رافضة ان تراه ، وغطس قلب (سيغموند) بالتعب واليأس من رؤيتها ، وسألها :

- «هل اكلتم شيئاً ؟» .
لم تكن المائدة جاهزة ، وكانت سلة خياطة (بياترس) وهي سلة فواكه صغيرة مصنوعة من الخيزران وممتلئة بالمقصات والدبابيس وقطع من قماش (الهولاند) وبكرات من خيوط القطن وقطع من قماش الصرج الاخضر ، منثورة فوقها ، وانحنت (فيرا) ووضعت كلا ساعديها على المائدة .

وبدلاً من ان تردَّ عليه ، اتجهت (بياترس) صوب الخزانة الجانبية ، واخرجت منها شرشفاً للمائدة ، ثم دفعت ادوات خياطتها جانباً ، ونشرت الشرشف فوق احدى نهايات المائدة ، عرضت (فيرا) المجلة على امها وهي تؤشر عليها بيدها وسألتها :

- «هل قرأت هذه القصة عن مدرسة الراهبات الفرنسية يا امي ؟» .

وسألتها (بياترس) :

- «اين ؟»

- «في هذا العدد من مجلة (ناش)» .

ردت (بياترس) :

- «لا ، فأن ما اخصصه من وقت للقراءة اقل بكثير من اي شيْ آخر» .

- «يجب ان تهتمي بنفسك اكثر من اهتمامك بالآخرين» .

ولفظت فيرا (الآخرين) بسخرية ثم نهضت قائلة :

- «دعيني اقوم انا بذلك بدلاً منك ، وارتاحي فأنت متعبة يا امي» .

اتجهت امها صوب المطبخ من دون ان تجيب ، ثم تبعتها (فيرا) ، وبقي (فرانك) وحيداً مع والده ، وابتدأ يتحرك مضطرباً ، واحنى كتفيه النحيفتين فوق كتابه ، وبقي (سيغموند) وذراعاه على ركبتيه ، يحملقُ في الموقد ، ومن المطبخ جاءت قعقعة الاواني وتسربت رائحة القهوة . وطوال تلك الفترة ، كانت (فيرا) تتحدث بنوع من التألق المنفعل مع امها ، مخاطبة اياها بنبرات ممتلئة بالحب ، مستخدمة كل حصافتها كيما تستعيد بعض الاحداث الصغيرة الطريفة حتى تسردها لها . وكانت (بياترس) لا تجيب الاّ لماماً ، وبأقصى درجات الاختصار .

جاءت (فيرا) حاملة صينية الطعام ، ووضعت كوباً من القهوة وصحناً يحتوي على قطع قرمزية اللون ، رقيقة من لحم الخنزير المسلوق ، من النوع الذي يُشترى جاهزاً من المخازن ، وبعض الخبز والجبن ، ثم جلست وابتدأت تقلبُ ، بصوت عالٍ ، اوراق مجلتها . الق (فرانك) نظرة على المائدة ، ولاحظ انها جهزت لوالده فقط . نظر بأشتهاء الى الخبز واللحم . ولكنه كبح جماح نفسه واستمر يقرأ او متظاهراً بفعل ذلك . ودخلت (بياترس) بأبريق زجاجي صغير يلمع على نحو رائع .

كان كل شيءٌ مرتباً ، سكين وشوكة وملعقة وابريق زجاجي ، وكلها نظيفة ، والاواني رائعة والخبز والزبد رقيق . وفي الحقيقة ، كانت ستبدو كذلك في عيني غريب ايضاً ، ولقد ادهشت (سيغموند) هذه الاناقة البراقة المفاجئة في ادوات منزلية كانت فيا مضى مهملة قذرة ، وحيث كان تقليداً معتاداً ان يكون شيءٌ ما قد نسي او فقد اثناء الوجبات .

وضعت (بياترس) السكين والشوكة قرب صحن لحم الخنزير ، وعندما اطمأنت ان كل شيءٌ على مايرام ، ذهبت لتجلس ثانية ، ولم تبد على وجهها اية عاطفة . كانت هادئة ومتكبرة ، وابتدأت تخيط ثانية . وقالت (فيرا) كما لو انها تستعيد محادثة مقطوعة :

– «ما قولك يا امي ؟ هل سنذهب الى (هانتن كورت) ام الى (ريحموند) يوم الاحد ؟»

فردت (بياترس) :

– «اقول كما قلت من قبل : لا استطيع الخروج» .

– «ولكن يجب ان تجربي يا امي ، وسيشهد يوم الاحد القادم البداية» .

وقالت (بياترس) :

– «هنالك الكثير من-الاشياء التي ينبغي التفكير بها» .

فرفعت (فيرا) وجهها الوسيم وابتسمت بفرح لامها وقالت :

– «لا يأ امي ، اننا نريد تغيير كل هذا ، ونحن ذاهبون في (طلعة) صغيرة ممتعة يا امي» .

شددت (بياترس) على كلمة (طلعة) مبتسمة قليلاً وقالت :

– «اعتقد انه لن تكون هناك (طلعة) بالنسبة لي ، كما انك تتحدثين بالعامية يا فيرا» . (*)

– «انه مصطلح جميل يا امي ، وانت تبدين متعبة» .

نظرت (بياترس) الى الساعة وقالت :

– «سآوي الى الفراش عندما انتهي من تنظيف المائدة» .

جفل (سيغموند) الذي لازال جالساً ورأسه منحنٍ الى الامام يحملق في الموقد ، واستمرت (فيرا) في الحديث ، بينما نظر (فرانك) الى المائدة ، وقال بصوته الذي يصرّ :

– «هذا عشاؤك يا ابي» .

توقفت المرأتان عن الكلام ونظرتا من حولها ، وطأطأ (سيغموند) رأسه ، بينما استمرت (فيرا) بحديثها ، ثم ما لبثت ان سكتت وخيم الصمت ، وكان (سيغموند) جائعاً ، فقال لنفسه قبل ان يجند كل شجاعته لينهض ويتجه نحو المائدة :

– «يا الهي . . هذا خبزُ المذلة الليلة» .

كان يبدو وكأنه يتقلص من الداخل . نظرت المرأتان اليه بسرعة ثم ادارتا وجهيهما في

(*) استخدمت (فيرا) كلمة عامية للدلالة على الرحلة في حديثها ، فاستخدمنا كلمة (طلعة) بمعناها العامي العراقي مقابلها .

الحال . وعندما صرَّ كرسيه ونهض كان (فرانك) يراقبه من تحت حاجبه .

ابتدأ (سيغموند) محنة الاكل والشرب بوجود عائلته ، ولو انه لم يكن جائعاً لما استطاع ان يفعل ذلك ، على الرغم من انه كان راضياً بأن يسمع الاهانة هذه الليلة .

ابتلع القهوة بجهد ، وعندما انتهى ، جلس متردداً بعض الوقت ، ثم نهض واتجه نحو الباب قائلاً :

- «ليلة سعيدة» .

لم يجبه احد ، وتحرك (فرانك) في كرسيه ، واغلق (سيغموند) الباب خلفه واختفى .

خيمٌ صمت مطبق على الغرفة حتى سمعوه يفتح صنبور الماء في غرفة الحمام . عندها ابتدأت (بياترس) تتنفس على نحو متقطع ، ممسكة انفاسها ، كما لو انها ستبكي ، ولكنها كبحت جماح نفسها ، وتصلب وجها ذينك الصبيين بالكره .

قالت (فيرا) :

- «انه لا يستحق حركة من خنصرك يا امي» .

وتحركت (بياترس) بيدين متلمستين حزينتين ، تلملم ادوات خياطتها وخيوطها ، وقال (فرانك) بنبرة ازدراء :

- «على اية حال ، لقد عاد ، وهو خجول بما فيه الكفاية ، مثل السلمون المسلوق» .

لم تحر (بياترس) جواباً . ونهض (فرانك) واقفاً وظهره بأتجاه الموقد ، مقلداً وضع ابيه المفضل وقال ساخراً :

- «لقد رجعت متسلــلاً جباناً» .

مد جسمه الى الامام ، ووضع قطعة من لحم الخنزير بين قطعتين من الخبز ، وابتدأ يلتهم الشطيرة بلقم كبيرة . جاءت (فيرا) الى المائدة ، وابتدأت تصنع لنفسها شطيرة لذيذة . راقبها (فرانك) بعينين حَسُودين .

قالت (بياترس) له :

- «هنالك المزيد من لحم الخنزير ان اردت . لقد احتفظت لك بقسم منه» .

فاجابها :

- «حسن يا امي ، اجلبيه» .

توجهت (بياترس) الى المطبخ ، وصاحت (فيرا) وراءها :

- «واجلبي الخبز والزبد ايضاً» .

وقال (فرانك) هامساً بينما كانت امه خارج الغرفة :

- «الجبان اللعين ، يا له من جبان نتن !» .

لم تجبه (فيرا) ولكنها كانت موافقة ضمنياً .

دللاً امها بينما كانت تنتظرهما ليفرغا من العشاء . وفي النهاية تثاءب (فرانك) وتململ للحظة او اثنتين ، ومن ثم ، اتجه صوب امه ووضع يده على ذراعها . ولقد جعل ملمس ذراع امه المدور تحت كمها الحريري الاسود الدموع ترقرق في عينيه ، فقال بصوت يصرُّ اكثر من اية مرة سابقة :

– «لا تهتمي يا امي ، سيكون كل شيء على ما يرام» .

ثم انحنى وقبلها واضاف «ليلة سعيدة يا امي» .

قالها بشكل اخرق وهو يغادر الغرفة ، وابتدأت (بياترس) بالبكاء .



الفصل الثالث والعشرون

قال (سيغموند) يخاطب نفسه وهو يغلق باب غرفة الطعام خلفه ويصعد الى الطابق العلوي في الظلام :

– «لن استطيع ان اعيد استقراري في هذا البيت ، فأنا مجرم عائلي الآن . وقد تتصالح (بياترس) معي في النهاية ، ولكن حكم الاطفال القاسي لايطاق ، وانا مثل كلب يزحف حول البيت الذي هرب منه فرحاً من قبل . وليس لديَّ مكان آخر التجيْ اليه . فلماذا عدت الى هنا ؟ ولكني بحاجة الى النوم ولن ازعج نفسي الليلة» .

توجه صوب الحمّام واغتسل ، ولقد منحه كل شيْ فعله احساساً بالامتنان على الرغم من وضعه التعيس . غمس ذراعيه عميقاً في الماء البارد لعله يشعر بمتعة اكبر . وغسل عنقه مرة بعد اخرى . وبدا له وكأنه يضحك من فرط الاحساس بالمتعة الناتجة من سقوط الماء عليه . ولكن المنشفة ذكرته بالتهاب جبينه ورقبته . اذ كان كلاهما مُتقرحاً . وقد سُلِخَ جلدهما بفعل الشمس ، مسهما بحذر شديد كيما يجففهما ، جافلاً ومبتسماً في آن واحد ، بسبب طريقته في لمسهما وفزعه الطفولي لما يسببانه له من ألم .

وعلى الرغم من ان غرفته كانت مظلمة جداً ، غير انه لم يُشعل الضوء ، وبدلاً من ذلك ، خرج الى الشرفة الصغيرة ، وكان قميصه مفتوحاً عند النحر والرسغين فسحبه اكثر كاشفاً صدره الى الليل الناعم اللذيذ . وقف يحدق في الظلام بعض الوقت . وعلى الرغم من ان القمر لم يشرق بعد غير ان الليل كان مضاء ببعض الضوء الصادر من الافق . كانت النجوم ضئيلة الحجم . وفي القرب انتصبت اشكال كبيرة من الاشجار . واضاءت شجر الظلمة

مجموعة من المصابيح التي تشبه حزمة من الفطر. كانت ثمة ضوضاء جشاء مبهمة تملأ السماء، مثل الهمس في صدفة فارغة، وغالباً ما ينتفخ تنفس الصيف متحولاً الى تنهُّدات قلقة عندما يهمهم قطار في البعد.

وفكر (سيغموند) مع نفسه:

- «يا له من ليل وَاسع، والليل يجمع كل شيءٌ تحت خيمته، ترى ما يخفي تحتها؟ !».

واحس ان روحه مثل حالق (٭) النبات تمتد بلهفة الى الخارج كيما تمسك بشيءٌ ما. اي شيءٌ يستطيع الامساك به في هذا الليل العظيم الذي يتنفس بصوت اجش؟ !».

سقط نجم، وبدا وكأنه ينفجر في الليل مقابل عينيه تماماً ببريق اصفر، نظر الى الاعلى متردداً فيما اذا كان قد رآه ام لا. ولم تكن ثمة ثغرة في السماء. وقال لنفسه:

- «انه فأل حسن. شهاب ساقط، انه علامة طيبة لي. فأنا اعرف اني على صواب، وتلك كانت علامي».

وبعد ان طمأن نفسه، رجع الى الداخل، واخرج ملابسه من حقيبته وسرعان ما آوى الى الفراش، وقال لنفسه:

- «هذا فراش رائع، والملاءات نظيفة جداً».

تمدد للحظة، ورأسه منحن الى الامام، يحدقُ من وسادته، في النجوم. ومن ثم، استغرق في النوم.

فتح عينيه على نحو مفاجيءٌ عند الساعة السادسة والنصف صباحاً، وسأل نفسه:

- «ما الامر؟» ومن دون توقف تقريباً اجاب نفسه «يجب ان اثابر على هذا حتى النهاية». صورٌ له نومه واجساً مكتملاً، لكنه مثل الحلم، فلقد نسيه عندما استيقظ. لكن هذا السؤال التافه وجوابه هما اللذان فضحا ما حدث في نومه. وفي اللحظة التي استيقظ فيها اختفت معرفته الطفيفة هذه.

كان نهار جميل آخر يتقدم مزهواً. واول شيءٌ فعله (سيغموند) هو ان حيّا الصباح بسبب تألقه. والشيءٌ الثاني هو انه استرجع في ذاكرته منظر الخليج في جزيرة (وايت)، وقال لنفسه: «كيف يبدو الآن؟». كان عليه ان يمنح قلبه بعض السلوى للالم الغريب القابع فيه بسبب نومه، لذلك ابتدأ يحنُّ على نحو مؤثر الى المكان الذي كان يقضي فيه صباحاته المنصرمة.

تخيّل الحديقة بورود (الجوري) وازهار (السلبوت)، وتذكر الطريق المشمس المؤدي الى الساحل وامتداد البحر المعلق بنعومة بين الاجراف البيض الطويلة.

٭ الحالق هو الجزء اللولبي الرفيع من النبتة المعترشة يساعدها على التعلق بسنادها.

وصرخ في داخل نفسه :
- «لا يمكن ان يكون كل ذلك قد اختفى ، لا يمكن ان يذهب . لقد انتظرته كما لو انه لن يأتي مطلقاً ، ولا يمكنه ان يختفي الآن ، ان (هيلينا) لم تضع مني بالتأكيد» .
وابتدأ يحاول تثبيت جمال حياته المغادر . ادار جواهر الذكرى وجهاً بعد آخر ، فجرحتهُ بجمالها البراق . وعلى الرغم من ان الالم كان حميماً ، غير انه كان شبه ممتع . وفي الحال ، سمع الجلبة التي احدثتها زوجه عندما فتحت باب الغرفة المجاورة الى غرفته وسمعها تقول :
- «ستتأخر يا فرانك ، انها الثامنة الا ربعاً» .
وتذمر الشاب قائلاً :
- «حسناً يا امي ، لماذا لم توقظيني مبكراً ؟» .
- «لقد استيقظت لتوي . اذ لم انم الآ مطلع الفجر ، عندها غلبني النوم» .
نزلت بعد ذلك الى الطابق الاسفل ، واصغى (سيغموند) لابنه منتظراً اياه ان يخرج من السرير . ومرت الدقائق ، وقال (سيغموند) لنفسه بغضب :
- «تباً لهذا الحمار ، لماذا لا يخرج ؟» .
استدار ضاغطاً على السرير بغضب ومذلة ، لانه لا يمتلك الآن اية سلطة تؤهله ان يأمر ابنه كما يقوم بواجبه . انتظر (سيغموند) وهو يتلوى بألم الغضب والقلق والعار . وعندما دقت الساعة بصوت هش مهذب ، خرج (فرانك) من الغرفة بصوت مكتوم . وكان بأمكانه ان يسمعه وهو يرتدي ملابسه في عجلة خرقاء . وصاحت (بياترس) من اسفل السلم :
- «اتريد ماء ساخناً» ؟
فاجابها ابنها رافعاً صوته في نبرة مصطنعة متكسرة :
- «انت تعرفين ان لا وقت لدي للحلاقة الآن» .
امتلأ البيت برائحة لحم الخنزير المطبوخ . وسمع (سيغموند) ابنته الثانية (مارجوري) التي تبلغ التاسعة من عمرها تتحدث الى (فيرا) . التي كانت تشغل الغرفة معها . كانت الطفلة على ما يبدو تسأل ، والفتاة الكبرى تجيبها باختصار . ثم حدث انقطاع في الضوضاء التي تصدرها اواني المنزل ، وتمزق الصمت فجأة بصوت (مارجوري) وهي تصرخ من اعلى السلالم :
- «امي» . ثم انتظرت قليلاً وصاحت «امي» ! . ولكن (بياترس) لم تسمعها .
«امي . . . ماما» . كانت (بياترس) في حجرة غسل الصحون .
_ ابتدأ صبر الطفلة ينفد ، فرفعت عقيرتها وصرخت :
- «امي . . . ماما» ولكن من دون جواب ، فاطلقت حينئذ صرخة طويلة :
- «ماما . . . .»

ولم يستطع (سيغموند) السيطرة على نفسه الا بصعوبة.
صاحت (فيرا) بنزق من غرفة النوم، وفي الوقت نفسه اجابتها (بياترس) غاضبة ايضاً:
- «ماذا تريدين؟»
صرخت الطفلة بأعلى صوتها:
- «اين جواربي؟»
اجابت الام:
- «ولماذا تسألينني؟. هل هي هنا في الاسفل؟. ولماذا تصرخين؟»
تهادت الطفلة وهي تنزل السلالم، ثم عادت في الحال. وعندما وصلت الى غرفة (فيرا) تذمرت قائلة:
- «انها لم تُرتَقْ لحد الآن!»
سمع (سيغموند) صوتاً زاد وجيب قلبه له. وكان الصوت صادراً من حركة المهد عندما تسلقته (كوين) طفلته الصغيرة وهي تخرج منه. بقيت صامتة لفترة من الزمن. تخيلها خلالها وهي تجلس على السجادة البيضاء وتسحب جواربها، ومن ثم وصلته حركة اقدامها الصغيرة المكتومة الوقع وهي تنزل الى الطابق الاسفل.
سمعها (سيغموند) تقول بينما كانت تنزل السلالم:
- «ماما، هل عاد ابي؟»
وضاع سؤال الطفلة وجواب الام في المسافة التي تفصله عن المطبخ. ولقد جعل السؤال القلق الصغير وحركة اقدام (كوين) السريعة (سيغموند) يتمدد ساكناً وهو يتمزق. لم يرد ان يسمع شيئاً اكثر. فاضطجع متقلصاً داخل نفسه، وبدت روحه وكأنها مستعدة للجنون. واحسَّ بأنّه لن يستطيع، بغض النظر عما سيحدث، ان ينهض ويقابلهم جميعاً.
اغلق الباب الامامي، وسمع صوت (فرانك) السريع:
- «وداعا».
كان الفتى على ما يبدو في مزاج سيئ.
اصغى (سيغموند) لصوت القطار، وبدا وكأنه لم يسمعه منذ دهر ولكن الفتى سيلحق به. ثم سمع صوت جريان الماء في اناء غسل اليدين. ان هذه كما افترض كانت (فيرا) التي على ما يبدو لن تذهب الى المدينة اليوم. وعند تفكيره في ذلك، كرهها (سيغموند) تقريباً واصغى لحركتها حين هبطت السلالم.
كانت الساعة التاسعة تقريباً عندما تسلقت خطوات (بياترس) السلم، وضعت شيئاً ما في غرفة الحمام، قدر انه ماءه الحار، اصغى (سيغموند) متيقظاً، ولم يدر ان كانت ستأتي

لتطرق بابه او تتحدث معه . اقتربت بسرعة ، ثم طرقت الباب وانتظرت . جفل (سيغموند) للحظة ولم يستطع الاجابة ، فطرقت بصوت اعلى . فرد عليها :
– «حسناً»

هبطت السلالم في الحال . وتمدد يوبخ نفسه ويعذبها مدة نصف ساعة اخرى حتى جاء صوت (فيرا) بنبرة باردة من تحت شباكه في الاسفل :
– «لابد ان ترفعي كل شيء اذن ، اذ لا يمكن ان تبقى صحون الفطور على المائدة لمدة اسبوع» .

تحجر قلب (سيغموند) ونهض بفم مقفل واتجه صوب غرفة الحمام . وهناك جفل مرة اخرى عندما رأى (كوين) تقف في وعاء الغسيل ، وظهرها باتجاهه ، وهي تغسل وجهها بحذر شديد . كان شعرها المشعث قد ترتب في ضفيرة طويلة صلبة تخرج من رقبتها الطفولية النحيلة ، وكانت ذراعاها عاريين حد الكتفين ، وهي ترتدي صدرية من قماش (الفلانيليت) القرنفلي تصل بالكاد الى ركبتها . احسَّ (سيغموند) بالبهجة لرؤية ربلات ساقيها البدينتين الصغيرتين ثابتتين قريبتين من بعضها . غسلت بعناية خديها وفمها ورقبتها وشعرها غير انها لم تغسل اذنيها ، ومن ثم ، ضغطت الاسفنجة متعمدة واستمرت تمسح الصابون .

ولسبب او آخر تلفتت من حولها ، والتقت عيناها المجفلتان بعينيه ، كان لها ايضاً عينان زرقاوان غامقتان جميلتان . وقفت والاسفنجة على عنقها ، تنظر اليه بتأمل ، فأحس (سيغموند) بنفسه وهو يتقلص تحت نظرة طفلته الثابتة الهادئة المبهمة ، قال ابوها :
– «مرحباً ! هل انت هنا ؟»

ادارت الطفلة ظهرها من دون ان تغير ملامحها . واستمرت تغسل عنقها . اسقطت الاسفنجة في الماء ، وتناولت المنشفة من حائط الحمام ، ثم استدارت لتنظر مرة اخرى الى (سيغموند) الذي كان يقف امامها مرتدياً منامته ، وفمه مطبق بشدة ، ولكن عينيه كانتا متقلصتين وحزينتين . كانت على ما يبدو تحاول ان تكتشف شيئاً ما فيه .

قال لها مازحاً :
« هل غسلت اذنيك ؟»

لم تعره ايما انتباه ، غير انه لاحظ عندئذ ان وجهها كان يخفي ابتسامة مكتومة وهي تنظر اليه . كانت تشعر بالخجل غير انها استمرت تراقبه بفضول .

قال لها :
«هناك بعض الشوكولاته على منضدتي» .
لكنها سألته على نحو مفاجيء :
– «اين كنت ؟»

فرد مبتسماً :
- «ذهبت الى البحر»
سألته بنبرة متهمة :
- «الى برايتن ؟»
اجابها :
- «ابعد بكثير من ذلك» .
- «الى وورثنك ؟»
- «ابعد ، لقد سافرت في باخرة» .
- «ومن ذهب معك ؟»
اجابها :
- «ولماذا ؟ لقد ذهبت بمفردي» .
فسألته :
- «وحيداً ؟»
اجابها ضاحكاً :
- «وحيدا !» .
- «الا تستطيع اخذي معك ؟»
اجابها :
- «سأفعل في المرة القادمة»
غير ان الطفلة لازالت تنظر اليه غير مقتنعة ، ثم سألته وهي تنظر اليه بشك :
- «ولكن لماذا ذهبت ؟»
- «كي ارى البحر والبواخر والسفن الحربية ذات المدافع» .
فردت الطفلة موبخة :
- «كان المفروض ان تأخذني معك» .
- «نعم ، كان المفروض ان افعل . أليس كذلك ؟»
قال لها ذلك ، كما لو انه كان متأسفاً عما حدث ، وكانت (كوين) لاتزال تنظر اليه ثم قالت له :
- «انت محمرٌ» ؟
نظر بسرعة الى نفسه في المرآة واجابها :
- «ذلك بسبب الشمس . الم يكن الجو حاراً هنا ؟»

– «اجل ، لقد تقشر انفي ، وقالت (فيرا) انها ستقشرني مثل البطاطا الجديدة» .
ثم ضحكت الطفلة واستدارت بخجل منه .
قال (سيغموند) :
– «تعالي هنا ، اعتقد انك اخرجتِ سناً جديدةً . اليس كذلك ؟» .
كان حذراً جداً ورقيقاً معها ، بيد ان الطفلة انسحبت نافرةً بعيداً عنه . فقال لها :
– «تعالي ودعيني أرَ» .
ابتعدت اكثر عنه ، وظهرت الابتسامة المكبوتة نفسها على وجهها ، خجولة ، شاكة ومتهمةً .
سألها بينما كانت الطفلةُ مترددةً قرب الباب :
– «ألمْ تذهبي لاخذ الشوكولاته ؟» .
القت نظرةً على غرفته واجابت :
– «يجبُ ان اذهب الى امي كيما ترتبَ شعري» .
احسَّ بالاهانة في الصميم من خشونتها وعصيانها . ونزلت الطفلة من دون ان تذهب الى غرفته .
لقد صُدَّ (سيغموند) من قبل الشخص الوحيد في البيت الذي توقع الصداقة منه . وابتدأ يحلقُ ذقنه ببطء شاعراً بالغصةِ في قلبه ، بقي لفترة طويلة في الحمام ، وعندما خلع ملابسه في النهاية ليغتسل ، احسَّ وكانه يستطيعُ ان يستنشق رائحة البحر ، حتى رأسه ولحس كتفه ، فكان طعم جسده مالحاً ، وقال لنفسه :
– «من المؤسفِ اني سأغسل ذلك» ،
عندما خرج وهو يقطرُ من ماء الحمام البارد احسَّ للحظةٍ بارتعاشٍ . . مسح جسمه بالمنشفة وقال وهو يتأمل نفسه :
«ابدو شاباً كما لو اني في السادسة والعشرين» .
استدار الى المرآة ، فرأى نفسه رجلاً كاملاً ناضجاً في الاربعين من عمره ، وسنوات المعاناة الحزينة ترتسمُ على محياه .
قال يخاطبُ نفسه :
«لقد اعتدتُ ان اردد باني عندما سأصبحُ في سن الاربعين ، ستكونُ كل اموري باستقامة الانف في وجهي . اما الآن ، فلم اعد متأكداً من نفسي ، ولا اجدُ ثقة في نفسي اكثر من ثقة فتى في العشرين من نفسه ، ما الذي سافعله ؟ . يبدو ان الانسان يحتاجُ الى أمٍ طوال حياته . وإني لأشعر باني اشبه الآله الخالق كثيراً .»

عند وصوله الى هذه الملاحظة الساخرة ، هيأ (سيغموند) نفسه كما ينزلُ الى الطابق الاسفل . لقد تجاوز حساسيته واصبحت اعصابه أشدّ صلابة . وعندما ارتدى ملابسه هبط الى الطابق الارضي وتوجه صوب المطبخ مباشرةً من دون ايما ترددٍ . ولم يعد مهتماً بزوجته او اطفاله . ولم يبادله احدٌ الكلام عندما جلس الى المائدة . ولقد سرّهُ ذلك ، اذ لم يرد ان يمسه احدٌ ، تناول افطاره وحيداً ، بينما كانت زوجته تتنقلُ بسرعةٍ في الطابق العلوي ، وفيرا تدور في غرفة الطعام .

ثم ما لبث ان انسحب الى وحدته في غرفة الاستقبال ، وكردة فعلٍ ضد فعاليته الشعرية ، احسَّ كما لو انه اصبحَ أكثر تبلداً وعمىً . اذ انه لم يلاحظ اي شيءٍ من حولهِ ، ولا حتى وعاء الورد المسرف الذي وضع على بيانه ، وهو امرٌ لم يكن ليسمح به ، ولا كمانه الذي وضع على نحو مهين على الارضية اللامعة الباردة قرب الشباك ، واكتفى بالجلوس في كرسيه وسرعان ما شعر بالمرض .

اختفى كل قلقه غير الطبيعي وتحفزه الشعري الذي تملكه خلال الايام القليلة الماضية . جلس مسترخياً بينما كانت حياته تتصارعُ داخله بعد تخدير الحب والهواء والجمال وشروق الشمس . لقد كان منهكاً تماماً . ومثل نباتٍ برعم بجنونٍ وغزارةٍ حتى ضيع كل انسجة قوته ، وها هو الآن يصارع حياته في اخدودٍ مغلق متهدم .

جلس (سيغموند) ممسكاً برأسه بين يديه ، منحنياً على المنضدة . كان من الممكن ان يكون خاملاً على نحو غبي فلا يشعرُ بالاشمئزاز والمرض لو لم تكن لاعصابهِ هذه الحساسية الكثيفة التي تقلق وعيه . وقال لنفسهِ :

«اعتقد ان ذلك من جراء تعرضي للشمس ، نوعٌ من ضربة الشمس» .

واحسَّ بجفافٍ لا يطاق في مخه ، وخدر في رأسه ، واضاف : «هذا بشعٌ» .

كانت ذراعاه ترتجفان بالمٍ كثيف . ولقد بذل اقصى جهده كما يوقفها ، ومن ثم ابتدأ الألمُ الحاد في بطنهِ ، فتململ في كرسيه من دون ان يغير موضعه . لم يعد يقوى على النهوض او الحركة فتململ مثل حشرةٍ مثبتة في موضعها .

عندما فتح الباب ، جفل بشدة ، ومع ذلك لم يظهر اية حركة محسوسة . دخلت (فيرا) . متظاهرةً باخذ البوم الصور لتضع فيه صورةٍ من مجلة (لندن اوبنين) . ولكنها في الحقيقة كانت تريد ان ترى ما يفعله والدها ، ولكنه لم يحرك عضلةً واحدةً ، بل انتظر ، متحاملاً على نفسه ، خروجها كما يرتاح . خرجت (فيرا) من غرفة الاستقبال تهمهم مع نفسها ، وعلى الرغم من تظاهرها بانها لم تر اباها ، غير انها القت عليهِ نظرة متفحصة ، وقالت الى امها :

- «انه يجلسُ ورأسه بين يديه» .

وردت (بياترس) :

- «انا سعيدة إذ ليس لديه شيءٌ آخر يفعله» .

وقالت (فيرا) :

- «اعتقد انه يرثي نفسه» .

فاجابت (بياترس) .

- «إنَّه بارعٌ في فعل ذلك» .

تقدمت (كوين) الى الامام ، وامسكت بتنورة امها ، ونظرت اليها بلهفة وقالت :

- «ما الذي يفعله ياامي» ،

اجابت الام .

- «لا شيءْ ، لا شيءْ ، انه يجلسُ في غرفة الاستقبال» .

واصرت الطفلة القلقة :

- «ولكن ما الذي يفعله ؟» .

- «لا شيءْ . لا شيءْ استطيع اخبارك به . لقد افسد حياتنا فقط» .

وقفت الطفلة تراقب امها في حيرة وحزن واضحين وسألتها :

- «ولكن ما الذي سيفعله يا امي ؟» .

- «لا شيءْ . لا تهتمي بذلك . اركضي والعبي مع (مارجوري) . اتريدين خوخةً لذيذة ؟» .

اخذت خوخة صفراء من المائدة ، فتناولتها (كوين) من دون ان تنبس بكلمةٍ واحدة . كانت مرتبكة كثيراً . وسألتها امها :

- «ماذا قلتِ ؟» .

فاجابت الطفلة وهي تستدير :

- «شكراً لكِ» .

تنهد (سيغموند) بارتياح عندما تُرِك وحده مرة اخرى ، وتململ في كرسيه ، وتنهد مرة اخرى وهو يحاول ان يخرج مخلب الالم المبرح من بطنه وقال لنفسهِ :

«آه ، هذا مرعب» .

شنج عضلاته كيما يسكن الالم وسأل نفسه : «لم اشعر بمثل هذا من قبل ابداً . ماذا دهاني يا ترى ؟» ولكن السؤال مات في الحال ، اذ كان يبدو انه غير ذي نفع ، ومن المؤلم ان يجد اجابةً عنه .

بدأ يبحث عن عزاء . لو انه يستطيعُ ان يفعل شيئاً ، او ان يحصل على شيءٍ يريده ، فلسوف يكون الامر افضل . سأل نفسه :

«ماذا أُريد ؟» .

وبلهفةٍ صارع نفسه كي يجد الجواب .

كل شيءٍ اقترحه على نفسه جعله يشعرُ بالالم والتعب والنفور : ساحل البحر ، ارض غريبة ، حياة جديدة لم يحلم بها من قبل ، الفلاحة في كندا .

واجاب نفسه :

«اعتقد اني ساكون على نفس الحال هناك ، وسيراودني ذلك الشعور الممرض نفسه . انا لا اريد شيئاً» .

واقترح على نفسه مرتجفاً :

«هيلينا ؟» .

ولكنه أحسَّ برعبٍ أعمق فقط .

لقد جعله تفكيره يتقلصُ متشنجاً :

«لا اطيق كل هذا اذ كانت هذه حالتي ، فانّ من الافضل لي ان اموت ، الاّ تكون لدي اية رغبة او اي مطلب . هذه هي بداية الموت» .

استراح بعد ذلك لفترة من الزمن . كانت فكرة الموت وحدها هي التي تسليه ، فقال لنفسه .

«ليس ثمة شيءٌ استطيع الالتجاء اليه» .

وفي حالته النفسية تلك ، لم يعد هناك من شيءٍ آخر :

اقترح مرة اخرى ، متأملاً نفسه بتوسل :

«هيلينا ؟» .

لكنه صرخ جافلاً بشدةٍ كما لو انه ينسحب من لمسةٍ تتقدم نحوه فوق مكانٍ متقرحٍ :

«اوه ، لا .»

أنَّ قليلاً بينما كأن يتنفسُ واحسَّ بغثيانٍ مروع ، كان ثمة صوت تلمس يدٍ على مقبض الباب ، لم يحفل (سيغموند) ولكنه سحب نفسه الى بعضها . دفعت (كوين) الباب ، ووقفت ممسكة بمقبض الباب تنظر اليه وقالت :

– «بابا ، ماما تقول ان الغداء جاهز» .

لم يجبها (سيغموند) ، فانتظرت الطفلة ضائعةً بضع لحظاتٍ قبل ان تعيد بنبرةٍ مترددة :

– «الغداء جاهز» .

قال (سيغموند)

- «حسنٌ. اذهبي !»

عادت الفتاة الصغيرة الى المطبخ والدموع تترقرق في عينها ، فسألتها (بياترس) :

- «ما الذي قاله لك ؟» .

واجابت الصغيرة وهي تبكي .

- «لقد صرخ فيَّ» .

احمرت (بياترس) خجلاً ، وترقرقت الدموع في عينيها ، واحتضنت الطفلة بين ذراعيها وهي تقبل جبينها :

- «هل فعل ذلك ؟ . لا تهتمي ياعزيزتي لا تهتمي» .

جعلت الدموع في صوت الام الطفلة تبكي بمرارةٍ . بينما جلست (فيرا) و (مار جوري) صامتتين عند المائدة .

وفقدت قطعة اللحم والبطاطا المهروسة ، بخارهما واصبحتا باردتين .



الفصـــل الرابع والعشرين

عندما وصلت (هيلينا) مساء الخميس الى البيت وجدت كل شيءٍ مثيراً للاشمئزاز. وكانت كل روائح الشارع النتن، الذي يجب ان تجتازه، معلقة فوق الرصيف وقد زحفت في حرارة الجو، كان البيت عارياً وضيقاً، ولقد ذكرها هذا الاحساس بالاطفال الذين يجلبون لها فراشاتٍ محبوسةٍ في علب الكبريت، وبينما كانت تطرقُ الباب، احست انها مثل فراشة مخدرة، يدفعها طفلٌ من جناحها، كيما تستقر في علبته.

فتحت امها الباب، وهي امرأة ذات فم غائرٍ وخدين متوردين وعينين بُنيتين سريعتي الحركة، اعطتها ملامحها مظهر طير يمشي وينقر فجأةً هنا وهناك، وعندما دخلت (هيلينا) على مضضٍ، لملمت الام نفسها واسترخت في الحال، وبدت وكأنها تنقُر قائلةً:

–«حسنٌ؟».

اجابت الابنة بنبرة مستسلمةٍ:

– «ها انا ذا هنا».

كانت امها تودُّ ان تكون حنوناً بها، غير انها اصبحت باردة بالقدر نفسه. وهتفت السيدة (فيردن) وهي تحركُ راسها بطريقةٍ مازحة غريبة:

– «هذا ما ارى. وكيف قضيت وقتكِ؟».

ردت (هيلينا) بطريقةٍ اكثر هدوءاً:

– «اوه، على ما يرام».

– «هم!».

تأملت السيدة (فيردن) ابنتها عن قربٍ ، وميزت فيها النظرة الطفولية الغريبة المقطبة التي تعرفها على نحو ممتاز ، لذلك فلقد بذلت جهداً كي تمنع نفسها عن القاء الاسئلة وقالت :

– «انك تبدين على ما يرام» .

ابتسمت (هيلينا) بتهكم ، وسألتها الام بالطريقة الحنون المؤثرة التي اتخذتها :

– «وهل انتِ جاهزة للعشاء ؟»

ردت الابنة :

– «اذا كان العشاءُ جاهزاً فسأتناوله .»

– «انه ليس جاهزاً» .

اطبقت الام فمها الفاغر بشدةٍ ، وراقبت ابنتها في نوع من التحدي الساخر ، واضافت :

«لاني لم اعرف متى تعودين» .

ثم حركت ذراعها مثل خطيبٍ يتلفظ كلمات لا جدال عليها ، واضافت بعد وقفة مسرحيةٍمملةٍ :

«ولكني استطيعُ ان أعدَّه في الحال . فماذا تشتهين ؟» .

اجابت «هيلينا» :

– «قائمة مخزن طعامك الواسع كلها» .

نظرت اليها السيدة (فيردن) مرة اخرى ، وسألتها معبرةً عن الموضوع باقتضاب :

– «اتريدين شراب الكاكاو ام ليموناً ؟»

فردت (هيلينا) :

– «ليموناً»

دخل السيد (فيردن) في هذه الاثناء . كان رجلاً قصيراً ذا لحية بيضاء وصوت ناعم .

وقال بطريقةٍ متحفظة هادئة :

– «لقد عدتِ اذن يانيللي» .

اجابته :

– «كما ترى يا ابي» .

– «هم ! .»

همهم مع نفسه وتحرك مبتعداً عنها .

لم يتجرأ أيٍ من والديها على سؤالها . لقد كانا يتحركان من حولها على اطرافِ اصابع اقدامهم خلسةً . ولكنها مع ذلك لم يمدا لها يد المساعدة . ولقد جعلتها همهمة والدها الصامتة . وسؤال امها المقتضب تنسحبُ نحو الداخل ، مثل قوقعٍ لا يستطيعُ التراجع اكثر

مما فعل بعيداً عن العيون المتهمة . تظاهرت على نحو مهملٍ بانها تأكل . وكانت مثل طفل ارتكب خطأ ولكنه لن يعاقب بل سيترك للاذلال . كانت ثمة طرقات سريعة رشيقة على الباب ، وتوجهت السيدة (فيردن) لتفتحه .

- «هل جاءت ؟»

تلت ذلك السؤال خطوات سريعة على بلاط الممر . ثم دخلت (لويزا) وألقت بنفسها على (هيلينا) وقبلتها ، وسألتها بصوتٍ يرتعشُ بالحنان .

- «متى وصلتِ ؟» .

اجابت (هيلينا) :

- «منذ عشر دقائق » .

فوبختها (لويزا) قائلةً :

- «ولماذا لم تخبريني بموعد وصول قطارك كيما استطيع ان آتي الى المحطة لاستقبالك ؟» .

فتشدقت (هيلينا) بالجواب :

- «ولماذا ؟» .

نظرت (لويزا) الى صديقتها بصمتٍ ، فلقد تأثرت بعمقٍ من سخريتها .

صعدت (هيلينا) باسرع ما يمكن الى الطابق الاعلى ، وقضت (لويزا) تلك الليلة معها . اذا انهما ستذهبان في اليوم التالي معاً الى (كورنويل) لقضاء عطلتهما الصيفية المعتادة . وستصحبها فتاة ثالثة ، صديقة بعيدة للويزا ، وعلى معرفةٍ طفيفة بهيلينا .

لم تنم أية من الصديقتين خلال الليل ، اذ كثيراً ما كانت (هيلينا) تبوح باسرارها الى (لويزا) التي تحتضن الحب والمأساة اللذين يغلفان الفتاة التي تحبها كثيراً . وفي الوقت نفسه . دارت افكار (هيلينا) في حلقات عديدة ، الواحدة تلو الاخرى ، مقيدةً بالايام الخمسة التي قضتها على البحر ، ساحبة الى الامام قدر استطاعتها موعدها يوم غدٍ مع (سيغموند) ولكنها لم تكن تستطيع الوصول الى اقرب من ذلك .

كان يوم الجمعة يوماً لا يطاق بسبب الصمت الذي لم تمزقه الاّ محاولات صغيرة رقيقة وانفجاراتٍ مازحة حَنون من جانب الام ، وقد صُدت جميعها بسرعةٍ من قبل (هيلينا) . اما الوالد فلم ينبس ببنت شفةٍ ، وتجنب النظر الى ابنته ، ولكن كان هنالك نبلٌ واضح في تخفظه المتواضع ، جعل عدم رضاه اصعب من ان يحتمل ، واكثر تأثيراً من التساؤلات الفاضحة المكررة في عيني الام . لكنِ النهار قد انتهى على اية حال ، وتظاهرت (هيلينا) بانها تقرأ . ثم جلست تفكر وعزفت قليلاً على كمانها بطريقةٍ آلية ، وخرجت الى المدينة وتجولت فيها . وفي النهاية خيمٌ الليل .

قالت (هيلينا) الى امها :

– «اعتقدُ ان من الافضل ان احزم امتعتي» .

فهتفت السيدة (فيردن) مبالغة في دهشتها :

– «الم تفعلي ذلك بعد ؟ . لن تتمكني من فعل ذلك ، ومن الافضل ان اساعدك» . ثم سألتها : «

«متى سيغادر القطار ؟» .

ابتسمت (هيلينا) واجابت .

– «الساعة العاشرة الاّ عشر دقائق» : .

القت امها نظرة على الساعة ، وكانت تشير الى الثامنة والنصف فقط . كان هنالك متسع من الوقت لكل شئ وقالت :

– «ومع ذلك ، فان من الافضل ان تكوني مستعدةً» .

استدارت (هيلينا) تعبةً من مبالغة امها التي اقترحت قائلةً :

«سأتي معك الى المحطة . سأرى اخر جزء منك وانت تغادرين ، لم نعد نرى الكثير منكِ هذه الايام» .

استدارت (هيلينا) من حولها في دهشةٍ ، واجابت خائفة من دون ان تجعل رفضها يبدو واضحاً جداً :

– «اوه ، لا داعي لذلك» .

– «نعم ، سأفعل وساودعكِ» .

كانت حيوية السيدة (فيردن) وتدليلها امرين جديدين . اذ انها في العادة جافة ومتحفظة في التعبير ، ولكنها في مناسبات مثل هذهِ ، وعندما تُذكّر بالعلاقات المثالية بين الام والابنة ، فإنّها تمثل دور الام الحنون على نحو مبالغٍ فيه يؤدي الى كآبة عامةٍ في العادة .

اشعلت (هيلينا) شمعة وذهبت الى غرفة نومها حيث حزمت سلة ملابسها بسرعة . وعندما وقفت امام المرأة لترتدي قبعتها . التقت عينيها المهمومتين في المرآة ، فادارت وجهها بسرعةٍ كما لو انها قد اكتوت وقالت لنفسها :

«كم ابدو غبية ! ، (وسيغموند) كيف حالة الآن ؟ . كيف مر عليه اليوم ؟ . وما الذي حدث له ، وما الذي احسَّ به ، وكيف يبدو الآن ؟ .» فكرت به وحاولت وقايته .

بعد ان حزمت سلتها ، حملتها الى الطابق الاسفل حيث كانت امها جاهزةً في انتظارها ، وهي تضع وشاحاً أبيض حول عنقها . وبعد فترة قصيرةٍ جاءت (لويزا) ووضعت سلتها في الممر ، واستقرت في احد الكراسي ، وقالت بعد بضع لحظات من الصمت :

– «لا أريدُ الذهاب يانيللي» :

فسألتها (هيلينا) غير دَهشة ولكنها متنازلة كما لو من اجل طفل :

– «لماذا ؟» .

قالت الاخرى متنكرةً :

– «لا اعرف . انا تعبة !» .

فردت (هيلينا) وهي تستعجلُ حزم الحقائب :

– «بالطبع انت كذلك ، ماذا تتوقعين بعد نهارٍ مثل هذا ؟»

وهتفت السيدة (فيردن) بطريقتها المبالغة ، وهذه المرة بتوبيخٍ ممزوج بالمزاح :

– « . . . ثم الاستعجال في حزم الحقائب .»

وكررت (لويزا) القول مكتئبة :

– «اوه ، لا اعرف . لا اعتقدُ اني اريدُ الذهاب ياعزيزتي » .

اجابت (هيلينا) وهي تنهض :

– «حسنٌ ، لقد آن لنا أن نُغادر ، هل ستحملين السلة ام الكمان يا امي ؟» .

نهضت (لويزا) وحملت حقيبتها الخفيفة وعلى وجهها تعبير بائس .

كان الافق الغربي المواجه للباب يتوهجَ بغروب الشمس ، ولم يكن الظلام غير دخان معلق خانق فوق الحرارة الحمراء الهابطة في ذلك النهار المشرف على الانتهاء ، وكذا كان توق (هيلينا) الطويل لليل . كانت عربة الترام مزدحمةً . وفي احدى زواياها ، كانت (اولف) الصديقة الثالثة ، التي نهضت بلهفةٍ كي تحييهم . جلست (هيلينا) خرساء ، بينما كانت العربة تتأرجح خلال أضواء محلات الدرجة الثالثة الصفر المبتذلة ، سمعت (اولف) تعلق على وجهها وذراعيها المحترقتين بالشمس ، واحست بالالتهاب المتجدد فيها ، وسمعت صوتها الغريب يجيب كأن كل شيءٍ من حولها في حالة انشداه . ومع وقع حركة العربة ، وبينما كانت بقع المحلات الصفر تمرُّ امام عينيها تمتمت مع نفسها :

«مائتان واربعون ميلاً» .



الفصـــل الخامس والعشرون

امضى (سيغموند) فترة الظهيرة في نوع من الغيبوبة . وعندما حان وقت الشاي ، تفجرت (بياترس) ، التي كبحت جماح نفسها حتى تلك اللحظة ، في نوبةٍ من الهستيريا الغاضبة . وسألته ببرود :

– «متى يبدأ عقدك ، مع المسرح الكوميدي ؟» .

وادرك انها تسأله عن النقود ، فاجابها :

– «غداً اذا كان سيبدأ» .

كانت تعرف انه يكره ذلك العمل . ولسبب او لآخر ، تفجّر غضبها مثل برقٍ مفاجيٍ عند قوله «اذا كان سيبدأ» ، فصرخت به :

– وما الذي يمكنك ان تفعله انا ، اذا اعتقد انكَ فعلت ما فيه الكفاية ، ولا يمكننا ان نفعل ما يحلو لنا دائماً . حقاً لا نستطيعُ ذلك . لقد اشبعت نزوتك ، اليس كذلك ؟ . اشبعت نزوتك وتريد الاستمرار . ولكن تذكر انك لست الوحيد في هذا العالم . تذكر ذلك . هنالك اطفالاً ايضاً دعني اذكرك بهم . ومن هم . انك تتحدث عن التهرب من المسؤولية ، ولكن من سيكون ، في اعتقادك ، مسؤولاً عن اطفالك ؟ من تعتقد ؟ .»

اجابها (سيغموند) ببرودٍ شديد :

– «لم أقل اي شيئٍ عن التهرب من المسؤولية» .

– «لا ، لا حاجة لان تقول ذلك ، انا اعرف ماذا تعني . انت تجلس هنا متكاسلاً طوال النهار ، وانا ماذا يجب ان افعل ؟ . عليَّ ان اهتم بالاطفال ، وان اكدح واخدم من يوم لآخر

دون انقطاع . ولكني اخبرك الآن ، باني ساتوقف عن فعل ذلك ، وسأفعل ما اشاء وساغادر البيت ايضاً . ولكن لن اكون جبانة مثلك ، وانت تعرف ذلك ، انت تعرفُ اني لن اترك الاطفال الصغار للخدمة في المنازل او لاي شيءٍ آخر . انهم اطفالي ، ولكنهم ربما ليسوا اطفالك» .

وردّ (سيغموند) بازدراء :

- «لا داعي لكل هذا» .

ابتدأ الضغط في صدغيه يؤلمه ، واحسَّ انه مريض على نحو كريه : قدحت عينا (بياترس) الغامقتان بالشرر ، وصرخت مرة اخرى .

- «لا داعي لكل هذا ؟ . . لا داعي ؟ . لا بل هناك داعٍ لاكثر من هذا ، . انا لا اعرف ماذا تتصورني ، ولا اعرف الى اي حدٍ تعتقدُ ان بامكانك الاستمرار . انت لا تريد ان تتذكرنا ، فتجلس مستغرقاً مسترخياً لانه يجب عليك العودة الى اطفالك . الى متى تظن أني سأتحمل ؟ ومن تظنني كيما استمر على هذه الحال ؟ . ماذا تحسبني ؟ . هل انا خادمة حتى أكل من بين يديك ؟ ،»

صرخ (سيغموند) بها :

- «اصمتي ، الا أعرف من تكونين . إصغي الى نفسك ! .»

وفجأة صمتت (بياترس) . كان صمت غضب ابيض حانق الى درجة ان (سيغموند) تملكه الفرح عندما سمع صوتها مرة اخرى . وعندما تحدثت ، كان ذلك بنبرةٍ واطئة مرتجفةٍ :

- «ايها الجبان التعيس ! . اذن فانا المخطئة ، وانا الملومة على كل ذلك . ايها المخلوق التعيس ، ليس لدي شك انك تعرفُ من انا ! .»

نظر (سيغموند) اليها بينما كانت كلماتها تتلاشى . ونظرت اليه مرةً اخرى بعينين غامقتين مروعتين يشعُّ منهما الحقد . كانت عيناه محمّرتين ماكرتين ، وفمه مفتوحاً في شبه تكشيرةٍ ممتلئة بالكرهِ والبغضاء . كانت تنخسه في الظلام الذي سحب نفسه اليه مثل كلب مريض كيما يموت او يستعيد عافيته . ولقد عذبته حتى ابتلع الغضب مرضه ، فتألق بسببها محمراً بينما كان يدفع كرسيه لينهض . ومع ذلك ، فلقد ارتجف كثيراً . سقط ذقنه على صدره مرة اخرى . وتسمرت (بياترس) في مكانها . عندما سمعت صوت اقتراب اقدامٍ ، ثم ارتجفت قليلاً وسكنت عيناها .

دخلت (فيرا) مع الطفلتين ، وتسمرت الفتيات الثلاث في الحال ، كما لو انهن وجدن انفسهن في مواجهة شيءٍ يهددهن ، وعالجت (فيرا) الموقف بان سألت في نبرةٍ منزعجة .

- «هل انتهيتما من المائدة كي ارتبها ؟» .

كان كوب ابيها نصف فارغٍ ، فلقد نزل متأخراً كي يشرب الشاي بعد ان غادر الآخرون

المائدة ، ومن الواضح انه لم يكمله بعد ، ولكنه لم يحبها ، وكذلك فعلت (بياترس) . نظرت (فيرا) بازدراء الى والدها ، بينما تسللت (كوين) جانبياً صوب امها ، وحاولت ان تبدد سحابة الارتباك فقالت :

– «امي ، كانت هناك سيدة بصحبتها كلبٌ ، ولقد تسلل الكلب الى دكان القصاب ولعق اللحم . . .» .

جلست (بياترس) ساكنة ولم تعرها ادنى انتباه . نظرت الطفلة اليها وانتظرت بعض الوقت ، ثم عاودت الحديث برقّةٍ :

« امي ، كانت هناك سيدة بصحبتها كلبٌ . . . .»

وصاحت (فيرا) بنبرة حادة :

– «لا تزعجيها» .

التفت الطفلة الى اختها دَهِشة وممتعضةً ، بينما كانت (فيرا) ترفع الاواني من المائدة بسرعةٍ وتضعها في صينيةٍ . استقرت عينا (كوين) للحظة او اثنتين على راس والدها المحني ، ومن ثمَّ ، استدارت متعمدة ناحية امها مرة اخرى ، واعادت في نبرة مقنعةٍ ناعمة جداً .

«يا امي ، لقد رأيتُ كلباً يدخلُ دكان قصابٍ ويلعقُ قطعة من اللحم ، امي ، يا امي» لم يكن هناك رد من الام ، وتوجهت (كوين) الى الامام ووضعت يدها على ركبة امها وتوسلت بها مخلوعة الفؤاد :

– «امي»..

ولكن ليس هناك رد .

«امي» .

كانت يائسة تماماً . ثم ما لبثت ان وقفت على اطراف اصابع قدميها ، وسحبت صدر امها بيديها الصغيرتين وهمست بصوتٍ ثاقب :

«امي» .

اما امها ، وفي محاولةٍ لنكران الذات ، فقد تخلت عن استغلالها للمأساة ، وشبكت ذراعيها حول كتفي الطفلة وسحبتها نحوها . أطمأنت (كوين) بعض الشيء ولكنها لم تقتنع ، ورفعت وجهاً جاداً ونظرت الى وجه امها جامد القسمات ، وبدأت تهمس متوسلةً ، متملقةً ملاطفةً :

– «امي ، كانت هناك سيدة بصحبتها كلب . . .»

استدارت (فيرا) بحدةٍ لتوقف الهمس الذي لم تعد تطيقه اعصابها ، ولكن الام منَعتها . ثم اخذت الطفلة بين ذراعيها ، وابعدت وجهها ، ووضعت خدها على خد الطفلة ، وتركت

دموعها تنساب بحرية ، كانت (كوين) مكتئبة جداً كي تبكي ، لذلك تجمعت الدموع على مهل في عينيها ، وتساقطت من دون ان تحرك عضلة في وجهها .

بقيت (فيرا) في حجرة غسل الاطباق تمسح دموعها في غضبٍ واسى وخزي بالمنشفة . كان الصوت الوحيد الذي يُسمعُ في الغرفةِ هو تنفس (بياترس) الحاد ، بينما جلس (سيغموند) ساكناً تماماً من دون اثر لايما حركةٍ ودون ان يتنفس تقريباً . كان رأسه مطرقاً الى الاسفل ، ولم يتجرأ ان يرفعه الى الاعلى او ان يعطي اشارة تدلُّ على وجوده .

وضعت (بياترس) الطفلة بعد ذلك ، وذهبت لتلحق بفيرا في حجرة غسل الاطباق ومن هناك جاء صوت المرأة الواطئ وهي تتحدثُ بنبرة غاضبة منذرةٍ بالسوء . وتبعت (كوين) امها ، وكان صوتها الناعمُ يَسمع ، وهي تقول :

– «امي هل اخطأ والدي ، ماذا فعل ؟» .

وصاحت (فيرا) :

– «ليس هذا من شأنك ، انكِ مخلوقة صغيرة مزعجة . خذي هذا الى غرفةِ الطعام واياك ان تسقطيه» .

لم تطع الطفلة بل ظلت واقفة تنقلُ بصرها بين امها واختها ، فدفعت الاخيرةَ الصحن بين يديها وقالت بهدوء وهي تدفع الطفلة الى الامام :

– «هيا اذهبي» .

غادرت (كوين) ثم ترددت قليلاً في المطبخ . كان والدها لا يزال ساكناً ، وتمنت الطفلة ان تذهب اليه وتتحدث معه ، ولكنها كانت خائفة . اجتازت المطبخ ببطء وهي تحتضن الصحن ، ثم عادت ببطء مترددةً ، ومشت جانبياً صوب المطبخ ، واستدارت من حول المائدة بوصة بعد بوصة ، مقتربة قليلاً قليلاً من والدها ، ثم توقفت على مسافة ذراع من كرسيه . اما هو ، فقد كان يستطيعُ من تحت حاجبيه ان يرى قدميها الصغيرتين في نعليها البُنيتين ، وهي تنتظرُ متحركة بعصبيةٍ بالقرب منه ، لملم شتات نفسه مثلما يفعل امرؤ يراقبُ مبضع الجراحِ معلقاً فوق جرحهِ . هل ستتحدث الطفلة اليه ، هل ستلمسه بيديها الصغيرتين ؟ . امسك انفاسه ، وبدا كما لو انه يمسك قلبه عن الوجيب . لم يكن يعرف ما يجب ان يفعله ! .

انتظر في دوامة القلق ، بينما كانت الطفلة تراوحُ بين قدمٍ واخرى . كان بامكانه ان يرى هدب سروالها التحتي الابيض . لقد اراد ، اكثر من اي شيءٍ آخر ، ان يأخذها بين ذراعيه ، ان يحصل على اي شيءٍ يخفي وجهه فيه . ومع ذلك كان خائفاً . وفي الكثير من الاحيان ، وعندما ينقلب العالم ضده ، كان يجدها ممتلئة بالحب ، ولقد اعتاد ان يخفي وجهه في جسمها

بينما تنام بين ذراعيه مثل قطعةٍ من زهر التفاح . آه ، لو انها تأتي اليه الآن ، وتوقف قلبه قلقاً مرة أخرى – ولم يكن يعرف ماذا سيفعل . انها لربما ستفتح ورم اله . وكان يرتجف بشدةٍ تواقاً كي يعرف ما يخشاه ومايره وما يأملُ فيه .

صاحت (فيرا) متسائلة عن اسباب تأخرها :

– «كوين ! ، كوين !» .

واجابت الطفلة :

– «نعــــم» .

ورأى (سيغموند) قدميها ترتفعان وتترددان وتتحركان ثم تستديران .

لقد ذهبت ! . وهبطت لهفته بسرعةٍ ، وعاوده المرض على نحو أشد ، واصبح اشدَّ رعباً ، واكثر عرضة للتعب من اي وقت مضى . وللحظة واحدةٍ كان الامر من السوء بحيث انه خشي معه ان يفقد وعيه .

عندما تحسن قليلاً ، استجمع نفسه وصعد الى الطابق الاعلى . كانت قبضتاه قد أُطبقت باحكامٍ واغلقت اصابعه على ابهاميه حتى هرب الدم منهما . ثم استرخى على السرير .

ولساعتين ظل متمدداً في حالة ذهولٍ يشبه النوم . وفي النهاية ، ابتدأ وعيه يلحُّ عليه بشدةٍ بانه يجب ان يقابل (هيلينا) كما وعدها . وكانت تلك فعالية منفصلة عن رغبته او وعيه ، ابتدأت تهزه وتوقظه .

عند الساعة الثامنة نهض (سيغموند) من الفراش ، وادهشه الم متشنج في ابهاميه ، فتفحصهما على نحو آلي ثم اغلقهما مرة اخرى تحت اصابعه بنفس الوضع الذي بدأ يناسبهما بعد ساعتين من الكبت المشابه . وفتح (سيغموند قبضتيه مرة اخرى مبتسماً وقال لنفسه :

كان رأسه مخدراً على نحو غريبٍ ، وكان يحسّهُ ثقيلاً من الخلف كما لو انه قد بُطّن بالرصاص . ولم يستطيع ان يفكر الا بجملةٍ واحدة منفصلةٍ على فترات ، وبينما كان يشعر بنوعٍ من الفراغ الذي يشبه النوم الرمادي او الاغماء ، وقال لنفسه :

«يجب ان اذهب واقابل (هيلينا) في (ومبلدن)» .

وفي الحال ، احسَّ بمتعةٍ غريبةٍ كما لو انه قد ضحك في مكانٍ ما في داخله . وتمتم مع نفسه :

«ولكني يجب ان اكون مستعداً ، لا يمكنني ان اخيب ظنها» .

بعثت فكرة مقابلة (هيلينا) فيه الرغبة في الراحة . ودَّ لو انه يقول لها :

«لا تذهبي بعيداً عني ، بل تعالي معي الى مكانٍ ما» . عندها لربما يستطيع ان يسترخي الى جانبها ، وربما ستضع يديها على رأسه ، لو انها تستطيعُ ان تأخذ رأسه بين يديها – لان لديها

يدين ناعمتين حريرتين ، تستكينان بضغطٍ خفيف ، وتغلفان ضعفه بالحياة – عندها لشئ رأسه بالتدريج ، ولاستطاع ان يرتاح في النهاية . كان ذلك هو الشيءُ الوحيد الذي يمكنُ ان يعيد اليه الحياة ، فتريحه بنبلها الصبور الذي لا يعرف الكلل ، ولقد تاق بكل معنى الكلمة الى يدي (هيلينا) وهدوئها ، وقال يخاطب نفسه ، محملقاً في منامهِ مثل رجلٍ مخمور :

«لكن هذا لا ينفع ! . مالساعة الآن ياترى» ؟ .

كانت الساعة التاسعة الا عشر دقائق وستكون (هيلينا) في (ومبلدن) الساعة العاشرة وعشر دقائق . هذا هو الوقت الذي يجب ان يكون مستعداً فيه . ومع ذلك ، بقي جالساً في السرير ، وقال لنفسهِ :

«لن انسى مرة أخرى ، ولكني لا اريد الذهاب ، فما الفائدة من ذلك ؟ ، يجب ان ارتدي قناعاً في هذا اللقاء ، وهذا فوق ما اطيق» .

ثم انتظر وانتظر ، وسقط رأسه الى الامام في نوع من النوم ، وفجأة جفل متيقظاً اذ كانت مؤخرة رأسه تؤلمه بشدة . وقال يخاطب نفسه :

«يا آلهي ، لقد ابتدأت الدنيا تظلم بسرعة» ! .

وكانت الساعة العاشرة الاّ ثلثاً ! .

اندفع مرتبكاً الى غرفة الحمام ليغتسل في ماء بارد يعيد اليه احساسه . كانت يداه متقرحتين ، ووجهه ملتهباً بضربة الشمس . ارتدى ملابس انيقة كما هي عادته ، وعندما انتهى كانت الساعة العاشرة الاّ عشر دقائق . سيتأخر كثيراً ، فلقد كان الجو مظلماً تماماً ، على الرغم من ان تلك النهارات البراقة كانت تبدو ابدية . وتساءل فيما اذا كان الاطفال في الفراش على الرغم من ان الوقت متاخر جداً لمثل هذا التساؤل .

اسرع نازلاً وتناول قبعته . وبينما كان يمشي في الممر ، فتح بابٌ من خلفه بسرعة ، وركضت (فيرا) وهي تصرخ .

– «هل انت خارج ، الي اين ذاهب» ؟

وقف (سيغموند) صامتاً ينظر اليها وقال لنفسه وهو يبتسم متهكماً انها خائفة ! .

– «ذاهب في جولة ، يجب ان اذهب الى (ومبلدن) ، ولن اتأخر كثيراً» .

فردت (فيرا) بنبرة حادة ممتلئة بالشك :

– «ومبلدن ، في مثل هذه الساعة» ؟

– نعم ، انا متأخر وسأعود بعد ساعة» .

كان متأسفاً من اجلها ، ولقد عرفت بانه قد اعطاها وعد شرف .

قالت له :

- «لا داعي ان تتركنا يقظين في انتظارك» .

لم يجبها بل اسرع الى المحطة .

★★★

الفصل السادس والعشرون

تسلقت (هيلينا) و (لويزا) و (اولف) درجات السلم كيما يذهبن الى محطة انتظار قطار الجنوب الغربي ، وهن محملات بسلال الملابس والمظلات والرزم الصغيرة . وكانت (اولف) و (لويزا) على الاقل تتمتعان بمعنويات طيبة . توقفت (اولف) امام جدول مغادرة القطارات واعلنت بنبرتها الرنانة :

– «سيصل القطار القادم من (واترلو) الساعة العاشرة والنصف . والساعة الآن العاشرة واثنتا عشرة دقيقة» .

فردت (هيلينا) قائلة :

– «سنأخذ قطار العاشرة واربعين دقيقةٍ . انه الافضل» .

فاستدارت (اولف) وهي تنظر اليها بطريقة ماكرة وقالت :

– «حسنٌ جداً يا عزيزتي . لقد علمت ان ثمة مراسيم توديع يجب ان نؤديها . اننا نتعاطف ياعزيزتي ، ولكننا نأسف للامر . فالشروع بالعطلة يمثلُ دائماً كرباً طويلاً . ولكني قوية بدرجة كافية كي احمله» .

وصاحت (لويزا) بطريقة لعوب :

– «انك تبدين اهلاً للامر . اذ يبدو كما لو ان بامكانك مصارعة ثور» .

فردت (اولف) بنبرتها الجهورية :

– «لا يَغرّنك مظهري يا عزيزتي (لويزا) . انك تنخدعين به بالتأكيد . فحالتي ينطبقُ عليها الشعر الذي يقول :

«إنّ ذروة فـرحـهـا هي عـنـدمـا تـكون حـزيـنـةً
وذروة حـزنها هي عـنـدمـا تـكون سعـيـدةً»

تلفتت من حولها لترى تأثير ذلك . اما (هيلينا) التي كان من المتوقع ان تقول شيئاً فلقد اكملت الشعر بطريقة ساخرة :

– «.... وان هذا لاشيء بالقياس الى جنونها» !

وهتفت (اولف) مضيفةً :

– «لا سيما عندما تكون ذاهبة لقضاء عطلتها يا عزيزتي» .

وصاحت (لويزا) :

– «استمري بجنونك» .

– «ماذا ؟ الا يعجبك الامر ؟ . اعتقدتُ انكِ ستشكرين السماء لانها اعطتني جرعات كبيرة من العقل» .

ضحكت (لويزا) وقالت :

– .... وجرعات صغيرة من العطل . لا ، انا احب جنونكِ اذا كنت تسمينه جنوناً ، فانت جادة تماماً» .

واعلنت (اولف) :

– «ليس من اللياقة التحدث عن حبال المشانق في بيت المشنوق ياعزيزتي» .

قالت ذلك وتلفتت من جانب لآخر وهي تحسُّ بالانتصار ، وابتسمت (هيلينا) معترفة بالمفارقة في الامر .

وقالت (لويزا) وهي تبتسمَ بقلقٍ :

– «ولكني لا استطيعُ أن أتبين الامر ، ما المشكلة ؟» .

فردت (اوليف) :

– «لكي اكون واضحة ياعزيزتي ، اعتقد ان ليس من العدل تماماً ان تتهميني بالحزن والجدية من بيننا نحن هذا الثلاثي» !

ضحكت (لويزا) وهزت رأسها بينما اضافت (اولف) :

«فكري في الامر ، الا ترينه كذلك» ؟

تنهدت (هيلينا) وهبطت من الرصيف . كان قلبها ينبضُ مهموماً حتى أصبح التنفس عليها عسيراً ، وكانت مصابيح المحطة معلقة على نحو واطئ مشكّلة سقفاً من الحرارة والضوء المُغبّر اختنقت تحته . وللحظة احست بالهستيريا وكان احساسها مشابهاً لما نشعُر به عندما يداهمنا المرض في ليلٍ صيفي حار ، كما لو كان سيصيبها الجنون حقاً ، وكانت متلفعة ببطانية صوفية

رمادية وقد كتمت الحرارة أنفاسها . لقد تأخر (سيغموند) ، فالساعة الآن العاشرة وخمس وعشرون دقيقة ، وعندما اتجهت نحو غرفة التذاكر ، وصل (سيغموند) الى المنصة وقال لها :

– «ها انا ذا . . اين لويزا» ؟

اشارت (هيلينا) الى المقعد من دون ان تجيب . كانت تنظر الى (سيغموند) الذي كان مشدوهاً بتأثير اللحظة بحيث انها لم تستطع فهمه فاضافت :

«اولف هناك ايضاً» .

توقف (سيغموند) ساكناً محملقاً كما يرى المرأتين الاخريين الجالستين وسط سلال الملابس الخيزرانية الشاحبة والسجادات ذات الالوان الغامقة . ولقد جعل وجود المرأة الغريبة الامور اكثر تعقيداً .

وسألها :

– «اتعرف صديقتك الاخرى الامر» ؟

فردت (هيلينا) بنبرة واطئةٍ بينما كانت تقوده الى الامام كي تقدمه لها :

– «انها لا تعرفَ شيئاً» .

وردت (اولف) بصوتٍ رقيق جداً :

– «مرحباً احذر البواسل الثلاث واشراكهن . اتود التفرج على مغامراتنا» ؟

فاجاب (سيغموند) مبتسماً :

– «سأفعل ، لاني قد لا افعل شيئاً أكثر» . ثم اضاف قائلاً :

وكيف حال الاخت لويزا» ؟

فصاحت (لويزا) منتصرة متشفيةً :

– «انها بخير جداً . شكراً لك ، لقد جاء دورها الآن» .

كان ثمة نوع من العداء الخفي في موقفها تجاه (سيغموند) باستمرار . ولقد فهم ذلك وابتسم لعدوانيتها ، لان الاثنتين كانتا صديقتين حميمتين .

– «دورك الآن» !

اعاد الكلمة مبتسماً ثم ادار وجهه .

ابتعد متمشياً مع (هيلينا) على المنصة وسألها :

– «كيف وجدتِ الامور في البيت» ؟ .

اجابت غير مكترثةٍ :

– «كالمعتاد ، وانت» ؟

اجابها :

– «الشيْ نفسه» .

ثم فكر للحظةٍ او اثنتين واضاف :

«الاطفال اكثر سعادة من دوني» .

واحتجت (هيلينا) بتعاسةٍ :

– «يجب الاّ تقول شيئاً كهذا . ان ذلك ليس صحيحاً» .

فاجابها :

– «لا بأس ياعزيزتي» . ثم اضاف بعد توقف قصير «طالما انهم سعداء . ولكني لستُ على مايرام الليلة» .

ضغطت (هيلينا) بشدة على ذراعهِ . وكان قد وصل الى نهاية المنصة . فتوقف هناك يتأمل الافق الذي اصبح اشد ظلمة تحت ضبابِ الاضوية . كان ثمة حشد من اضوية الاشارة الحمراء العالية المعلقة في الاعلى ، فكانت تبدو مثل صاروخ سماوي متفجرٍ في البعد . وكانت هناك ايضاً شبكة من مصابيح الاشارة الخضر والحمر البراقة . ثم قدم قطار بتوهجه الدافئ المنبعث من عمود الدخان السميك وهو يجأر صوب العاشقين . احسّا بالحواجز الصفر لشابيك العربات تندفع متذبذبة امام وجهيهما . واهتزت الارض وارتجف الهواء . عندها استدار (سيغموند) كيما يراقب الاضوية الحمر والخضر في مؤخرة القطار ، وهي تتضاءل تدريجاً في الظلام ، وبينما كان يحملق في المسافة التي خلفها القطار المبتعد قال لها :

– «اريدك ان تعديني ياعزيزتي بأنه مهما حدث لي فإنك يجب ان تواصلي الحياة ، وتذكري ان خطأين لا يمكن ان يصنعا شيئاً صحيحاً» .

واجهته (هيلينا) مروعةً تنظرُ في عينيه ، ولكنه كان في الظل ساعتئذٍ ، فلم تستطع أن تتبينه ، غير ان نبرة صوته الرتيبة كان ينقصها الرنين – النبرة الميتة الخرساء – ولقد جعلتها تكاد تفقد عقلها . فحملقت فيه مرعوبة . وسألته بحدةٍ :

– «ماذا تعني ؟ ماذا حدث ؟ هل حدث مكروه لك ؟ احدث شيْ ما في البيت ؟ ومالذي تنوي فعله» ؟ .

كانت تنبض بالرعب ، لانها احست وللمرة الاولى بانها عديمة الحيلة ، وان (سيغموند) بعيد عن متناولها . كانت خائفة منه . وافلت من قبضتها وقال مجهداً .

– «لا شيْ جديداً قدر تعلق الامر بالبيت ، اقسم على ذلك» .

كان عليه ان يجلد بسوط العاطفة مرة اخرى فأضاف :

– «كما اني لم اقرر بعد ، ولكني لا استطيع التفكير في الحياة من دونك ، وان الحياة يجب ان تستمر» . .

قالت بحنقٍ وهي تستدير نحوه :
- «وانا اقسم باني لن اعيش يوماً واحداً من بعدك» .
حنى (سيغموند) رأسه ، فهاهو ربيع عاطفته الميت ، يسخنُ ويتفتحُ حاراً مرة اخرى !
عندها قال بصوتٍ يكاد يكون غير مسموع :
- «لا تتحدثي معي بهذه الطريقة يا عزيزتي ، فقد فات أوان غضبك . وعندما يغادر قطارك الليلة فلن يبقى منكِ اي شيء» ! .
نظرت اليه (هيلينا) خرساء من الرعب ، متبلدة غاضبةً ، ثم سمعا اصوات الحمالين وهم يصرخون بصوتٍ عال بان قطار (واترلو) سيغادرُ من منصةٍ أُخرى .
قال (سيغموند) وهو يسرعُ باتجاه (لويزا) و (اولف) :
- «من الافضل ان نسرع» .
وصرخت (لويزا) وهي تركضُ الى الامام معلنةً الانباء باشارة من يديها :
- «يجب ان نُغيّر المنصات» .
فاجابت (هيلينا) شاحبة وجامدة .
- «نعم» ، بينما حمل (سيغموند) الحقائب .
وصرخت (اولف) وهي تندفع كي تمسك بهيلينا ولويزا من الذراع :
- «انظرا . . انظرا الى تلك القبعة» .
كانت ثمة سيدة في المقدمة ، تضع على قبعتها صفاً غريباً واشعث من ريش الطاووس .
واضافت (أولف) بصوتٍ اجش :
«انه منظر العمر ، لن ادعه يفلت منكما» !
فقالت (هيلينا) وهي تستديرُ في سخط متوحش كي تنظر الى السيدة .
- «بالتأكيد لا . متعي بصرك يا (اولف) ، ودعينا نحصل على انطباع ذهبي جيد يلازمنا طول العمر» .
فقالت (اولف) جاهلةً سبب هذا الانفجار :
- «هذا صحيح ياعزيزتي» !
حمل (سيغموند) اثقل حقيبتين . وكان بإمكانهنَّ ان يربنه امامهنَّ متسلقاً درجات السلالم
حولت (اولف) نفسها من الوضع المفعم بالحيوية الى السخرية الهادئة ، وقالت وهن يسرعن في مؤخرة الحشد :
- «على كل حال ياعزيزتي . ليس شيئاً رديئاً على الاطلاق ان نحصل على رجل» .
وضحكت (لويزا) بصوت عالٍ من هذا التصور العامي لسيغموند . واتفقت (لويزا) معها

قائلة :

- «الآن على الاقل» . . .

عندما وصلوا المنصة ، مرَّ القطار من امامهم . وبحثت (هيلينا) بقلق عن عربةٍ فارغة ولكنها لم تعثر على واحدةٍ ، وفكرت مع نفسها :

- «ربما ذلك افضل . اننا لا نحتاج ان نتحدث ، فهنالك ثلاثة ارباع الساعة حتى نصل الى (واترلو) ، فاذا كنا لوحدنا ، فإنَّ (اولف) ستجبر (سيغموند) على الحديث» .

وجدت عربة فيها اربعة اشخاص فاحتلتها بسرعةٍ . وتبعها (سيغموند) بالحقائب التي وضعها على الرف ، ومن ثمَّ ، تناول بسرعةٍ السجاجيد والمظلاتِ والامتعة من المرأتين الاخريين ووضعها جميعاً على المقاعد او في مكان آخر ، بينما كانت (هيلينا) تقوم بترتيبها . ولقد شغلها ذلك للحظةٍ او اثنتين وامتلأت بالخوف ودخل ناسٌ آخرون كانت امتعتهم متنافرة جداً كي تُرتب .

عندما استدارت من حولها ، وجدت (لويزا) و (اولف) جالستين ، ولكن (سيغموند) على المنصة في الخارج والباب مغلق . راى وجهها يتقلص كما لو انها ستصرخ ولكنها كبحت نفسها ونادته في الحال :

- الست قادماً معنا ؟ . الا تأتي الى (واترلو)» ؟ .

ولكنه هزَّ رأسه بالنفي وقال لها .

- «لا استطيع القدوم» .

وقفت تنظر اليه مشدوهة بعض الوقت ، غير قادرة على الوصول الى الباب بسبب حقيبة سفر مثبتة عليها بعض المظلات والقضبان تجثمُ على القاع بين رجلها وبقية الركاب كانت عديمة الحيلة ، وكان الهذيان يغشي ذاكرة (سيغموند) .

- «اوه ، اذهبي ، اذهبي ، متى ستذهب» ؟

لم يكن يستطيع تحمل شفقتها ، وكان وجودها يجعله يشعر بالجنون .

وسألها رجل برقة :

- «اتودين ان تأتي قرب الشباك» ؟ .

ابتسمت (هيلينا) فجأة باتجاهه من دون ان تعي ماتفعل . وسحب الرجل حقيبة السفر تحت رجليه وتقدمت (هيلينا) الى الامام . وقفت قرب الباب منحنية الى الامام برقةٍ محتفظة بنبلها القديم المتحفظ . كانت لطيفة ومتحفظة . انحنت الى الامام تنظر الى (سيغموند) ، ولكن وجهها كان فارغاً بسبب التعاسة والاندهاش . وقفت تنظر اليه غير قادرة على ان تقول شيئاً . كان جبينه مسفوعاً بالشمس ومنتفخاً . ولاحظت باسىً ان الجلد كان متقرحاً تحت

احدى عينيه ايضاً . وكانت عيناه حمراوين ومكسوتين بنوع غريب من اللامبالاة ، وملأها ذلك بالرعب .

نظر اليها لانها ارادت ذلك ، اما هو فلم يكن يستطيعُ رؤيتها . كل ما يستطيعه هو ان يبتعد عنها ، ولقد كان كل ما تمناه هو ان يخفي نفسه وحيداً في الظلام . ومع ذلك ، فلقد ارادته واستجاب هو الى هذا الحد ، ولكن الذهاب الى (واترلو) امرٌ لا يطيقه .

انزعج الناس في العربةِ من هذا الوداع الغريب الاخرس ، ومرت بضع لحظاتٍ متوترة من الصمت . ولم يمتلك احد القوة ليقطع هذه المسافات من الحزن القلق . وفي النهاية ، صفر الحارس ، وتشابكت يدا (هيلينا) و (سيغموند) ، وانساب تدفق دافئٌ من الحب ، وتغلب حزن معافى على (سيغموند) للمرة الاخيرة .

بدأ القطار بالحركة ساحباً يد (هيلينا) منه وهمست :

– «الاثنين» .

– «الاثنين» ! .

وكانت تقصدُ انها ستستلم رسالة منه يوم الاثنين القادم . هزَّ راسه ثم استدار متردداً ؛ نظر اليها واستدار ، ثم اختفى بعيداً بينما بقيت في الشباك تراقبه وهو يغادر ، وقالت (اولف) في نوع من الهمس :

– «والآن ياعزيزتي بقينا بدون رجل» .

ولكن محاولتها في التنكيت سقطت ميتةً . كان الجميع صامتين ومترعجين .



الفصل السابع والعشرون

اسرع هابطاً المنصةَ ، جافلاً في كل خطوةٍ من ذكرى منظر (هيلينا) الاخير ، وتوقها المهموم الابكم . شدَّ قبضتيه حتى ارتجفتا ، وانسحق ابهاماه مرة اخرى تحت اصابعه . ومثل صورة مرسومة على قماش امامه ، كان لا يزال يرى وجه (هيلينا) أبيض مدوراً بملامح بكماء جامدة تماماً . اضفت عليه عيناها الحزينتان المتوسلتان بصمت المزيد من الاسى .

فكر بها وهي تبتعد وتبتعد ، صامتةً عند شباك العربة تنظر الى الخارج عبر الليل ، مندفعة غرباً فغرباً باتجاه ارض (اسولد) . وانتابت (سيغموند) اشياء اشبه بالهذيان ، ولم يكن يعرف الى اين يسرع . وكان وجه (هيلينا) امامه دائماً ، كما لو انه مرسوم على قماش ، وفي مكانٍ ما ، خلف القماش ، كانت (كورنويل) تبدو مثل مكان منعزلٍ بعيد حيث يهبط الظلام بشدة . وفي بعض الاحيان ، يرى شبحاً صغيراً معتماً بعيداً جداً في ظلام (كورنويل) ، ثم يطلّ وجه (هيلينا) ابيض جامداً مثل قناعٍ ، بعينين مهمومتين ، بينه وبين الشبح .

وكاد يجفل عندما وجد نفسه في رواق بيته . فُتح الباب وتذكر بانه سمع صوت اقدام سريع مكتوم ، ولقد كانت (فيرا) . القت نظرة عليه بيد انها لم تقل اي شيْ . لقد جفلت منه غريزياً ، ومرَّ من دون ان يلحظها ، بينما وقفت على سجادة الباب محاولة اقفاله ، باحثة عن شيْ تقوله ، ثم قالت ، وقد انزعجت اكثر عندما اكتشفت بان صوتها يرتجف ، ولم تكن تعرفُ سبب ذعرها :

– «لقد مرَّ اكثرُ من ساعة على خروجك» .

ورد عليها :

- «نعم»
واتجه الى غرفة الطعام ، ورمى بنفسه في كرسيه ، ورأسه بين يديه ، ثم تبعته (فيرا) بعصبيةٍ وسألته :
- «هل تريد شيئاً ما لتأكل ؟» .
نظر الى المائدة كما لو ان العشاء الموضوع هناك كان غريباً وغامضاً . واظهرت الطريقة الهذيانيه التي رفع بها جفني عينيه ، بؤبويه المظلمين وبياض عينيه المشوب بحمرة الدم . امسكت (فيرا) انفاسها من الخوف . وانزل (سيغموند) راسه مرة أخرى من دون ان ينبس ببنت شفة . جلست (فيرا) وانتظرت ، ومرت الدقائق ببطء ولكنه لم يتحرك او يتحدث . وفي النهاية ، دقت الساعة مُعلنة منتصف الليل . وكانت (فيرا) متعبة من النعاس ومتبرمة من الانزعاج وسألته :
- «الا تذهب الى الفراش ؟» .
سمعها (سيغموند) دون أن يُعَيرها انتباهاً . كان يبدو انه سمع بنصف سمعِهِ .فانتظرت (فيرا) للحظةٍ ثم اعادت السؤال بطريقةٍ جافة .
- «هل ستذهب الى سريرك يا أبي ؟» .
رفع (سيغموند) رأسه ، ونظر اليها . لقد كره فكرة ان يتحرك ، ولكنه نظر اليها مرتبكاً وقال :
- «نعم ، انا ذاهب» .
ثم سقط رأسه مرة اخرى . كانت (فيرا) تعرف انه لم يكن نائماً ، ولكنها لم تتجرأ على تركه دون ان يذهب الى غرفةَ نومه ، فجلست تنتظره مرة اخرى ثم ما لبثت ان صرخت في النهاية :
- «ابي» .
فحملق فيها ممسكاً بذراعي كرسيه مرتجفاً :
- «نعم . انا ذاهب» .
نهض وصعد مترنحاً الى الطابق العلوي وتبعته (فيرا) في الحال وهي تفكر مع نفسها : «اذا سقط وتدحرج الى الخلف فانه سيقتلني» . ولكنه لم يسقط . وبحكم العادة ، توجه الى غرفة الحمام . وبينما كان يحاول ان يفرش اسنانه ، اسقط فرشاة الاسنان على الارض ، وقال لنفسهِ مستمراً في هذيانه :
«سألتقطها في الصباح ، يجب ان أوي الى فراشي ، يجب ان آوي الى فراشي ، انا متعب جداً» . ثم تعثر فوق سجادة الباب داخلاً الى غرفته .
كانت (فيرا) تقف خلف باب غرفتها ، فسمعت صوت سقاطة بابه ، ووصلها صوت الماء

الذي لا يزال يجري في غرفة الحمام ويقطر مصدراً صوتاً غريباً . في جوف الليل البهيم . استجمعت شجاعتها وذهبت لتغلق صنبور الماء ، ثم وقفت مرة اخرى في غرفتها كيما تكون قريبة من تنفس اختها النائمة ، مصغية لما يفعل . خلع (سيغموند) ملابسه بسرعةٍ ، وكان هاجسه الوحيد هو الذهاب الى الفراش . قال محدثاً نفسه وهو يسقطُ ملابسه على الارض :

«على المرء ان ينام» .

ولم يكن يستطيع الاهتداء الى طريقةٍ لارتداء سترة منامته . ولقد جعله ذلك يلهث تعباً . اذ كان اي شيءٍ مهما كان صغيراً ، يعيق او يعترض تصرفه الآلي يزيد من مرضه ، حتى عقله كان على وشك الانفجار . تمكن من ترتيب الامور في النهاية ، واصبح في فراشه .

وفي الحال ، سقط في نوع من الغيبوبة التي كان يسميها نوماً . ولكن الامر لم يكن كذلك . وطوال الوقت ، كان يستطيع الاحساس بعقله وهو يعمل من دون توقف مثل آلة تتحرك مسرعة من دون توان . ثم استمر على ذلك الحال دون ان تقاطعه الاّ بضع موجات من الوعي لثلاث او اربع ساعات ، وفي كل مرة يعاوده فيها بصيص من الوعي . كان يتساءل فيما اذا كان يصدر أي ضوضاء . ما أنا فاعلٌ ؟ ما الامر ؟ هل انا فاقد للوعي ؟ هل اصدر اي ضوضاء ؟ هل أزعجهم ؟ كان يتساءل ويحاول ان يتذكر كيما يجد سجل انطباعه الآلي . إعتقَد انه يستطيعُ تذكر اصوات الهمهمة الخرساء في حنجرته . وفي الحال ، تذكر انه يستطيع الاحساس بحنجرته وهي تصدر الاصوات ، ولقد اخافه ذلك . . وفوق كل شيءٍ كان خائفاً من ازعاج عائلته . نهض لكي يصغي . كان كل شيءٍ يتنفس بصمت . وبينما كان يصيخ السمع الى الصمت غاب مرة أخرى في النوع من النوم ، الخاص به .

عندما استيقظ في النهاية ، على صوت تنفسه ، كانت درجة حرارته مرتفعة على نحو مرعب ، اذ ان الوسادة وشراشفه وشعره بدت جميعها وكأنها تصدر نوعاً من البخار الحار ، بينما كان جسده غارقاً في العرق . ثم ابتدأ النور بالظهور . وفي الحال ، اغلق عينيه مرة اخرى واستقر ساكناً . لقد اصبح واعياً الآن ، ونشط عقله على نحو مزعج ، ولكن جسده كان شيئاً مستقلاً ومضجراً وثقيلاً وحاراً ، لا يسيطر عليه الاّ قليلاً .

تمددً (سيغموند) ساكناً ، وعيناه مغلقتان متحملاً العذاب الشديد الناتج من انسياب قطرات العرق . كانت القطرات تتجمع اولاً ثم تجري وتشق طريقها المتعرج بلهفةٍ باتجاه تجويف ءالعنق . فكانت اعصابه جميعاً ترتجفً بفعل ذلك . ومع ذلك ، احسً بانه لن يستطيع الحركة اكثر من أن يُشنج حنجرته قليلاً . وبينما كانت الاعصاب الممتدة في طريق قطرة العرق ترتجف بحساسيةٍ شديدةٍ ، كانت قطرة اخرى تبدأ من الجانب الآخر من صدره ، وتجري نحو الاسفل على العضلات الصغيرة لجنبيه كيما تقطّر على السرير . كانت حركتها مثل مشية عنكبوت فوق

جسده الحساس الساكن . لماذا لا يمسح نفسه ؟ . لم يكن يعرف السبب . تمدد ساكناً متحملاً هذا التقطير المزعج الذي يبدو انه يلسعه في الاعماق بدلاً من ان يبذل جهداً كيا يتحرك ، فلقد كره ان يفعل ذلك ، وسقطت قطراتٌ من جبهته على صدغيه ، وهي قطرات لم يعرها اهتماماً بها لانه كان متبلد الاحساس في ذلك الموضع من جسده . ولكنه جفل مرة اخرى في تشنجات شديدةٍ صغيرةٍ على جانبي صدره وتحت ابطيه واسفل جوانب فخذيه الداخلية ، حتى بدا وكأن هنالك حشداً من الحشرات يدبُّ فوق جسده الحساس الرطب الحار . كانت اعصابه ترتجف كلها بالغضب و بالقلق المفعم ، واصبح الامر لا يطاق بالنسبة اليه . احسَّ لو انه تحمل ذلك للحظة اخرى ، فإنّه اما ان يصرخ او يختنق او ينفجر .

جلس في فراشه بسرعةٍ ، ورمى الشراشف فخرجت منها نفحة بخار حادةٍ ، وبدأ يمسح جنبيه ورجليه بمنامته . مسح بجنون لبضع لحظاتٍ ثم تنهد بارتياح . جلس على جانب الفراش مبتعداً عن الرطوبة الحارة حيث كان يستلقي .

وللحظة فكر في ان يستغرق في النوم . ولكن عقله بدأ يطرق طرقات اليقظة في الحال . جلس ساكناً ، كارهاً اكثر من اي وقت مضى ، ان يتحرك . ولكن عقله لم يعد مشوشاً بضباب حار بل كان صافياً . جلس منحنياً الى الامام على جانب السرير ، وسترة منامته مفتوحةً ، وتسلل الفجر الى الغرفة ، واندفع هواء الصباح العليل عبر الشباك المفتوح على مصراعيه . احسَّ بشعور غريب بالذنب والخطأ لانه قفز بهذه الطريقة من سريره ، كما لو ان المفروض ان يتحمل حرارة جسدهِ والجريان الجهنمي لقطرات العرق . ولكن عندما فكر في الامر ، حرك يديه ممتناً ، فوق جنبيه الذين كانا جافين وناعمين وهشين . وباردين قليلاً على سطح الجلد ، ربما لانه احسَّ فجأة برجفة من تماس جسده الدافئ مع يديه .

جلس (سيغموند) منتصباً ، وعادت الحيويةِ الى جسده . تحسس الوسادة والتجويف الذي كان ينام فيه ، فكان رطباً ودبقاً . وفي السرير ثمة رائحة عرق ليست كريهة تماماً ، غير انه اراد شيئاً عذباً وبارداً .

جلس (سيغموند) في الباب المؤدي الى الشرفة الصغيرة ، كان الهواء بارداً عذباً ، وتحسس صدره ليتأكد انه ليس دبقاً ، فكان ناعماً مثل الحرير . ولقد سرَّهُ ذلك كثيراً . نظر الى الليل في الخارج مرة أخرى وحفل . ففي مكانٍ ما ، كان القمرُ يشرقُ في جزءٍ مخفي من السماء ، لكن مقابلة تماماً في الشمال الغربي ، كان ثمة ضوء صامت مرتعش . انتظر ، متقطع الانفاس ، ليتأكد من حقيقة مارآه . ومرةً اخرى ، قفز الضوء الشاحب الى قمة الليل المتراجع ، مثل طير ابيض يخفقُ بقلقٍ على عشه .

ابتدأ الليل ينقشعُ ويشحبُ متحولاً الى لون رمادي . والضوء ، مثل طير ، كان المفروض

ان يكون قد طار قبل ان يتحرك ذراع النهار على عشه في اغصان الظلام . فرفع نفسه وحرك جناحيه الشاحبين بسرعة وهبط مرة اخرى ، كارهاً ان يطير . راقب (سيغموند) ذلك بدهشة ومتعة .

كان النهارُ يدفع اغصان الظلام جانباً باحثاً عن القمر المسكين الذي سيصطاده عندما تُلقى الشبكة . وخرج (سيغموند) الى الشرفة كيما يراقب ذلك . وهناك كان القمر مثل فأر ابيض بائس ، نصف قمر جاثم على تلة في طريقة ، وهو سيتسلقها نحو المنحدر الغربي حيث يسقط هناك في الشبكة ، وستضحك الشمس مثل قطة كبيرة صفراء وهي تمزحُ مع ضحيتها بمخالبها البراقة ، وقبل ان يقوم القمر بركضته الاخيرة ، اضطجع جاثماً نابضاً . وزحفت الشمس الى الامام ضاحكة وهي ترى ضحيتها عاجزاً عن الهروب . وقفز الضوء ، مع ذلك ، من العش ، مثل طير قرر ان يذهب ويطير بعيداً . ولم يعد (سيغموند) يراه وهو يفتح ويغلق جناحيه بتردد وسط فوضى الفجر ، وبدلاً من ذلك ، كان هناك تدفق من نور ، فلقد اختفى الضوء الابيض وارتفعت فراشات شروق الشمس وغروبها بنفسجية اللون من حقول الظلام ، ورفرفت واطئة في السحب ، وفي الغرب ايضاً ، طارت حشودٌ وردية نحيفة ما لبثت ان انفصلت متباعدةً وحلقت في الاعالي . بعضها يرتفع الى الاعلى فيصبح ذهبي اللون ، وبعضها يصبح بلون الذهب المورد عندما يطير صوب القمر . ومثل القمر الذي يشبه الفار من الذعر . وفي الحال ، اختفت الفراشات البنفسجية تاركةً امتداداً قرمزياً مثل حقل من الخنشخاش في المستنقعات ، ومثل ريح ، كان ضوء النهار يهبُّ من الشرق ، نفحة بعد اخرى ، مالئاً بالبياض الفراغ الذي كان الليل يحتله . جلس (سيغموند) يراقُب آخر ساعات الصباح وهي تهبُّ عبر حقول الظلام حتى انكشف العالم كله ، واصبح القمرُ مثل فأر ميتٍ يطفو على الماء .

وعندما هتفت بضعة طيور في ذلك الصباح من ايام آب ، وانهت الديكة صياحها ، واستيقظت همسات الفجر ، ارتجف (سيغموند) بائساً ، واحسَّ بالتعب مرة اخرى . ومع ذلك ، كان يدرك ان ليس بمقدوره العودة الى النوم ، فلقد كان الفراش يرفضه ، جلس في كرسيّه عند الباب المفتوح متحركاً بقلق . لماذا يكونَ النوم الماً وقلقاً ؟ . استدار وتأرجح في كرسيه وسأل نفسه وهو يطلُّ على الصباح في الخارج :

– «اين هيلينا ؟» .

كان كل شيءٍ في الخارج وهمياً مثل صندوق الدنيا . وكانت (هيلينا) ممثلة في مكان ما في بريق ذلك المنظر . وكان هو الوحيدُ الذي بقي خارج المشهد . تنهد بنكدٍ ضاغطاً كتفيه الى الخلف كما لو انه يتألم ، ولقد آلمه ذراعاه بشدة ايضاً ، بينما كان رأسه يبدو وكانه يهسهسُ بنزق غاضب . ولفترة طويلةٍ ، جلس واسنانه مطبقة ، كابحاً نفسه بقوةٍ . وفي حالة الانزعاج

هذه ، كان كل شيءٌ يحدث لعقله يؤججه بالكره او الازدراء ، هيلينا والموسيقى ، ورفقة اصدقائه ، وشروق شمس الريف ، كان كل شيءٌ يعرضُ نفسه على افكارهِ يقابله بازدراء غاضبٍ ويرفضه باحتقار . وبما ان لا شيءٌ يمكنُ ان يسره او يثير انتباهه ، فإنَّ الشيءٌ الوحيد الباقي هو ان يزيد من هذا الاشمئزاز . احسَّ كما لو انه طرفٌ مفصولٌ من جسد الحياة ، وتصور في خياله انه مجرد اصبع منفصل ومتفخٍ وعديم اللون يمزقه الألم . وكان السؤال هو كيف يعيد نفسه الى المفصل ؟ كان جسد الحياة بالنسبة اليه يعني (بياترس) والاطفال و (هيلينا) والاوبرا الساخرة واصدقاءه في (الاوركسترا) ، كيف يمكنُ ان يعيد نفسه مرة اخرى في مفصل مع كل هذه الاشياء ؟

كان ذلك امراً مستحيلاً ، كان عليه ان يُحمّل نفسه الاذلال نحو أسرته ، وذلك امرٌ مثير للسخرية ، اذ يجب عليه ان يهجر (هيلينا) وهو امرٌ لا يقوى عليه ، وان عليه أن يعزف بنشاطٍ ليلة بعد أخرى موسيقى (السويسرية الصغيرة الانيقة) ، وهي موسيقى مملةً ، وفي النهاية ، كان كل شيءٌ مملاً ومستحيلاً . حسن اذن . اذا كان الامر كذلك ، فما الذي بقي ممكناً ؟ . لماذا لا يذهب ؟ . اذا كانت هذه اليد تعتدي على الاخرى فاقطعها . ان عليه ان يقطع نفسه من الحياة . كان الامرُ واضحاً وصريحاً .

ولكن ماذا يحدث لبياترس واطفاله الصغار من بعده ؟ . لقد ارتبط معهم بعهد الاّ يعرضهم الى العار . حسنٌ . ان عليه الا يعرضهم له ، ولكن ماذا بعدئذٍ ؟ . الاحتقار في البيت ، وهجر (هيلينا) ، والموسيقى الساخرة ليلة بعد اخرى . ان ذلك امر مستحيل ولا يطاق . وسيكون مثل رجل مربوط بحبلٍ لا يقوى على تحرير نفسه . فهو لا يستطيع هجر (هيلينا) والعودة الى الحياة الذليلة في البيت ، كما لا يستطيع التخلي عن اطفالهِ والذهاب الى (هيلينا) .

إنَّ ذلك مستحيل ! . عندها بقي بابٌ واحد يمكن ان يُفتح في سجن الحياة هذا . نظر (سيغموند) من حوله في الغرفة . ان باستطاعته ان يحصل على شفرةٍ او بامكانه ان يشنق نفسه . لقد فكر في الامرين من قبل . اما الآن فلا خيار له . كانت حقيبة السفر تنتصب عند ارجل السرير وحزامها مفتوح . ان حزام حقيبة السفر سيكون مفيداً . اذن ليكن حزام حقيبة السفر ! .

«لقد حُلَّ الامر . ومن الافضل ان اكتب الى (هيلينا) واخبرها واقول لها : انها يجب ان تستمر . ان من الأفضل ان أخبرها .»

جلس لفترة طويلة مع دفتر ملاحظاته وقلمه بيده ، ولكنه لم يكتب اي شيءٌ وفي النهاية تخلى عن الفكرة وقال لنفسه :

«ربما سيكون ذلك افضل ، لقد قالت بانها ستأتي معي ، وربما سيكون ذلك امراً مفيداً . انها ستذهب الى البحر عندما تصلها الاخبار ، وسيأخذها البحر . ان عليها ان تعرف» .

اخرج بطاقة تحمل اسمها وعنوانها في (كورنويل) من دفتره الجيبي ووضعها على منضدته وقال لنفسه :

«انها ستأتي معي» واحسَّ بالتحرر في قلبه فاضاف : «ان هذا لجبن» .

وظلَّ ينظرُ بشكٍ الى البطاقة متسائلاً فيما اذ كان يتوجبُ عليه ان يدمرها .

«انها بيد الله ، ان (بياترس) قد ترسل لها خبراً في (تنتاكل) وقد لا تدع الامر متروكاً لعناية الرب» .

عندها جلس مرة اخرى وخاطب نفسه قائلاً : «ولكن ماذا بشأن الخوف من شيئٍ ما بعد الموت ؟» . ورد على نفسه قائلاً «ان ذلك ليس خوفاً ، فقد يكون الفعل نفسه مرعباً ومخيفاً ، ولكن مسألة ما بعد الموت ليست اكثر من صراعٍ من اجل اليقظة مثلما كنت مريضاً وخائفاً في الاحلام» . اننا مصنوعون من مادةٍ تشبه المادة التي تُصنع منها الاحلام . جلس (سيغموند) يفكرُ في ما بعد الموت ، وبدا الامر بالنسبة اليه مريحاً بشكلٍ مدهش ، وامتلأ بالراحة والاطمئنان والتجدد ، ولم يتعرض الى اية نوبات صوفية ، لقد كان متأكداً من رقّة الموت المدهشة ، رقة وصلت عبر الحياة على الرغم من انه لا يستطيع استعادة نفسه منها مرةً اخرى . كان سيغموند دائماً يؤمنُ بان قلب الحياة ينبض برقةٍ نحوه ، وعندما يكونُ ساخراً وعابساً ، كان يعرفُ في الحقيقة ان ذلك هو الجانب الظاهري من الامر .

ان قلب الحياة عنيد في رقته ، وهو قد لا ينبض شفقةً ولكنه يتأرجح بصرخات الكربِ او الحقد المتواصلة .

كان سيغموند شاكراً صرامة الحياة ، اذ ليس هناك من تردد غير مجدٍ بين الهلاكِ والرثاء ، وبالتالي ، فان بامكانه الاستسلام وامتلاك الايمان . اذا كان كل رجلٍ يستطيعُ بصراخه ان يحرف الكون البطئ المجرد ، فاي احساس بالذنب سيتملكه اذا انحرفت الحياة عن مدارها شفقته به . واي رعبٍ سينتج من ذلك التردد ، ومن الذي يتمنى تحمل مسؤولية هذا الانحراف .

وشكر (سيغموند) الله لان الحياة قاسية قوية على نحو يكفي لتسلب كنوزه من بين يديه ، وان تطرده خارج الغرفة ، والا فكيف يذهبُ الى الموت بأيمان . وسيحس بالتحرر غير المجدي لشاب يجدُ والديه ، اللذين يقدمان النصح اليه ، اضعف منه ، وهمهم مخاطباً نفسه :

«اعرفُ ان قلب الحياة رقيق ، اني لأشعر بذلك ، والاّ فاني سأعيش في تحدٍ ، ولكن الحياة اعظم مني ومن اي شخص آخر . اننا نعاني ولا نعرف السبب في الغالب ، فالحياة لا

تفسر ذلك ، ولكني استطيع الابقاء على ايماني بها مثل كلبٍ يمتلكُ ايماناً بسيدهِ . على اية حال ، الحياة رقيقة تجاهي مثل رقتي تجاه كلبي . فانا امتلك نفس المقدار من المتعة ، وان غرضي تجاه كلبي غرض نبيل ، وانا لا احتاج الى ان ايأس من الحياة» . ان ما حدث لسيغموند يستحقُ هزء الملحدين به ، فلقد كان يتجنب تحمل مسؤولية نفسه محولاً اياها الى مسؤولية الرب . وقال :

« لا استطيع فعل اي شئ آخر ، وانا لا اشعرُ باني مسؤول عن ذلك» .

طلع النهار خلال هذه التجليات ، وكان (سيغموند) واعياً ، على نحو مبهم ، باستيقاظ البيت . وفي النهاية جفل عندما اصبح على وعي بالوجود الحاضر من خلال صيحات (فيرا) عند بابه :

– «رسالتان لك يا ابي» .

نظر من حوله بارتباك ، لقد مرت الساعات في نوع من الغيبوبة . ولم تكن لديه ادنى فكرة عن الوقت او المكان ، فاجابها :

– «اوه ، حسنٌ» .

كان دائخاً جداً كي يعرف ماذا عنت . وسمع صوت اقدام ابنته وهي تنزل ، ومن ثم ، وبسرعة ، عادت نبضات الالم الى رأسه وذراعيه ، والصرير المتنافر لاجزاء جسده وسأل نفسه «يا ترى ، ما الذي جعلها تجلب الرسائل لي ؟» . لقد كان ذلك اهتماماً غير عادي . واجابه قلبه متجهماً جداً وخجلاً «ارادت ان تتأكد من اني على ما يرام» . ونسي (سيغموند) كل تنظيراته بشأن حب الخير الالهي . ولقد تغلب تناشز وضعه الحالي على كل تناسق ، ولكنه لم يأخذ الرسائل ، بل خاطب نفسه قائلاً :

«هل الوقت متأخر ؟ . ألم يعد هناك ما يكفي من الوقت» .

ذهب لينظر الى ساعته . كان الوقت الساعة التاسعة الا ربعاً . وبينما كان يتمشى عبر الغرفة ارتجف ، فلقد جعل المرض عظامه تؤلمه وكأنها مكسرة ، فجلس على السرير مرة اخرى .

«ما انا فاعل ؟»

وابتدأ يرتجف عندئذ بسرعة ، وتملكه احساس غريب كما لو ان معدته قد تلاشت ، وجعله ذلك يودُّ لو يضغط بقبضتيه على بطنه . وبقي يرتجف كرجل مخمور غير قادر على التفكير او الحركة . صدرت طرقة اخرى من الباب ، فجفل في نوع من الارتجاج . وقالت (بياترس) بنبرة باردة :

– «هذا ماء حلاقتك . الساعة الآن التاسعة والنصف» .

فقال لها (سيغموند) وهو ينهض من فراشه مرتبكاً :

- «حسنٌ» .

وسألته والاحتقار لايزال يشوب صوتها :

- «في اية ساعة تريد الغداء ؟» .

فاجابها :

- «في اي وقت ، فانا لن اخرج اليوم» .

وتفاجأ عند سماعه نبرة صوته الباردة لانه كان يرتجف بطريقة لم يستطع السيطرة فيها على نفسه ، وكان ينشجُ تقريباً . وفي وضع مرتبك مشوش مرتجف ابتدأ يُنفذ غرضه . كان غير واع تقريباً بأي شيء فعله . ولم يستطع ابقاء يديه ثابتتين خلال نوبات الارتجاف العنيفة ، ولم يستطع استعادة ذاكرته ليفكر . كان في نوع من فوضى الارتجاف حسب ، ومع ذلك ، نفّذ غرضه على نحو دقيق ، واكمل كل شيء كما لو انه كان يطيع ارادة قاسية . كان الاداء أداء تنويم مغناطيسي كان فيه الوسيط يرتجف بألمٍ متشنج .



الفصل الثامن والعشرون

اغضب تأخر (سيغموند) في سريره (بياترس) كثيراً . وكلما تأخر في نومه ازداد غضبها . لقد صعدت اليه بماء حلاقته في الساعة التاسعة والنصف ، ثم استمرت في ترتيب غرفة الطعام ، تاركة الافطار مفروشاً في المطبخ . كانت (فيرا) و (فرانك) قد ذهبا الى المدينة ، وسيعودان الى البيت للغداء الساعة الثانية بعد الظهر . اما (مارجوري) فلقد ارسلت في مهمة بعد ان صحبت (كوين) معها . ولم يكن هناك مبرر لعودة الاطفال الى البيت في الحال . ومن المحتمل جداً انهم سيلهون في الحقل او الشارع لساعة او اثنتين ، وهكذا ، فلقد كانت (بياترس) وحيدة في الطابق الاسفل .

كان صباحاً حاراً ساكناً ، بينما كان كل شيء في الخارج يلتمع ببريق يخطفُ الابصار . امّا الاشياء في الداخل ، فلقد كانت مغلفة بالبرد واللون . ولكن (بياترس) كانت غاضبة ، تتحرك بسرعة واصرار حول غرفة الطعام ، ترمي الصحف القديمة والمجلات بين الخزانة والجدار ، وتلقي الازبال في الموقد الذي كان نظيفاً . كان يوم الجمعة هو يوم التنظيف النهاري ، لهذا فلقد كانت تمرُّ بسرعة وخفة على الاثاث وبيدها الريشة . اما يوم السبت فهو اليوم الذي لا تعمل فيه كثيراً ، بل تخرج مع (فيرا) بعد الظهر . ومع ذلك ، فإن تنظيف الاثاث لم يكن ما يشغل بالها في تلك اللحظة . كانت قد صممت على ان تتوصل الى حل مع (سيغموند) حول كيفية استمرار الامور بينهما ، فهي لن تسمح ان تبقى الامور مثلما كانت عليه خلال السنوات الثلاث الماضية ، فلقد تأزم الامر ولابدَّ ان يكون ثمة بديل لذلك . ان (بياترس) ستخوض معركة ، وبالتالي ، فأن عليها ان تسرع في عملها كما تثير نفسها الى حرارة دم مناسبة . وبينما كانت ترمي

الاشياء بعيداً عنها ، او ترتب اغطية الفراش ، كانت تصغي الى (سيغموند) بأنتظار ان ينزل الى الطابق الاسفل ولكنه لم يفعل ، ولقد اجّج ذلك غضبها . وقالت تخاطب نفسها :
- «انه لا يجد غضاضة في ان ينام هرباً . وانا هنا منذ السابعة اتشاجر مع نفسي . اعتقد انه يرثي لحاله ، ولكن يجب عليه ان يفعل شيئاً افضل . ان عليه ان يخرج للعمل كل صباح كأي رجل آخر ومثلما يفعل ابنه . ان عمله قليل جداً ، ولكنه يتصرف على هواه كثيراً ، ولكن هذا يجب ان يتوقف الآن ، فلن اعمل خادمة ومدبرة في بيته بعد الآن» .

ذهبت (بياترس) كي تنظف درجة الباب الامامي ، وضربت السطل على الارض بصوت عالٍ ، كان غضبها يزداد في كل دقيقة ، وانتهى ذلك العمل ايضاً فذهبت الى المطبخ . كانت الساعة العاشرة والثلث ، ووصل غضبها نقطة الانفجار . رفعت كل الاشياء من المائدة وغسلتها . وبينما كانت تفعل ذلك ، بلغ غضبها شدته غير انه لم يشتعل في لهيب بل بدأ يتسرب متحولاً الى نوعٍ من القلق . حاولت ان تتخيل ما يفعله (سيغموند) وما سيقوله لها . وبينما كانت ترفع كوباً اسقطته ، ولقد اثارها الحطام بحيث ان يديها ارتجفتا الى حد منعها من اكمال تجفيف الاشياء وترتيبها . وفي النهاية نجحت في فعل ذلك . وكانت خطوة عملها اللاحقة هي ترتيب الافرشة . اخذت سطلها وذهبت الى الاعلى ، وكان قلبها ينبض مهموماً في حنجرتها بحيث كان عليها ان تتوقف كي تسحب انفاسها ، فلقد كانت تخشى الاصطدام به . وفجأة ، وبعد ان سيطرت على نفسها ، قالت بصوت عالٍ عند باب غرفته ، وكان صوتها عدائياً بارداً :

- «الا تنهض اليوم ؟» .

لم يكن هناك اي صوت في البيت . ووقفت (بياترس) في ظلمة السلالم ، وقلبها ينبض في اذنيها ، وصاحت به :

«الوقت الآن العاشرة والنصف ، الا تنهض اليوم ؟» .

انتظرت مرة اخرى . كانت هناك رسالتان غير مفتوحتين تستقران على المنضدة الصغيرة . وفجأة ، وضعت سطلها ودخلت غرفة الحمام فوجدت وعاء ماء الحلاقة في محله على الرف دون ان يمس . عادت وطرقت بسرعة على باب غرفة زوجها وهي صامتة . انتظرت ثم طرقت مرة اخرى بصوت اعلى ولفترة طويلة . ولقد جعلها صدى ما في طريقة طرقها خائفة ان تحاول ذلك مرة اخرى .

فلقد كانت الضوضاء مكتومة ومعتمة لا تتردد عبر البيت على نحو طبيعي .

نزلت الى الطابق الاسفل مرعوبة . وخرجت الى الحديقة الامامية . ومن هناك نظرت الى باب غرفته . كان الشباك مفتوحاً ، وكل شيء يبدو هادئاً . وقفت (بياترس) مترددة ، ثم

التقطت بضع حصى صغيرة ورمتها بيدها على بابه . فتناثرت على قضبان الشبابيك بحدة ، وسقط بعضها بصوت مكتوم في الغرفة ، واصطدمت احداها بأناء غسل اليدين ، ولكن لم تكن هناك استجابة لذلك . قلقت (بياترس) على نحو مرعب ، وركضت ، وعيناها السوداوان تتألقان ، وخصل من شعرها الاسود تتطاير حول صدغيها الرقيقين ، خارجة الى الطريق . ورأت منظف زجاج الشبابيك مصادفة ، وهو يدفع سلمه خارجاً من بيت قرب بيتها فأسرعت اليه ، وناشدته مرعوبة :

-- «الا تأتي معي لترى ان حدث هناك شيء ما لزوجي ؟» .

فاجابها منظف الشبابيك الذي كان يعرفها ، كما انه كان مألوفاً لديها :

- «لماذا يا سيدتي . هل هو مريض او اصابة شيئ ما . نعم ، سآتي» .

كان رجلاً طويلاً نحيفاً . ذا لحية بنيّة ، وكانت ثيابه فضفاضة . وبنطلونه واسع . مما يعطي المرء انطباعاً بأن اطرافه هي مجرد عظام ، وان جسمه هو هيكل عظمي حسب . دفع السلم بقوة ، وسألها بينما كانا يغذّان الخُطى على الممر الجانبي :

- «اين هو يا سيدتي ؟» .

- «في غرفة نومه . ولم اتلق منه اي جواب» .

فقال منظف الشبابيك وهو مستمر في دفع عجلة سُلّمهِ :

- «اذن ، سأحتاج الى سلم» .

كان في نشاط دؤوب ، وهو يعرف غرفة (سيغموند) ، اذ غالباً ما كان يرى (سيغموند) وهو ينهض من عدة الموسيقى التي كان يُدرّسها ويغادر غرفة الجلوس عندما يبدأ بتنظيف شبابيكها ، ويجده بعدئذ في غرفة النوم الامامية الصغيرة ، وكان يعرف ايضاً ان هناك مشاكل زوجية ، اذ ان (بياترس) لم تكن متحفظة حول الامر . وسألها المنظف :

- «انها الغرفة الاخيرة في الامام ، أليس كذلك ؟» .

فأجابت (بياتريس) :

- «اجل ، فوق الشرفة» .

ودفع الرجل سُلّمَه وقال لها :

- «الامر سهل ، فالباب مفتوح وسرعان ما سأكون على الشرفة» .

ثبت السلم بدقة . ولعنته (بياترس) في اعماق نفسها لانه كان احمق وبطيئاًوفضولياً . فحص السلم كما يتأكد من صلاحيته . ومن ثم تسلقه بحذر شديد . وفي القمة . وقف وهو يمدُّ رأسه منحنياً فوق السلم كي يرى مافي الغرفة . وكان بأمكانه ان يتخيل كل انواع الاشياء لانه كان خائفاً . وصاح بصوت عال بينما كانت (بياترس) في حالة انشداه مرعب :

- «هل من احد هنا ؟» .

وصرخت به :

- «اصعد ، اصعد ، هل هو هناك ؟» .

تقدم الرجل بحذر شديد ، ووضع قدماً على الشرفة وحدق الى الامام ، ولكن الضوء في الباب الزجاجي انعكس في عينيه ، فالحق رجله بالرجل الاخرى ، وزحف الى الامام مستعداً للهرب في اية لحظة . وصرخ فجأة في رعب وهو ينسحب :

- «هاي . . . هاي» .

وكانت (بياترس) على وشك ان تفتح فمها لكي تصرخ عندما هتف المنظف بصوت واهن كما لو انه كان شاكاً :

- «اعتقد انه قد شنق نفسه» .

وصرخت (بياتريس) :

- «لا . . . لا . . . لا . . .»

وكرر الرجل :

- «اعتقد انه كذلك» .

وصرخت (بياترس) بينما بقي الرجل ساكناً في المدخل يحملق بثبات ، ثم اضاف شاكاً : «اعتقد انه كذلك» .

وصرخت (بياترس) :

- «لا ، اذهب وانظر» .

دخل الرجل الى الغرفة خائفاً متردداً . واقترب من الجسد مرتجفاً كما لو انه كان مسحوراً . امسك به حول الخصر وحاول ان يرفعه وكان ثقيلاً جداً . وقال لنفسه ، وقد بدا مشغولاً جداً ، اذ ان عليه ان يقوم بعمل ما «انا اعرف كيف انزله» . اخرج سكيناً من جيبه ، وحصر الجثة بينه وبين الباب لكي لا تسقط ، وبدأ يمرر يده عبر الحزام الجلدي . امسك بالجسد مسقطاً سكينه ، بينما كانت (بياترس) في الحديقة تصغي لصوت القعقعة . وابتدأت تصرخ مرعوبة . سحب الرجل جسد (سيغموند) وشدَّ الحزام بقوة حتى حرره ، ثم القى نظرة عليه . كان الرجل الميت مستلقياً على السرير بوجه كالح منتفخ ، ومنامته متكتلة تحت ابطيه تاركة خاصرتيه عاريتين . وكانت (بياترس) تصرخ في الاسفل . اسرع الرجل نازلاً من الغرفة الى الاسفل ، بينما اضطجع (سيغموند) متكوماً على الفراش الذي كان مجعداً ومتكتلاً من حوله ، وكان من الصعب تمييز وجهه .



الفصل التاسع والعشرون

كانت (هيلينا) يراودها الوسن على خليج (تنتكال) ، اذ كانت هي و (لويزا) و (اولف) يضطجعن على الرمال الباردة في الظل ، ويغمسن انفسهن بأسترخاء في غيبوبة باردة يُعطرها البحر .

كانت الرحلة الى هناك مزعجة جداً . اذ بعد انتظار دام نصف ساعة في فوضى منتصف ليلة الجمعة تلك من شهر آب في محطة (واترلو) ، تمكن من الحصول على عربة فارغة لفترة قصيرة فقط ، اذ التحق بهن خمسة رجال ريفيين مخمورين من شمال انكلترا . احتلت (اولف) و (هيلينا) و (لويزا) ثلاث زوايا من العربة وتوزع الرجال بينهن . ولم تكن النسوة الثلاث خائفات ، فلقد اكتشفن ان مرافقيهم السكارى مزعجون ولكن على خُلُق امين صريح جعلهم فوق الشك .

سحب القطار نفسه بأتجاه الغرب ، وابتدأت (هيلينا) تعدُّ الاميال التي تفصلها عن (سيغموند) . واصبح الرجال الشماليون الريفيون اكثر مرحاً ، وكانوا يتحدثون بصوت عال بلغتهم الانكليزية الفظة ، ويغنون الاغاني ويشربون الويسكي باستمرار ، ومع ذلك ، فلقد كانوا مؤدبين مع الفتيات . امّا (اولف) و (لويزا) فلقد كانتا منحنيتين تتهامس الواحدة منهما مع الاخرى ، وقد جلستا في مقعديهما يخفين ضحكاتهما بادارة ظهورهن الى الرجال الذين اربكهم هذا المرح . استمر القطار اسرع فأسرع ، وعكست اعشاش من المصابيح البيتية الصغيرة حياة الريف الهادئة ، واستدارت المصابيح ببطء عبر الظلام . نعس الرجال ، ووضعت (اولف) منديلاً فوق وجهها وغطت في النوم . واهتزت (لويزا) وترنحت مستغرقة في

النوم هي الاخرى ، بينما جلست (هيلينا) متعبة تراقب تدحرج المسافرين النائمين وفراغ الليل المعتم في الخارج ، لم يبد الرجال او النساء نائمين جيداً ، فلقد كانوا يتمايلون ويهتزون بطريقة رغبية . وتذكرت رواية (الاباء والبنون) لبازاروف ، ووافقته على وصفه مظهر النيام – الجميع بأستثناء (سيغموند) . أكان (سيغموند) نائماً ؟ . وتخيلته وهو يتنفس بأنتظام على الوسادة . وكان بأمكانها ان ترى تقوس حاجبيه ، وشكل منخريه الجميلين وتقوس شفتيه ، وانحنت بخيالها فوق وجهه .

تسلل الفجر ببطء ، وكان بارداً بعض الشيء . لفت (اولف) نفسها في قطعة من القماش واستغرقت في النوم مرة اخرى . ارتجفت (هيلينا) وحملقت في الخارج عبر الشباك حيث ابتدأ الليل بالشحوب ، واحست (هيلينا) بالكآبة ، انها كئيبة بطريقة تستعصي على الوصف ، ثم انتشر تورد في الافق مثل سرب من طيور النحام وهي ترفرف فوق بحيرة مظلمة ، وابتدأ العالم ينبض عندما اشرقت الشمس من جديد .

ايقظت (هيلينا) الرجال السكارى في (اكستر) ، فلقد سمعتهم يقولون بأن عليهم ان يبدلوا قطارهم هناك ، ثم ذهبت الى المنصة منهكة تماماً ، واندفع القطار مرة اخرى ، كانت رحلة متعبة جداً . لكن الحقول مزهرة والصباح مشرق على نحو رائع . ولكن ماذا يعني كل هذه الاشياء بالنسبة لها . لقد كانت تريد الظلام والنوم والنسيان .

في الساعة الثامنة ، وقت الفطور ، كانت الشجاعات الثلاث يركبن عربة صغيرة وسط سطوع شمس لاهث متألق فوق ارض ريفية عارية شرسة وقاسية .

وسألت (هيلينا) نفسها :

«لماذا أفعل هذا ؟» .

اغتسلت الصديقات الثلاث وابدلن ملابسهن وتناولن طعام الفطور بعد وصولهن . كان الجو حاراً جداً الى حد لا يستطعن معه ان يستقرّن في البيت ، لذلك تمشين صوب الساحل متعبات مجهدات . واحست كل واحدة منهن انها في مزاج سيئ . ولكن (هيلينا) وجدت متعة هائلة بعد استقرارها في (تنتاكل) . فقبل كل شيئ ، اكتشفت ان الخليج يتطابق بشكل تام تقريباً مع مشهد (والاهالا) في مسرحية (الجولة) ، والامر الثاني ، ان (تريستان) كان هنا ، في ذلك الريف المأساوي ممتلئاً بأزاهير الصيف الكورني المتأخر ، وهذه حقيقة ثابتة ، والامر الثالث ان البحر ذو غروب رائع مدهش وحمامات صباحية منعشة وبرك مائية ممتلئة بالحياة وتأرجح رقيق لزبد البحر . وتحت ضوء الشمس كانت ارضاً مسحورة لعشاق متباعدين .

وهمهمت (هيلينا) بمقاطع من (تريستان) وهي تقف على الصخور . غنت بطريقتها الناعمة شبه المتقطعة مقاطع من (حب آزولد) ومقاطع من حزن (تريستان) الى (سيغموند) .

لم تستلم رسالة منه يوم الاحد . ولكن ذلك لم يقلقها كثيراً ، على الرغم من احساسها بخيبة الامل . وفي يوم الاثنين كانت تعيسة بسبب صمت (سيغموند) ، ولكن كان هناك الكثير من التسلية في (تنتكال) ، وكانت (اولف) و (لويزا) في مزاج مرح بحيث انساها الامر في اغلب الاوقات .

ليلة الاثنين . في الساعة الثانية بعد منتصف الليل تقريباً ، حدثت عاصفة عنيفة من البرق والرد . جفلت (لويزا) في سريرها عند اول قصفة رعدٍ ، وايقظت (هيلينا) . ونبضت الغرفة ببرق ابيض لمدة ثانيتين . وتألقت المرآة الموضوعة على مائدة الملابس بضوء خاطف . امسكت (لويزا) بصديقتها ، وسرعان ما حلَّ الظلام مرة اخرى ، ثم ضرب الرعد بشكل مباشر .

وصرخت (لويزا) متحدثة عن البرق :

- «انظري ، أليس هذا رائعاً ومدهشاً ؟»

قرقع الباب وانفتح . ودخلت (اولف) بمنامتها الطويلة البيضاء واسرعت بالدخول الى السرير وهتفت :

- «عزيزتي ، اني افضل رفقتكما اثناء هذا الحادث الصغير» .

وصرخت (لويزا) :

- «الا يُعجبك . اعتقد انه رائع ، رائع !» .

وابتدأت نوبة اخرى من البرق ، وكأن الليل فتح واغلق من جديد . كان منظر شاحب لعالم شبحي يكمن بين ستائر الليل المعلقة . التصقت (لويزا) و (اولف) احداهما بالاخرى بتشنج وهتفت الاولى لاهثة :

- «انظري . ان هذا رائع . الا ترين ذلك يا (هيلينا) ؟» .

وامسكت يد صديقتها الممتدة بنشوة بيد ان جواب (هيلينا) اخمد بأنفجار الرعد وعلقت (اولف) محتلة مكانها في السرير :

- «لا اهمية للذوق . لا استطيع القول اني معجبة بالبرق . ماذا بشأنك يا (هيلينا) ؟» .

فأجابت (هيلينا) في محاولة ساخرة للدعابة :

- «انا لم اصعق بعد !» .

ورددت (اولف) :

- «شكراً لك يا عزيزتي ، لقد شرَّفتيني بأكمالك ما بدأت» .

فضحكت (هيلينا) بسخرية ، بينما سألت (لويزا) مستغربة :

- «اكمال ماذا ؟» .

فاجابت (اولف) وهي تلخص كلامها كثيراً كي تشرح لصديقتها :

- «ألم تفهمي يا عزيزتي . لقد عرضت على (هيلينا) بداية تورية لغوية ولقد اكملتها . ما اسرعها ! . اتعرفين ، ليس الامر لاني خائفة . . .» .

واخمد الرعد بقية حديثها .

تمددت (هيلينا) على حافة السرير مصغية الى ابتهاج احدى صديقاتها والى شطحات الاخرى . وعلى الرغم من احساسها الساخر فإن الرعد اعطاها احساساً بالقدر . انفتح الليل كاشفاً عن مناظر شبحية سرعان ما اغلقت بالظلام مرة اخرى ، ثم طحن الرعد ، واحست (هيلينا) كما لو ان سراً يُكشف لها ايضاً بسرعة وعنف كي تفهم . ضجَّ الرعد على نحوٍ مرعبٍ ، وتأكدت ان شيئاً ما قد حدث ، وانسحبت العاصفة ببطء وهطل المطر مدراراً ، بصوت طاحن على الارض والاوراق .

وهتفت (لويزا) :

- «يا له من طوفان !» .

ولكن احداً لم يَرُدَّ عليها . كانت (اولف) مستغرقة في النوم ، ولم تكن (هيلينا) في مزاج للاجابة . فاضطجعت (لويزا) تراقب الشباك الاسود وتداري حزنها حتى استغرقت في النوم هي الاخرى . كانت (هيلينا) مستيقظة ، فلقد ولّدت لديها العاصفة احساساً مؤكداً بالكارثة ، واحست بالانسحاق . وطحن صوت المطر الثقيل الارض في الخارج فثل ذلك احاسيسها . ولم تستطع التخلص من احساس الكارثة الساحق .

اضطجعت تتساءل عما حدث ، وعن اسباب عدم كتابته لها ، وعما يمكن ان يكون قد حدث له . كانت خيالاتها مرعبة كلها ، واضفت عليها الكثير من الخيال ، لانها تمت بصلة قرابة لهيدا كابلر .

وخاطبت نفسها :

- «ولكن لا . . . من المستحيل ان يكون قد حدث له مكروه ، والاّ لكنت قد عرفت . كنت قد عرفت في اللحظة التي غادرت فيها روحه جسده . كان سيأتي الي ولكني نمت من دون احلام في الليلة الماضية ، وانا متأكدة ان ليس ثمة مصيبة حدثت هذا اليوم . فمن المستحيل ان يكون حدث مكروه له من دون ان اعرف» .

كانت واثقة انها في حالة موت (سيغموند) سيراودها احساس بذلك . وابتدأت تفكر في كل الاسباب التي يمكن ان تمنعه من الكتابة اليها . ثم قالت في النهاية :

«ومع ذلك . اذا لم اسمع عنه شيئاً غداً فسأذهب واراه» .

لقد كتبت اليه يوم الاثنين الماضي ، فأن لم تستلم منه رداً صباح الاربعاء فأنها ستعود الى لندن . وعندما توصلت الى هذا القرار استغرقت في النوم .

مر اليوم التالي من دون اخبار . وكانت (هيلينا) في حالة شديدة من الكآبة . ولقد مسَّ اساها المرأتين الاخريين بشكل صميمي ، واعتنت بها (لويزا) وكانت حنوناً وقلقة ايضاً . اما (اولف) فلقد اصبحت مزعجة بسبب فضولها غير المشبع ، ممّا توجب اخبارها بجزء من الحقيقة .

اختارت (هيلينا) قطاراً للعودة . فلقد تأكدت عندئذ من ان شيئاً قدرياً بأنتظارها ، وفي صباح اليوم التالي ، ودعت صديقاتها مؤقتاً قائلة بأنها ستعود في ذلك المساء . ورحل القطار في الحال . واندفعت (لويزا) الى غرفة الانتظار الصغيرة في المحطة وانخرطت في البكاء . وسفحت (اولف) دموعها تعاطفاً ورثاءً لنفسها ، رثت نفسها لانها ستقضي عطلة كئيبة . ثم توقفت (لويزا) عن البكاء فجأة ونهضت وهي تقول :

- «اعرف اني خنزيرة يا عزيزتي ، الست كذلك ؟ أفسد عطلتك ، ولكني لا استطيع منع نفسي يا عزيزتي ، لا استطيع حقا» .

وصرخت (اولف) بنبرة مأساوية :

- «يا عزيزتي لو . . لا تكتمي احزانك من اجلي . لقد حدث المقدر ، ولا نستطيع فعل اي شيء !» .

قطعت المرأتان الحزينتان المسافة الطويلة عائدتين الى البيت ، وجلست (هيلينا) في القطار المتأرجح تدور الفكرة ذاتها في رأسها مثل مقاطع الصلاة . كان من الصعب عليها ان تفكر في اي شيء آخر غير الجلوس ساكنةً في القطار الذي يهمهم ويندفع قلقاً . بينما ينتظر المرء ساعة بعد اخرى الضربة التي تقترب من الوقوع كلما قلت المسافة . وطوال الوقت ، كان قلب (هيلينا) ووعيها مع (سيغموند) في لندن ، لانها اعتقدت انه مريض وفي حاجة اليها .

لقد قالت له مرة :

- «عِدْني . . اذا مرضت ذات يوم واحتجتك فإنكَ ستأتي الي» .

فأجابها (سيغموند) :

- «سآتي اليك من جهنم» .

واضافت :

- «واذا مرضت انت فإنّكَ ستدعوني آتي اليك» .

فاجابها :

- «أعِدُك بذلك» .

اما الآن ، فلقد تأكدت (هيلينا) من انه مريض ، وربما مريض جداً ، وربما تكون ذات فائدة اليه . وكانت اميال المسافات مثل قضبان حارة من الحديد على صدرها يصعب

اجتيازها . ولقد كان القطار يبذل جهده .

ولقد بقي ذلك النهار لطخة في تاريخ حياة (هيلينا) . فلم يكن فيه امتداد زمني ولا حروف تجربة ، بل مجرد لطخة من القلق .

نزلت في الساعة السادسة تقريباً في محطة (سوربيتن) مقررة ان هذه اسرع طريقة للوصول الى (ومبلدن) . قطعت الرصيف ببطء ، كما لو انها قررت التخلي عن المهمة . ولكن قلبها كان يصرخ بسبب التأخر الجائر . وصل القطار المحلي عندئذ . وكانت قد قررت ان تشتري جريدة محلية من (ومبلدن) ، فأن لم تستطع معرفة اي شيء ، من ذلك المصدر ، فأنها ستذهب الى بيته وتستعلم . لقد رتبت كل شيء من قبل وبالتفصيل الدقيق .

بعد ان تصفحت الصحيفة عدة مرات وجدت ما كانت تبحث عنه :

«تمت في الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم في مقبرة (كنكستون) مراسيم دفن . . . وكان المتوفي استاذاً للموسيقى ، وقد عاد لتوه من رحلة استجمام على الشاطئ الجنوبي . . .» .

اخبرتها الفقرة في سطورها الاثني عشر البسيطة كل شيء .

« . . . ولقد عزا المحلفون الموت الى انتحار في اثناء حالة جنون مؤقت . التعازي لارملته واطفاله» .

وقفت (هيلينا) ساكنة في المحطة بعض الوقت تحملق في الصحيفة ، ثم اسقطتها وهامت في المدينة جاهلة لوجهتها .

قالت بعد فترات طويلة من الصمت تصف ما حدث :

– «هذا كل ما حصلت عليه . وكان الامر مثل الطابوقة . اجل مثل الطابوقة» .

استمرت في التجول حتى وجدت نفسها في الممر المعشب الذي لا يفصله عن الحقول المنبسطة على الجانبين غير سياج من الاسلاك . وما وراء الحقول من الجهة اليسرى ، كان بأمكانها رؤية بيت (سيغموند) وهو ينتصب مزخرفاً على الطريق ، مستقبلاً ضوء الشمس الغربي ، وعندما عرفت اين وصلت توقفت . وظلت لبعض الوقت تنظر الى البيت . لا فائدة من الذهاب الى اي مكان . كان العالم الواسع كله مفتوحاً امامها ، ولكن ليس فيه اي مكان تنشده ، ولا اي اتجاه تسلكه ، كما لو انها ألقيت وحيدة في هذا العالم . وقفت يائسة تلقي عبر بيت (سيغموند) نظرة على الحقول والتلال . لقد ذهب (سيغموند) ، فلماذا لم يأخذها معه ؟

ابتدأ المساء يُخيم ، وكانت الساعة السابعة والنصف تقريباً عندما نظرت (هيلينا) الى ساعتها ، وتذكرت (لويزا) التي ستنتظر عودتها الى (كورنويل) .

وقالت (هيلينا) تخاطب نفسها :

– «امّا ان اذهب اليها او أرسل برقية ، ستصاب بحُمى القلق» .

واسرعت مباشرة كيما تأخذ قطار العودة من المحطة . وعندما وصلت في الساعة الثامنة الا ربعاً لم يكن ثمة قطار يذهب الى (تنتكال) تلك الليلة . لذلك ارسلت اليها الاخبار :

– «مات (سيغموند) وليس هناك قطار الليلة . انا عائدة الى البيت» .

وعندما انجزت ذلك ، اخذت بطاقتها وجلست تنتظر . كان كل شيءٌ فعلته معقولاً بفعل ارادتها القوية ، غير ان عقلها كان مشوشاً .

وكررت القول مرة اخرى ، «لقد كان الامر مثل الطابوقة» . وكان ذلك التشبيه القاسي هو الشيءُ الوحيد الذي تستطيع تذكره حتى بعد عدة شهور عندما تصف حالتها . لقد احسّت كما لو ان شيئاً ما قد طُحن في عقلها فشلّها وادهشها .

وعندما طرقت باب بيتها كانت هادئة تماماً في الظاهر ، وفتحت امها الباب لها . وعندما رأتها هتفت السيدة (فيردن) :

– «ماذا ، هل انت وحيدة ؟» .

وردت (هيلينا) :

– «اجل ، لويزا لم ترجع» .

ثم اتجهت الى غرفة الطعام . وكما لو كان الامر بفعل العزيزةِ ، فقد القت نظرة على رف الموقد لترى في ما اذا كانت هناك رسالة . وبدلاً من ذلك ، كانت هناك قصاصة من صحيفة . فتقدمت نحو الامام لكي تتفحصها . كانت قصاصة من احدى صحف لندن :

«أُجري فحصٌ على جثة . . . .» .

قرأت (هيلينا) الخبر مرة اخرى ثم طوت القصاصة ووضعتها في محفظتها ، بينما وقفت امها تراقبها مستنفدةً بالكآبة والقلق ، وسألتها :

– «كيف عرفتِ ؟» .

فأجابت الابنة بصوتها الابكم :

– «ذهبت الى (ومبلدن) واشتريت صحيفة محلية» .

وسألت الام بحدة :

– «هل ذهبت الى منزله ؟» .

فاجابت (هيلينا) :

– «لا» .

وقالت الام مترددة :

– «كنت اتساءل في ما اذا كان يجب علي ان ارسل لك تلك الجريدة» .

ولم ترد عليها (هيلينا) ، وتجولت في البيت بطريقة آلية ، باحثة عن شيءٌ ما . وتبعتها امها محاولة

ان تساعدها بلطف .

ولبعض الوقت ، جلست (هيلينا) على المائدة في غرفة الطعام محملقة في الفراغ امامها . وكان والداها يتحركان بقلق من حولها محاولين الاّ يزعجاها بمراقبتهما ، ويصليان كي تغيرَّ السكون في نظرتها . واعترفا بأنهما عديما الحيلة مثل الاطفال . احسّا بأنهما بائسان وضعيفان ، وكانا هادئين جداً .

وسألها الاب في النهاية :

- «الا تذهبين الى غرفتك لتستريحي يا (نيللي) ؟» .

كان رجلاً غريباً ينقصه الفضول ، ذا عاطفة رقيقة جداً ، ومزاجه الاعتيادي يقترب من التهكم الرقيق .

اعاد عليها الكلام مرة اخرى :

- «الا تذهبين لتستريحي يا (نيللي) ؟» .

فارتجفت (هيلينا) قليلاً ، وتوسلت اليها امها :

- «هيا افعلي يا عزيزتي . دعيني آخذك الى الفراش» .

نهضت (هيلينا) ، وكانت الام خائفة حد الرعب من ان تهتاج او تغضب ، ولكنها ذهبت تلك الليلة بفتور الى الطابق الاعلى ، وتركت امها تساعدها على خلع ملابسها . وعندما اصبحت في الفراش ، وقفت امها لبضع لحظات تنظر اليها ، يملؤها توق الى ان تتوسل بأبنتها كما تصلي الى الله ، ولكنها لم تتجرأ على فعل ذلك . وتململت (هيلينا) بنفاد صبر متوحش تحت الحاح حملقة امها . وقالت السيدة (فيردن) :

- «هل اترك لك الشمعة مضاءة ؟» .

فاجابت الابنة :

- «لا ، اطفئيها» .

فعلت الام ذلك ، وغادرت الغرفة في الحال نازلة الى الطابق الاسفل حيث كان زوجها ، وحالما دخلت غرفة الطعام نظر اليها مخلوع الفؤاد . كانت امرأة طويلة منتصبة القامة ذات عينين بُنيتين سريعتين وباحثتين في العادة . ولكنها في تلك اللحظة كانت مغروقة بالدموع التي لم تسقط . انحنى الى الاسفل . غاطساً في كرسيه ، وكانت يداه متشابكتين بقوة ، وسألها :

- «هل ستكون على ما يرام اذا تركتيها لوحدها ؟» .

واجابت الام بحدة :

- «يجب ان نصغي» .

جلس الوالدان في مكانهما بصمت . ورفعت السيدة (فيردن) مائدة العشاء ، كانسة معها بضع قطع من فتات الخبز من على الارض ، في المكان الذي كانت (هيلينا) قد جلست فيه ، واضعة بعناية الكسر تحت الخبز كي تبقيها رطبة . ثم جلست مرة اخرى . وكان بأمكان المرء ان يلاحظ انها كانت متيقظة لكل صوت . بينما كان الاب يضع يده على رأسه فلقد كان يفكر ويصلي .

نهضت السيدة (فيردن) فجأة ، وتناولت علبة كبريت من رف الموقد ، واسرعت بخطوها الفخم الثقيل الى الطابق الاعلى وتبعها زوجها مرعوباً ، وهو يتجول قرب باب غرفة ابنته . اشعلت الام ، وهي ترتجف الشمعة ، اذ احزنتها حالة (هيلينا) واخافتها . فلقد كان وجه الفتاة مقنعاً كما لو انها نائمة . ولكن يمرُّ عليه في بعض الاحيان تعبير حي من الخوف او الرعب . واظهرت عيناها الواسعتان حالة جنون وبين لحظة واخرى . كانت تردد مقاطع غريبة متقطعة .

امسكت امها بيدها وربتت عليها . وعلى الرغم من انها لم تكن على وعي تام بوجود امها ، غير انها كانت في نوع من الغيبوبة . نزل الاب الى الاسفل . واطفأ النور ثم جلب لزوجته شالاً كبيراً وضعه على حافة السرير ، وترك الغرفة بصمت وذهب فأنحنى قرب سريره وابتدأ يصلي .

راقبت السيدة (فيردن) هذيان ابنتها . وطوال الوقت كانت تردد نوعاً من التراتيل في ذهنها طالبة مساعدة الرب . واستعادت الفتاة وعيها مرة او مرتين ، فتسحب يدها عند تمييزها الموقف ، مستديرة عن امها التي كانت تنتظر بفارغ الصبر ان تغيب عن الوعي ، كي تداوي ابنتها مرة اخرى .

كانت (هيلينا) سعيدة بوجود امها ولكنها لم تكن تطيق النظر اليها .

وبأقتراب الصباح استغرقت الفتاة في نوم طبيعي . راقبتها الام من قرب ، ولمست بخفة جبينها بشفتيها وتركتها بعد ان اطفأت الشمعة . وجدت زوجها جاثياً بمنامته فوق السرير ، وهو يهمهم ببضعة مقاطع ، فحملق فيها عندما دخلت :

– «هل هي نائمة ؟» .

وهمست المرأة بصوت اجش :

– «انها نائمة» .

تردد الرجل قليلاً :

– «اهو نوم طبيعي ؟» .

– «نعم ، اعتقد ذلك ، اعتقد انها ستكون على ما يرام» .

همس الاب بصوت غير مسموع تقريباً :

- «شكراً لله» .

امسك بيد زوجته عندما اضطجعت الى جانبه ، لقد كان هو المهدئ الآن . واحست كما لو انها هي التي يجب ان تصرخ الآن وتستريح وتنام . اما الرجل الهادئ الغامض فلقد امسك بيدها وتحمل المسؤولية .



الفصل الثلاثون

كانت (بياترس) حذرة في الاّ تترك حادثة وفاة (سيغموند) تسقط بكامل ثقلها عليها . ولقد حاولت ان تتفاداها . وكانت خائفة ان تواجه اتهام (سيغموند) الميت من قبل محلفي الذكريات المقدسين . وعندما يجبرها الموقف ان تقف امام فهمها لروحها ، كانت تهرب تاركة الحكم على نفسها مؤجلاً الى الابد .

وعندما هرع الجيران مفزوعين بصراخها ، تركت نفسها تؤخذ بعيداً عن بيتها الى بيت جيرانها ، حيث احضر اليها اطفالها ايضاً ، وهناك بكت وصرخت حول الامر ، كما لو انها كانت تحاول غريزياً ان تشوش عقلها . ورتب الجيران الطيبون الامور في بيت (سيغموند) ، فاستدعوا الشرطة ، وساعدوا في ترتيب الرجل الميت . وقبل ان تعود (فيرا) و (فرانك) الى البيت ، وقبل ان تعود (بياترس) الى بيتها ، أُغلق باب غرفة نوم (سيغموند) .

ولقد تجنبت (بياترس) رؤية جسد زوجها ، واكتفت بالقاء نظرة سريعة مشوشة بالقلق ولم تره مطلقاً بعد وفاته . وكانت حذرة على نحو كاف في الا تفكر فيه . وما إن تتجول افكارها حول تصور احاسيسه وحياته الداخلية خلال السنوات الست الماضية الاخيرة حتى يخالطها الرعب نفسه ، فتسرع طلباً للحماية . وكانت تردد :

- «يجب ان اعيش من اجل الاطفال وان افكر فيهم» .

وهذا ما فعلت وبنجاح ساحق . وكان كل بُكائها وتوحشها ينتجان من الرعب والهلع وليس من الحزن . فلقد تمكنت من رد الحزن الذي كان من الممكن ان يحطمها . اما (فيرا) ، ولقد كانت ذات عقل عملي ، ولديها فكرة قاسية عما يجب ان يكون والا يكون ، حينما تضع

نفسها محل والدها وتحاول فهمه . كانت تعنى بأن تحكم عليه بأسى وتوقير وذلك لان (هيلينا) هي التي تتحمل وزر كل ما حدث . اما (فرانك) ، الذي كان عاطفياً ، فلقد بكى بسبب الموقف وليس على الشخص . وكان الاطفال الصغار كئيبين بسبب تصرفات الكبار المزعجة ، وكانوا يأملون في عودة الهدوء ، وبموافقة جماعية لم يعد يذكر اي شيء حول (سيغموند) اطلاقاً .

وبعد الدفن مباشرة انتقلت (بياترس) من جنوب لندن الى (هارد) ، وابتدأت ذكرى (سيغموند) تضمحل بسرعة .

كانت (بياترس) تحلم طوال حياتها بنوع اكثر صراحة وجهارة من الحياة واوسع من حلقة الاسرة وخدها . وكانت تحب وجود الغرباء في بيتها ، فلقد كان ذلك يحفزها على نحو مُرض . لذلك وبعد تسعة شهور من وفاة زوجها ، قررت ان تنفذ خطة قلبها ، وان تأوي نزلاء في البيت .

تنحدر (بياترس) من اسرة موسرة ، ولكنها كانت على خلاف معهم بسبب زواجها الرومانسي المبكر والمشين من شاب لم يكن لديه دخل او مهنة . ولكن عند حدوث المأساة التي كانت حادثاً وضيعاً ، عاد (آل والتن) مرة اخرى لمساعدة (بياترس) ، جاءوا مترددين ، وظلوا مرتدين قفازاتهم متسائلين عما تنوي فعله ، فتحدثت بفخر عن بيتها ، نزلها المستقبلي . فمنحوها مئتي باوند فرحين لانهم اراحوا ضمائرهم بهذا الثمن البخس . اما والد (سيغموند) ، وهو رجل عجوز مُتْعَب بقلب ذهبي شاب ، فلقد كان مستعداً ان يوفر من دخله المتواضع من اجل احفاده . وهكذا ابتدأت (بياترس) في بيت كبير في (هاي كيت) مجهّز بخادمتين ، ودُعي الرجال لكي يأتوا ويسكنوا في نزلها . كانت مغامرة هائلة اسعدت (بياترس) . اما (فيرا) فلقد كانت مضطربة ومهتمة بالامر . بينما كان (فرانك) مثاراً ولكنه شاك ومتذمر . وكان الاطفال مثارين ومنتشين ودهشين . كان العالم كبيراً بالآمال .

جاء ثلاثة رجال قبل انتهاء الشهر الى (مؤسسة) بياترس . وكانت تأمل في الحصول على رجل رابع او خامس بعد فترة قصيرة . كانت خطتها ان تؤدي دور المضيفة ، وبالتالي تُنعم على نزلائها ببركات الحياة العائلية التي لا تقدر بثمن .

قدِّم الافطار الساعة الثامنة والنصف صباحاً بحضور الجميع . جلست (فيرا) مقابل (بياترس) بينما جلس (فرانك) الى يمين امه . وجلس السيد (ماكورتير) الذي كان مُفضّلاً على الجهة اليسرى والى جانبه السيد (البورت) الذي جلس قبالته السيد (هوليدي) . كان الجميع شباناً تقل اعمارهم عن الثلاثين عاماً . وكان السيد (ماكورتير) طويلاً اشقر وبديناً ، يتحدث بهدوء ومزاجه أنيس ومُسر ، ومع ذلك ، فلقد كان مثقفاً على نحو استثنائي . ولم يكن يمزح

بأي شيءٍ من الاشكال ، مظهراً تحفظاً مطلقاً على الرغم من لطفه . لذلك بذل (فرانك) كل جهوده كيما يكسب احترامه ، بينما كانت (بياترس) تحترمه على نحو خاص ، اما السيد (البورت) الذي كان طويلاً وعريضاً ولكنه نحيف نحافة باب ، فلقد كان له ذقن صغير بشكل مثير للانتباه . وكان ساذجاً يميل الى المعاناة عند البوادر الاولى للتحرر من الوهم . ومع ذلك ، فلقد كان مظهره يدل على انه ذو روح مرحة ، ولكنه يبدو في بعض الاحيان حزيناً ، ونكداً في احيان اخر ، ولكنه شهم دائماً . لذلك احبته (فيرا) بينما عاملته (بياترس) معاملة الام . اما السيد (هزليدي) فلقد كان قصيراً وبديناً جداً ومتورد الوجه جداً وله شعر اسود وصوت كريه عامي في نبرته ولكنه مستعد للمساعدة بشكل زائد عن اللزوم اذا طُلب منه ذلك . لذلك فلقد كرهه (فرانك) بينما احبت (فيرا) مظهره الوسيم المليءَ بالحيوية غير انها استاءت جداً من تصرفاته . وكانت (بياترس) فخورة بالطريقة الماهرة الرائعة التي توقفه بها عند حده ، رادعة اياه من دون ان تؤذي احاسيسه .

وفي احدى امسيات تموز ، وبعد مرور احد عشر شهراً على وفاة (سيغموند) ، ذهبت (بياترس) الى غرفة الطعام ، فوجدت السيد (البورت) جالساً مسنداً مرفقه على حافة الشباك ينظر الى الحديقة . كانت الساعة السابعة والنصف تقريباً . واظهرت الفجوات الحمراء بين اوراق الاشجار أنَّ الشمس على وشك الغروب . وتسرب عطر الغروب الى الغرفة عبر الشباك المفتوح ، وباتجاه الافق الجنوبي كان القمر يبرعم خارجاً من الغسق .

هتفت (بياترس) التي عادت لتوها من تنويم الاطفال :

«ماذا ؟ انت هنا لوحدك ؟ تصورتك قد خرجت» .

اجاب السيد (البورت) وهو يستدير كيما يواجه سيدة المنزل :

– «لا ، ما الفائدة من الخروج ؟ . ليس ثمة مكان يمكنني الذهاب اليه» .

– «لا تقل هذا . هناك المروج والمدينة . كما انك يجب ان تلتحق بنادي التنس . اعتقد اني وجدت ما يناسبك ، النادي الذي تذهب اليه (فيرا)» .

– «نعم ، ان المرء قد يذهب الى المدينة ، ولكن لا شيءَ هناك ، ما اعنيه ان المرء يحتاج الى رفيق ، ولكن حتى حينئذ . . .» ثم تشدق بالكلمات مضيفاً . انه مجرد هروب من النفس ، مجرد قتل للوقت» .

هتفت (بياترس» :

– «لا تقل ذلك ، بل عليك ان تستمتع بالحياة» .

ورد السيد (البورت)

– «هذا صحيح ، هكذا اذن . ولكن مع ذلك فالمسألة على النحو التالي ، انك تنهضين

غداً لتفعلي الشيءْ نفسه ما اعني قوله : ما الفائدة من كل شيءْ ؟ انك تعيشين لانه يتوجب عليكِ ذلك .»

– «اعتقد انك متشائم جداً بالنسبة لشابٍ في مثل سنك . انا انظرُ الى الامرِ بصورةٍ مختلفة ، على الرغم من ان لدي اكثُر من سببٍ للتذمر ، فما المشكلة الآن ؟»

– «انك لا تستطيعين وضع اصبعك على السبب بهذه الطريقة . ما اعني قوله ان ليسَ هناك شيءْ محدد . ولكن بعد كل شيءْ ليس هناك امرٌ آخر غير القفز خارج الحياة باسرع ما يمكن هذه هي الطريقة المثلى» .

خيم الحزن على (بياترس) على نحو مفاجيءْ

– «الا تفكر في الاخرين ياسيد (البورت) وانت تتحدث بهذه الطريقة ؟»

فتشدق في الكلام :

– «لا اعرف . وماذا بهم ؟ ومن يهتم ، اعني الى اية فترة ؟» .

وردت (بياترس) بحزن :

– «ان ذلك سهل جداً ولكنه تصرفٌ جبان» .

قال السيد (البورت) :

– «ومع ذلك ، فانه تصرفٌ سليم ، اليس كذلك ؟» .

وردت (بياترس) ساحبة قناعاً من التحفظ على وجهها :

– «لا ، وكان المفروض ان اعرف . . .»

نظر السيد (البوت) اليها وانتظر ، ثم استرخت (بياترس) في مواجهة الشاب المتشائم وقالت :

– «نعم . . . اني اعتقد انه لفعل جبان ان تتخلص من مشاكلك بهذه الطريقة ، تخيل ما الذي تلحقه بالاخرين . انتم الرجال انانيون جميعاً ، تتركون العبءْ على النساء دائماً» .

ورد السيد (البورت) بنبرة ناعمة متعاطفة وهو ينظر الى ثوب (بياترس) الاسود :

– «نعم ، ولكن ليس هناك شخص يعتمد علي» :

– «لا ، ليس لديك ، ولكن لك ام واخت . ان على النساء ان يتحملن الاذى دائماً» .

أجابها بحزنٍ منتظراً متوقعاً :

– «نعم . . انهن كذلك» .

ابتدأت (بياترس) بالكلام وانتظر الشاب :

– «كان زوجي من نوعك . لقد سعى وراء المشاكل ، وعندما وجدها لم يستطع تحملها . فتركها لي» .

نظر اليها السيد (البورت) بتعاطف شديدٍ وهتف هامساً :

- «اتعنين ذلك ؟ بالتأكيد انه لم . . . ؟»

هزت (بياترس) راسها وادارت وجهها بعيداً واجابت :

- «نعم واعرف ماذا يعني تحمل هذا النوع من المشاكل ، وهو ليس بالامر الهين . اوكد لك» ، وكان هناكَ ما يُشبه الدموع في صوتها .

سأل السيد (البورت) بتبجيل تقريباً :

- «متى حدث ذلك ؟»

واجابت (بياترس) :

- «السنة الماضية فقط» .

اصدر السيد (البورت) صوتاً يدلُّ على دهشة ورثائه . واخبرته (بياترس) شيئاً فشيئاً اخبرته ان زوجها قد وقع في غرام امرأة اخرى ، ولقد تحملت الامر لفترة طويلةٍ ، ولكنها اوصلت الامر الى ازمة معلنةٍ . فما الذي يجب ان تفعله ، وقد شنق نفسه وتركها مفلسةً ؟ ولقد قدم اهلها الاغنياء كل ما سمحت لهم ان يفعلوه وقامت هي و (فرانك) و (فيرا) باكمال الباقي وانها لا تهتم بنفسها بل بفرانك وفيرا اللذين يجب ان ينعما بشبابهما ، وان قلبها مهموم لهذا السبب . خيمَّ الصمت لبعض الوقت . وتمتم السيد (البورت) بتعاطفهِ ، وجلس وقد غلبه الاحترام لهذهِ المرأة الصغيرة التي لم تحطمها المأساة . ثم رنَّ جرس في المطبخ ودخلت (فيرا) :

- «اوه ، يالها من رائحة لذيذةٍ ! . انك تجلسين في الظلام يامي ؟»

- «كنتُ احاولِ رفع معنويات السيد (البورت) فقط . انه كئيب جداً» .

وقال السيد (البورت) وهو ينهض وينحني :

- «صلي كي لا تغفلي عني !»

- «انا لم ارك ، لقد كنت تستمتع بجلستك في الغسق وتثرثر مع امي . لابد انك كنت رجلاً ثقيل الظل عديم الضمير» .

فرد السيد (البورت) :

- «على النقيض من ذلك ، لقد كانت السيدة (ماكنبر) طيبة لتحملها حماقتي» .

- وسألت (فيرا) بحدةٍ :

- «باية طريقةٍ ؟» .

فقالت (بياترس) مازحةً :

- «إنَّ السيد (البورت) مكتئبٌ جداً . اعتقد انه واقع في الحب» .

وقال السيد (البورت) وهو ينحني قليلاً لفيرا :

– «لست كذلك لسوء الحظ . او على الاقل لستُ واعياً بذلك لحد الآن» .

تقدمت (فيرا) ووقفت عند الشباك ومسّت تنورتها ركبتي الشاب . كانت جميلة وطويلة وهي تراقبُ القمر الابيض في السماء الغامقة الوفيرة ، ويداها متشابكتان الى الخلف وقال السيد (البورت) في سخرية كئيبة :

– «لا تنظري الى القمر آنسة (ماكنير) ان كل ذلك مجرد قشور . لقد نهش احدهم لحم القمر ، ولم يترك لنا الاّ القشور» .

فاجابت (فيرا) :

– «يبدو لي كقشرة بطيخ – شريحة واحدة» .

وقال لها :

– «لا تهتمي ياانسة (ماكنير) . اياكان ذلك الذي حصل على قطعة القمر ، سيجدها غير ناضجة على ما اعتقد» .

فردت قائلةً :

– لا اعرف ، ولكن الا تعتقد انها امسية جميلة . سأخرج وارى ان كان بامكاني الامساك بزهرة الربيع ، وهي تتفتح» .

هتف قائلاً :

– «ماذا ؟ زهرة الربيع» .

– «اجل ، أزهار الربيع المسائية . هناك بعض منها» .

اجاب بدهشةٍ :

– «اهنالك بعض منها ؟» .

ابتسمت (فيرا) لنفسها وقالت :

– «نعم تعال ، وانظر بنفسك» .

نهض الشاب برشاقةٍ ، ودخل السيد (هوليدي) الى الغرفة بينما كانا في الحديقة ، وسمعاه يهتف»

– «الا يوجد احدٌ هنا ؟» .

ورد السيد (البورت) بازدراء :

– «هنا يا (هوليدي) .»

ولم تجب (فيرا) .

جاء السيد (هوليدي) الى الشباك المفتوح منجذباً بالعطر ، وصرخ بصوته الصادر من الانف ، والذي كان يزعجُ اذن (فيرا) المدربة . وتمنت لو انها لم ترتدِ فستاناً ابيض يدلُّ عليها .

- «اوه ، انتم هنا ، ماذا تفعلان ؟» .
اجاب السيد (البورت» .
- «لا شيءٌ معين» .
فضحك السيد (هوليدي) وقال :
- «اوه ، اذن ليس ثمة شيءٌ مهم وخاص» .
ثم قفز فوق اطار الشباك وذهب ليرافقها .
وتذمر السيد (البورت) قائلاً :
- «ياللاحمق !» ثم اضاف بنعومة مخاطباً (فيرا) . «ارجو عفوكِ» .
وسألت (فيرا) كما لو بطريقةٍ حميمة جداً :
- «هل لاحظت ياسيد (هوليدي) قسوة هذه الازهار انها لا تتفتح طالما تنعم النظر اليها» .
فضحك السيد (هوليدي) وقال :
- «لا ، انا لا الومها . فلماذا يجب ان تمنح نفسها اكثر مما تفعلين انت . فانت لا تتفتحين عندما يراقبك احد» .
ثم لكز بمرفقة السيد (البورت) مازحاً .
بعد العشاء ، الذي كان متأخراً ورديئاً ، كان الرجال في مزاج سيءْ . فذهب السيد (ماكورتير) الى غرفته كي يقرأ ، وجلس السيد (هوليدي) ينبش اسنانه ، وتوسل السيد (البورت) بفيرا كيما تعزف البيان ، فاجابت
- «البيان ليس جهازي المفضل . الكمان هو ما افضله ، ولكني لا اعزف الآن» .
توسل اليها السيد (البورت) :
-«ولكنك ستبدئين مرة اخرى» .
فردت بحزم :
- «لا ، مطلقاً» .
نظر اليها السيد (البورت) من قرب . ان لمأساة العائلة علاقة بذلك القرار . لقد كان متأكدا من ذلك ، وراقبها بانتباه ، وابتدات الكلام :
«لقد اعتادت امي ان تعزف . . .»
قاطعتها (بياترس) موبخةً :
- «فيرا !» .
أقترح السيد (هوليدي) :
- «دعونا نغني اغنيةً» .

فقالت (فيرا) وهي تتجه صوب جهاز الموسيقى :

– «ان السيد (هوليدي) يود ان تغني يا امي» .

ورد السيد (هوليدي) :

– «لا ، لستُ انا» .

قالت (فيرا) وهي تسحبُ ورقة المعزوفة :

– «أغنية (حّداد القرية) .»

تقدم السيد (هوليدي) الى الامام . والقت (فيرا) نظرة على امها ، فاحتجت (بياترس) قائلةً :

– «انا متأكدة اني لم أمسّ البيان منذ عدة سنوات» .

قالت (فيرا) :

«– انك تستطيعين العزف بشكل جميل» .

صاحبت (بياترس) الاغنية ، وغنى السيد (هوليدي) بصوتٍ شنيع . حملق فيه السيد (البورت) بينما ظلت (فيرا) هادئة جداً .

وفي النهاية هُزمت (بياترس) بملمس البيان فأهرعت خارجة من الغرفة .

ضحكت (فيرا) وقالت :

«تذكرت امي انها لم تعد طعام الغد» .

نظر اليها السيد (البورت) وكان حزيناً .

وعندما عادت (بياترس) الى الغرفة ، اصر (هوليدي) على ان تعزف مرة اخرى . ولقد وجدت صعوبة في ان ترفض اكثر مما تطيع .

أوت (فيرا) الى غرفتها مبكرةً ، تبعها بعد ذلك السيد (البورت) مباشرة ثم السيد (هوليدي) . وفي الساعة العاشرة والنصف ، جاء السيد (ماكورتير) بكتابه العتيق . وكانت (بياترس) تقرأ في كتاب للطبخ .

وهتف السيد (ماكورتير) بادب :

– «انك متأخرة ايضاً» .

اجابته (بياترس) :

– «اني ابحث عن وصفة حلويات للغد» .

وابتسم الشاب بطريقة ساخرة وقال :

– «واننا سنشعر بدين لك في ذمتنا لن نستطيع سداده ، اذا واصلت الاهتمام بنا بهذه الطريقة» .

فقالت (بياترس) :

– «يجب ان اعتني بكم» .

– «انك تفعلين ذلك على نحو رائع . اعتقد اننا مدينون لك بالامتنان» .

كانت الوجبات متأخرةً قليلاً بشكل مستمرٍ . وكان دائماً ثمة شيئٌ ليس على ما يرام .

وابتسمت (بياترس) قلقة وقالت :

– «الأ ني ابحث في قائمة طويلة من وصفات الحلويات ؟» .

فانحنى لها وقال :

– «الحلويات ولكل الاشياء الطيبة الاخرى . عزفك البيان على سبيل المثال ، ان ذلك رائع جداً» .

– «هل ازعجك عزفي ؟ . لكن الصوت لا يصل الى غرفة المكتب» .

فقال السيد (ماكورتير) وهو ينحني ثانيةً :

– «لقد فتحت الباب» .

فردت (بياترس) :

– «ليس هذا عدلاً . انا بطيئة الآن ، ولكن كان بامكاني العزف سابقاً» .

وقال (ماكورتير) :

– «ولكنك تعزفين بشكلٍ رائع ، فلماذا تعتذرين ؟» .

اجابته :

– «انك لطيف جداً . ان معلمي السابق العجوز كان سيخالفك الرأي . .»

فقال السيد (ماكورتير) :

– «نحن هواة متواضعون وانت بالنسبة لنا ، اكثر من رائعة» .

– «كان العجوز الطيب (المسيو فانيير) يوبخني كثيراً ، ولقد قال مرة بأني لن اطور قدراتي من الحضينة . وكان يقتبسُ ذلك من العهد الجديد . ولقد اعتقدتُ دائماً بان الكتاب المقدس مزيف باللغة الفرنسية الا تعتقدُ ذلك ؟» .

– «ان معرفتي باللغات الحديثة ليست عميقة . انا متأسف لقول ذلك» .

– «لقد تربيت في مدرسة راهبات قرب (الرون) .»

– «اوه . هذا مثير للانتباه» .

– «اجل لقد بقيت هناك ست سنوات ولكن اهتمامي بالامر بدأ يقل تدريجياً» .

فقال السيد (ماكورتير) مبتسماً :

– «وأسفاه !» .

وقالت (بياترس) :

– «كانت تلك الايام مختلفة عن ايامنا هذه» ! .

فقال السيد (ماكورتير) وهو يزداد خوفاً وتعاطفاً :

– «اعتقد ذلك» .



الفصل الحادي والثلاثون

في شهر تموز نفسه ، ولم تكن قد مرّتْ سنةٌ على وفاة (سيغموند) . جلست (هيلينا) في عربة ترام مع (سيسل بيرن) . كانت ترتدي ثوباً من الكتان الازرق لان النهار كان قائظاً ، وكان (بيرن) يمسك امامها بنسخة مفتوحةٍ ذات غلاف اصفر من كتاب (ناس وحيدون) بينما كانت تدندن بالاغنية الشعبية الروسية المطبوعة على صفحته الاولى . كانت مقطبة ، تهزُّ راسها وتحرك يدها كي تضبط ايقاع الاغنية . ثم استدارت على نحو مفاجئٍ صوبه ، وهزت رأسها وقالت ضاحكةً :

– «لا فائدة لا استطيع ضبط ايقاعها . اعتقد ان تأرجح العربة يمنعني من ضبط الايقاع» .

فرد عليها ضاحكاً :

– «الاشياء الخارجية الصغيرة تقهرك دائماً» .

فاجابت مبتسمةً مَسندةً رأسها على الشباك :

– «اهي كذلك حقاً ؟» .

كانت الساعة السادسة مساءً . والسماء ملبدة بالغيوم بعد يوم دافئٍ معتم . وعربة الترام تقفز باتجاه الجنوب . ومن زوايتي عينيه ، راقب بيرن خصل شعرها ، وهي ترتجف على عنقها بتأثير الريح :

– «اشعرُ وكأنها ستمطر» .

فقال لها ، بهدوء وقد التفت كي يراقب الناس على رصيف المحطة :

- «كان المفروض الآّ تخرجي اذن» .
قالتْ :
- «كان المفروض الآّ اخرج لاني لستُ مهيأة لذلك تماماً» .
ومع ذلك ، لم يكن لديها ادنى استعداد للعودة . نزلا من العربة عندئذٍ ، وسلكا طريقاً يتفرعُ من الطريق العام ويتسلق التلال . وكانت الاشجار معلقةً على احد جانبي الطريق . بينما انتصبت على الجانب الاخر مجموعة من المساكن المحاطة بعشبٍ عال . وعلى ذلك العشب ، اندفع كلبان ضخمان من كلاب الرعي ، ووقفا على حافة المنحدر المعشوشب المطل على الطريق وهما ينبحان ويهمهان بصخب . توقفت (هيلينا) و (بيرن) ساكتين يراقبانهما . كان احد الكلبين رمادي اللون كما هي العادة ، أمّا الآخر فقد كان بُنّياً شاحباً ولقد اهتاجا بسبب وجود (هيلينا) و (بيرن) ، وضحكت (هيلينا) منهما وعلقت بطريقتها البطيئة :
- «انهما . . .»
فأكمل بيرن قائلاً :
- «انهما كلبا رعاة يمثلان علينا دور ذئبين»
فردت (هيلينا) قائلةً :
- «لا . انهما يذكراني بفاسنر وفاسولت» .
وقال (بيرن) :
- «فاسولت . انهما يشبهانه . اني اتساءل اذا كانا يكرهاننا حقاً» .
فقالت له وهي لاتزال تضحك :
- «هذا ما يبدو» .
وقال لها :
- «إنَّ الكلاب تتعلق بي بشكل عام» .
انفجرت (هيلينا) بالضحك على نحو مفاجئ ، فنظر اليها مستفهماً ، فقالت وهي لاتزال ضاحكة :
- «اتذكر انك في (نوك هولد) كنت تمشي في موكب برفقة حمل صغير وكلب . . .» .
واشارت باصابعها الى الطريقة التي كان يمشي بها الثلاثة .
فقال :
- «لابد اني كنت ابدو مثل الحمار» .
فضحكت وقالت :
- «مثل عازف مزمار بملابس مرقطة» .

ورد عليها :

– «ومع ذلك فأن الكلاب كانت تتبعني» .

فقالت له :

– «لقد كانت تتبع (سيغموند)» .

فهتف :

– «آه !» .

واضافت :

– «اتذكر انه كان عندهم كلب صغير بني اللون لفترة طويلة من الزمن ، ولقد كان يتبعه الى البيت» .

وهتف مرة اخرى :

– «آه !» .

فاضافت :

–«واتذكر ايضاً ان قطة مرقطة تبعتني ، ولكن امي رفضت ادخالها البيت . ولقد وجدتها بعد بضعة ايام ميتة في الطريق ، ولا اعتقد اني قد غفرت لامي هذه الفعلة اطلاقاً» .

وقال لها :

– «ان الاسى على قطة واحدة هالكة يتجاوز كل معاناة الرجل» .

فنظرت اليه وضحكت وكان يبتسم بسخرية عندئذ :

– «لست الملومة فيما يتعلق بالرجال كما ترى» .

وعندما اقتربا من قمة التل سقطت بضع قطرات من المطر ، فقالت (هيلينا) :

– «اتعرف . . . اذا ابتدأت تمطر الآن فإنها ستستمر طوال الليل» . واشارت الى كتل السحب المظلمة الهائلة في الافق .

– «انظر هناك» .

فقال لها :

– «أليس من الافضل ان نعود ؟» .

– «لنذهب ونبحث عن شجرة كثيفة نستظل بها حتى نرى كيف تجري الامور ، اننا لسنا بعيدين عن السيارات هنا» .

استمرا في المشي ، وابتدأت قطرات المطر تزداد كثافة ثم ما لبثت ان قلت تدريجاً . وقالت بينما كانا ينعطفان حول التل المدور حيث تنتصب شجرة بلوط على الجهة اليسرى :

– «لقد مرت سنة باكملها» .

وسألها :
- «واية مناسبة هذه ؟» .
- «مرور سنة بالضبط على تجوالنا انا و (سيغموند) هنا . كان اليوم خميساً ، ولقد ذهبنا الى غابة الصنوبر . هل اجتزت غابة الصنوبر من قبل ؟» .
- «لا» .
فقالت له :
- «اذن ، سنذهب هناك» .
فلمّح لها :
- «التاريخ يعيدُ نفسه» .
سألته بهدوء ، بينما كان يقطع رؤوس عشب (رِجل الديك) ، وهو يمشي :
- «كيف ؟ انا لا ارى اية اعادة» .
وهتف بمرارة :
- «لا . انتِ على صواب» .
استمرا في المشي صامتين . وعندما اقتربا من حقل ، رأيا رجالاً يفرّغون العربة الاخيرة من القش في اكداس بُنية اللون . إستنشق الهواء . وعلى الرغم من انهُ كان غاضباً غير انه قال لها :
- «اعتقد ان القش رطب بعض الشيْ . الا تستطيعين استنشاقه ؟ انه مثل التبغ الحار وخشب الصندل» .
فسألته :
- «ماذا ؟ أهي رائحة هذا الكدس ؟» .
- «اجل ان الامر هكذا دائماً عندما يحصدونه رطباً» .
ابتدأت المحادثة مرة اخرى غير انها لم تتطور . وعندما استدارا الى الممر الضيق على جانب الحقل سبقها الى الامام ، وانحنى فوق السياج ، ثم قطع ثلاثة براعم من ورد (صريمة الجدي) . التي كانت صفراء بلون الزبد ، وممتلئة بالعطر ، وانتظرها حتى تلحق به ، كانت ترفع رأسها وتتأمل سياج الاشجار . قَدَّم لها الورود من دون ان يتكلم ، فانحنت الى الامام واستنشقت العطر الغني ثم نظرت اليه من فوق البراعم بعينيها الزرقاوين المتوسلتين الجميلتين ، فابتسم لها وقال :
- «اليست رائعة ، اليسَت وروداً جميلة ؟» .
اخذتها من دون ان تجيب ، وعلقت واحدة منها بعناية في عروة ثوبها . كان ذلك تصرفاً

يتعارض مع مبادئها ، واتخذ (بيرن) مكانه الى جانبها . وقال لها :
- «احب دائماً اللون الذهبي الاخضر الذي يُميز الحقول المحصودة . اعتقد انها تعكس شروق الشمس حتى اذا كان لون السماء رمادياً اشد من لون القط العتابي» .

ضحكت وبالغريزة مَدت يدها بأتجاه الحقل المتوهج الممتد الى يمينها .

دخلا غابة الصنوبر حيث تتحول الريح الباردة الى صفير . ومثل حشرة مضطربة حام حولها ومثل فراشة تهتز لوامسها وترتعش بحساسية وهي تجمع المعلومات ، وتمس الهالة كما لو انها لأنثى . كان رقيقاً على نحو مدهش في معاملتها .

كان الممر قد قُطع لولبياً خلال الاشجار المكتظة المتقاربة المظلمة الرائعة التي كانت تهتز مثل الاوتار تحت قوس الريح الهش ، ومرة بعد اخرى ، كان يحملق في الممرات بين الاشجار ، ممرات ضيقة ذات اعمدة معتمة كما لو انها قد نُسجت من الضباب ، ومن حولها كان الغسق كثيفاً سميكاً تتخلله جذوع صامتة رشيقة .

وقفت (هيلينا) صامتة تحملقُ بقمم الاشجار حيث يُسحب قوس الريح مصدراً ارتجافاً محسوساً ضئيلاً ، واستمر (بيرن) ماشياً من دونها . وعند المنعطف توقف ووضع يده على جذع شجرة صنوبر مدور ، واستدار ناظراً اليها في الخلف . ومثل شرارة زرقاء وسط الاشجار الكثيفة بُنيّة اللون ، كانت تتحرك ببطء شديد على امتداد الطريق .

وحدث نفسه بمرارة :

- «قد لا اكون موجوداً بالنسبة لها ، لانها لا تهتم بوجودي» .

ومع ذلك ، وعندما اقتربت منه ، سألها بحيوية :

- «هل لاحظتِ كيف تخلق آلاف البراعم الجافة بين الجذوع نوعاً من الضباب البُنّي» ؟

نظرت اليه على نحو مفاجيٌ ، كما لو انه قد قطع عليها سلسلة افكارها :

- «هم ؟ . نعم . . اعرف ماذا تقصد» .

ثم ابتسمت له بسبب نبرته الطفولية المتألقة وتصرفاته . فضحك قائلاً لها :

- «اهو ضباب الصنوبر ؟» .

فاجابته :

- «اجل . انت تراه في الصور ولكني لم الاحظه من قبل» .

هزَّ الشجرة التي كان يستند عليها ، وقال لها وهو يعبث بكل شيٍْ يمسكه :

- «انها تضحك عبر اسنانها» .

وعندما استمرا في المشي ، امسكت قبعتها برشاقة ، ثم انحنت لتلتقط دبوس قبعتها الفضي وضحكت لنفسها كما لو انها مسرورة بما حدث ، وقالت له :

- «السنة الماضية . . . سرقت اصابع الصنوبر كُلا من دبوسي شعري ، انهما الدبوسان نفسهما . »

نظر اليها متسائلاً عن مقدار الدفء الذي يملأ به مكان الشبح . فكر بسيغموند وتخيله وهو يتمايل هابطاً الضفة الحادة خارجاً من الغابة مثلما يفعل هو بالضبط في هذه اللحظة و(هيلينا) تخطو خلفه بحذر . كان يشعر دائماً برابطة وعاطفة عميقة مع (سيغموند) وفي بعض الاحيان تصور انه يمقت (هيلينا) .

وصلا نهاية واد ضحل ، كان واحداً من تلك التجاويف العريضة بين التلال الشمالية الذي يبدو مثل نسيج طويل مزدان بالصور يُمسك به اربعة اشخاص . كانت الدنيا تمطر ، ونظر (بيرن) الى النقاط الزرق الغامقة التي بدأت تظهر على اكمام ثوب (هيلينا) . استمرا بالمشي بعض الوقت ، وازداد المطر ، وبحثت (هيلينا) عن ملجأ . وقال (بيرن) :

- «هنا ، هذه خيمتنا ، ولقد تم حجزها مسبقاً» .

انحنيا تحت الاغصان الواطئة لشجرة طقسوس كبيرة جداً تنتصب خلف الممر تماماً . زحفت خلفه ، وكانت الشجرة ملجأً رائعاً حقاً . جلس (بيرن) على حافة الجذر والى جانبه (هيلينا) ونظرت من تحت الاغصان السود الى الوادي حيث كان المطر يهطل مدراراً . وكان التجويف المظلم تحت الشجرة يتغلف بصوته الرتيب . وفي الفضاء الرحب ، حيث كانت نباتات الذرة الغضة اليانعة تتألق بأخضرارها الرطب ، كانت هناك مجموعة من الاغنام تتحرك تحت المطر على سفح التل بقلق وبين فترة واخرى ، يصلهم رنين اجراس الاغنام . في البداية ، تجمعت المخلوقات الرمادية في الزاوية العليا ، وبعد ذلك هبطت واحدة منها واحتمت بالذرة النامية حيث تبعتها البقية الباقية ، وهي تثغو ويدفع بعضها بعضاً بفوضى كيما تصل الى المكان المنشود والذي لم يكن افضل من سابقه .

قال (بيرن) بنبرة غريبة :

- «هذه مثلنا . . . اننا نجوس جميعاً في مساء رطب ، ولكننا نعتقد اننا لو وصلنا الى مكان فيه شخص ما ، فأن المكان سيكون دافئاً لذيذاً» .

ضحكت (هيلينا) بنعومة مثلما تفعل دائماً عندما تصبح نكدة ومشاكسة . جلس ورأسه منحنٍ الى الاسفل ، يبتسم بشفتيه ولكن عينيه كانتا كئيبتين . مدت يدها اليه فأخذها من دون ان يلاحظ ذلك . طوى يده عليها وزاد الضغط عليها من دون ان يشعر .

قال لها :

- «انت باردة» .

فاجابت بهدوء :

– «يداي فقط ، وهما كذلك عادة» .
– «يداي دافئتان عادة» .
قالت له :
– «اعرفُ ذلك ، انهما الدفء الوحيد الذي احصل عليه تقريباً . يداك دافئتان على نحو رائع ولهما لمسة حميمة» .
فقال لها :
– «انهما ممتازتان مثل البطاطا المشوية» .
فضغطت يده موبخة اياه لتهكمه .
وسألها :
– «المزيد من السعرات الحرارية كل اسبوع ، أليست هذه هي الطريقة التي نتدبر بها الامر . على الحساب . وضعت يدها الاخرى على يده ، كما لو انها تتوسل اليه ان يتخلى عن تهكمه الذي يؤذيها ، وجلسا صامتين بعض الوقت ، وتفرقت الاغنام ، وبدأت تصعد الى الجانب الآخر من التل ، واستمرت اجراسها البائسة ترن (تونك ، تونك ، تونك) ، وازداد هطول المطر .

كان (بيرن) يفكر في الاسبوع الماضي ، فلقد ذهب الى بيت (هيلينا) ليدرس معها اللغة الالمانية كما هو المعتاد ، اذ ارادت ان تفهم (فاغنر) بلغته الام . وعلى كرسيين متجاورين كانت هناك حقيبة كمان امتدت على مسنديهما . جلس على حافة احد المقاعد امام الكمان المقدس . وجاءت (هيلينا) بسرعة وازاحته . فقال لها محتجاً :
– «لن اسقطه ، انه بخير» .

كان ذلك كمان (سيغموند) الذي استطاعت (هيلينا) شراءه ، وكان (بيرن) مستعداً ان يعترف بافضليته عليه ، واكدَّ لها مرة اخرى :
– «انه بخير» .
اجابته بهدوء :
– «ولكنك لست كذلك» .

وعندئذ نبض قلبه بسرعة واثارة . اما الآن فإنه يجلس وسط عاصفة صغيرة من القلق لم يكن هناك ما يدلُّ عليها في مظهره ولكن بعضاً منها قد تم ايصاله الى (هيلينا) عبر الضغط المتزايد ليده التي كانت تضغط اقوى فأقوى فوق اصابعها وراحتها . وفجأة ادرك ان يدها لم تعد مرتاحة فأرخى الضغط قليلاً ، تنهدت كما لو انها كانت مضطربة ومنزعجة ، وتساءلت عما يفكر فيه ، فأبتسم لها بهدوء ، وقال لها مازحاً :

– «الاطفال في الغابة» .

ضحكت (هيلينا) بصمت مختنق بالدموع ، وفوقها على الاشجار ، ابتدأ طير بالغناء ، على الرغم من المطر ، باغنية مسائية مهشمة .

– «ذلك الطير المتسول الصغير ، انه يدرك ان حالتنا ميؤوس منها ، لذلك فأنه يذكرنا بالجنة ولكنه اذا كان سيغطينا باوراق الطقسوس فلقد وجد لنفسه مهنة» .

ضحكت (هيلينا) مرة أخرى وارتجفت ، فوضع ذراعه حولها وسحبها الى دفئه . وبعد هذه الحركة الجديدة والجريئة لم ينبس اي منهما ببنت شفة لبعض الوقت .

قال لها :

– «المطر مستمر» .

اضافت ضاحكة بعد حين :

– «وسوف يستمر» .

فقال لها :

– «انا راض بذلك» .

وزقزق الطير فوقها بصوت عال مرة اخرى .

فقال (بيرن) :

– «انه ينثر الورد فوق رأسينا» ثم اضاف ساخراً حزيناً «ولكن ولا غصن طقسوس واحد» .

اصدرت (هيلينا) صوتاً دالاً على مزيج من الرقة والاسترخاء تجاهه ، والتعب لنفسها ، وتركت نفسها تغطس قريباً منه ، فهمهم قائلاً :

– «ايكون الامر كذلك دائماً ، لا طقسوس !» .

وضع يده التي كان يكسر بها براعم الصنوبر على رسغها البارد . وبعد ان لاحظ ان اصابعه كانت متسخة سحبها قائلاً :

– «سأترك آثاراً عليكِ» .

فاجابته :

– «ستختفي !» .

– «نعم ، اننا نخرج نظيفين بعد كل شيء ، فالزمن بلسم يشفي كل انواع الجروح» .

فقالت له مبتسمة :

– «بعض الجروح لا تزول» .

ومدت ذراعها الاخرى التي كانت تضغطها بدفء على جنبه ، فرأى فوق الرسغ حرق الشمس الذي حدث السنة الماضية ، فنظر اليها (بيرن) بحزن وقال لها بأسى :

– «ولكن هذا سيختفي ايضاً» .

وضعت (هيلينا) ذراعها حوله تحت سترته وكانت باردة فشعر بموجة حارة من المتعة تنتشر في جسده . وفي الحال تركته وارتدت قبعتها ، فقال لها :

– «هكذا افضل» .

فقالت له :

– «لقد كنت خائفة من الدبابيس» .

فرد ضاحكاً :

– «لقد كنتُ اتفاداها طوال الساعات الماضية» .

وضعت ذراعيها مرة اخرى تحت سترته طلباً للدفء . وضحكت واصدرت صوت مواء واهن ، كما لو انها متعبة وعديمة الحيلة . واسندت رأسها على صدره . ووضع خده على خدها .

قالت له بنبرة كليلة :

– «انا احتاج الى الراحة والدفء» .

فهمهم موافقاً :

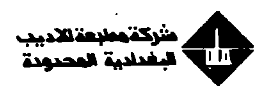
– «حسن» .

تمت

★★★

الطبعة الاولى . ١٩٨٩

رقم الايداع في المكتبة الوطنية
ببغداد /٢١٨ لسنة ١٩٨٩
١/ ٥٠٠٠ - ٢٥/ ٣/ ١٩٨٩





تعد رواية الخاطئ التي صدرت في عام ١٩١٢ اقصر روايات لورنس الكثير من احداث الرواية مستلهم من قصة حب قصيرة . جرت بين اثنين من زملائه . وقد صرف النقاد الكثير من الجهد على تحليل عناصر السيرة في الكتاب دون ان يدركوا ان لورنس كان يكتب عملا من تجربة متخيلة يتجذر اصلها في الواقع .

تهدف الرواية الى القول ان انعدام التوازن في العلاقة بين الرجل والمرأة يضعف الشريكين معا . وفرض الرغبات من احد الطرفين لابد أن يؤدي في النهاية الى انتصار احد الشريكين .

رواية الخاطئ مليئة بالمواضيع التي سيتناولها لورنس بتفصيل اكبر في رواياته اللاحقة .



السعر ٤٫٠٠٠ دنانير

لوحة الغلاف للفنان: كارافوسيس
تصميم الغلاف: سينا عطا

شركة مطبعة الاديب البغدادية المحدودة